فوّاز حدّاد

عزف منفرد على البيانو

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

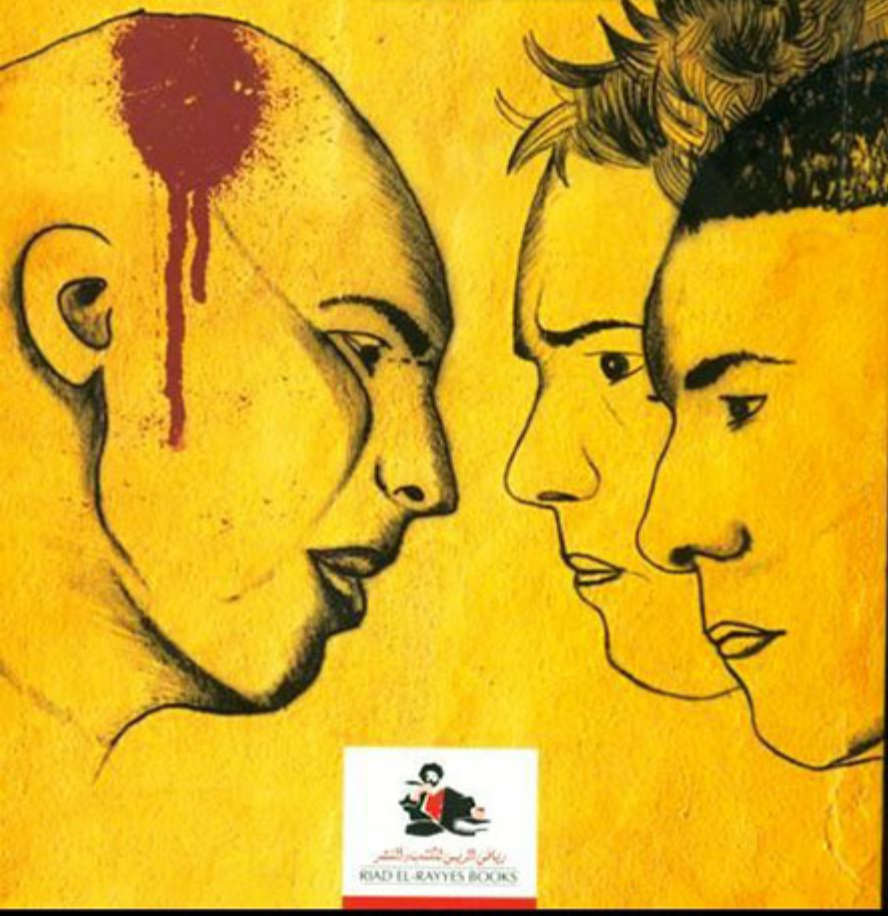

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

المحتويات

١ ــ الخبير الشاب	١١
٢ ــ سيدة في نحو الأربعين من عمرها	١٧
٣ ــ الزائر الأخير	٢٥
٤ ــ العلماني المقيت	٣٣
٥ ــ لماذا سيب الأستاذ قلقاً طفيفاً للدولة؟!	٤١
٦ ــ برقية محمولة باليد	٤٧
٧ ــ بنك المعلومات	٥٣
٨ ــ الراحلة	٦١
٩ ــ المقتفي النسائي	٦٧
١٠ ــ جولة خاسرة مع الموت	٧٥
١١ ــ الخبير ... من هو؟	٨٧
١٢ ــ العلماني ... من هو؟	٩٣

١٣ ــ دراما متقلبة	٩٧
١٤ ــ احتمال لا بد من تجريبه ذهنياً	١٠٥
١٥ ــ تشابه غير متعمد	١١١
١٦ ــ مغامرات العلماني	١١٩
١٧ ــ حسون المربد والحارس والتلميذ	١٢٩
١٨ ــ مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس	١٣٧
١٩ ــ تعقيب على المحاضرة	١٤٧
٢٠ ــ أشبه باختطاف	١٥٧
٢١ ــ الصديق يتظاهر بأنه يأكل	١٦٧
٢٢ ــ العلماني يتخيل	١٧٣
٢٣ ــ الدعوة تأخذ مجراها	١٨١
٢٤ ــ الدعوة تتفاقم إلى حرب مواقع	١٨٩
٢٥ ــ عرض بالحسابة	١٩٧
٢٦ ــ الجهاز الدولي	٢٠٥
٢٧ ــ حسابة لامرئية	٢١٣
٢٨ ــ عزف منفرد على البيانو	٢٢٣
٢٩ ــ ذكرى عيد الزواج	٢٣١
٣٠ ــ تحولات مرئية	٢٣٩
٣١ ــ الصديق يحترف بجهله	٢٤٥
٣٢ ــ لماذا السيناريو؟	٢٥١
٣٣ ــ السيناريو الرباني	٢٥٧
٣٤ ــ وداع طويل	٢٦٥
٣٥ ــ ما زال للوداع بقية	٢٧٥
٣٦ ــ مسألة إيمان	٢٨٥

٣٧ ــ لقاء على حافة الحلم ٢٩٣
٣٨ ــ الانسحاب التدريجي ٢٩٩
٣٩ ــ الربيع ٣٠٣
٤٠ ــ النور ٣١١

1

الخبير الشاب

بعد أن تجاوز الطابق الأول ببضع درجات، سمع صوت دعسات أقدام تهبط من الطابق الثالث. تابع صعوده على مهل. عند منعطف الدرج، ظهر الرجل النازل، وقد تلكأ قليلاً. لم يُعنَ بالنظر إليه، عندما حاذاه، أحس بحركة غريبة، وقبل أن يرفع بصره إليه، صدمه بكتفه، لم يعتذر الرجل، أو يبتعد عن طريقه، بل مال عليه بجذعه، دفعه وحصره إلى الحاجز الجانبي للدرج، متعمداً التحرش به، فالدرج لم يكن ضيقاً ويتسع لاثنين. بحركة لا شعورية دفعه عنه. استدار الرجل، وصفعه على وجهه بقوة أطارت صوابه. لبث مذهولاً للحظات. لم يتبين ملامحه في العتمة الشاحبة، سوى أنه كان يرمقه بحدة. استند ملخوماً إلى الحاجز، تسمرت أمامه صورة غائمة للحائط؛ كان آخذاً بالتراجع، وازداد ميلان الدرج. فيما كان الرجل الذي صفعه بلا مبرر، ولم يتزحزح عن مكانه، قد أمسك بكتفيه، شد بقبضتيه عليهما، ودنا برأسه منه، هاجماً

بوجهه نحوه فالتقط بعضاً من ملامحه، وكانت قريبة جداً، مقاييسها غير عادية، حتى أن خده احتل مساحة الرؤية. نفث أنفاسه في وجهه وهمس في أذنه، ثم أبعده عنه بفظاظة؛ كان الرجل غاضباً جداً، ما أوقع في ذهنه بأنه ينوي ضربه ثانية، لم يخطئ، رفع ساعده ليحمي وجهه، كان قد هوى على وجهه بصفعة ثانية، أقوى من الأولى. انبرمت رقبته، وفقد توازنه، مد يده ليمسك بشيء، أو يستند إلى الجدار، وهو يفكر جاهداً، لماذا الرجل مصر على ضربه!! وفيما كان يزحط نحو الأرض، لم ير سوى كتفي الرجل ورأسه المطأطئ، ينسل مختفياً في منعطف الدرج. ثم سمع صوت خبط يتوالى، لم يكن سوى رأسه يصطدم بالدرج ويهبط درجة درجة، وغاب عن وعيه.

«ألم تلفت نظرك علامة فارقة تميزه؟».

«لا، كنت صاعداً خافضاً رأسي، بينما كان نازلاً».

«عندما اعتدى عليك، كنتما وحدكما، وجهاً لوجه».

«تم كل شيء بسرعة».

«لا بد أنك رأيته، كان الوقت ظهراً».

«لم تكن الرؤية واضحة، الدرج والفسحات بين الطوابق غير مزودة بالإضاءة، تبدو في عز الظهيرة، وكأنها في أول الليل».

تجدد التحقيق مع وصول خبير شاب يرافقه أربعة مسلحين، مزوداً بصلاحيات غير محدودة، كان يحمل تكليفاً بالنظر في القضية. كفَّ يد الشرطة عنها، وأبقى اثنين منهم لضبط النظام. كانت مهمته التأكد من طبيعة الحادثة، فيما إذا كان لها علاقة بالإرهاب، كما تزعم العريضة التي وقّع عليها حتى مساء البارحة

أكثر من ثلاثين شخصاً. وكان العدد قابلاً للزيادة.

قبل أن يقرأ ضبط التحقيق، باشر باستعمال صلاحياته، أخرج المتجمعين من الغرفة، ومنعهم من الدخول إليها، حرصاً على سلامة المصاب. كانوا من الصحافيين ونشطاء سياسيين من جمعيات مدنية وأهلية ومعهم بعض الفضوليين من معارف المعتدى عليه. احتجوا، فنفهم بصرامة، ولم يسمح لهم بالاقتراب من الباب. أعادوا تجمعهم بعد قليل وحاولوا اقتحام الغرفة، فهددهم بالاحتجاز، وقبل أن يتفرقوا في الممر، أمر بطردهم إلى خارج المستشفى بعد أن حذرهم من الإتيان بكلمة حول الحادثة. كانوا بشوشرتهم يشيعون جواً من الرطانة الفخمة تتناثر فيه تعبيراتهم عن الدين والأصولية والحريات. لم ينتادوا للحضور عبثاً، بل دعماً للمعتدى عليه ضد قوى الظلام والتكفير، وكأنهم من قوى النور والتسامح!!

«قبل أن يهاجمك، تجول في السوق وسأل عنك الباعة، فدلوه إلى البناية التي تسكن فيها. اختبأ فيها وانتظر قدومك ثم... تعرف الباقي. لقد تحرك بحرية وعلى الملأ، دون أن يعمل حساباً لأحد. أليس هذا غريباً؟».

لم يكن يسأله، كان يسأل نفسه. تابع:

«لم يتوخَّ الحذر في تصرفاته، الكثيرون في السوق رأوه، وبعضهم تكلموا معه. لم يثر ريبتهم. أوصافه عادية جداً».

وأخذ يعددها... متوسط العمر، طويل القامة، قوي البنية، جبين ضيق، ذو شاربين رفيعين، وشعر أسود مصفف، ووجه طولاني، وصدر عرضاني.

كانت أوصافه مخالفة لما تراءى للمصاب، الذي ضخمها عدة مرات في ضبط التحقيق، فكان الجبين عريضاً، والشاربان كثّين، والشعر كثيفاً، والوجه ممتلئاً، أما الصدر فمفلطح.

«ألم تره من قبل، أو تلمحه في مكان ما؟».

«لا».

«ثم إنه لا يلبس جلباباً!!».

«لم أقل هذا».

«وكان حليق الذقن بلا لحية طويلة أو قصيرة».

«وماذا يعني؟!».

«يعني أنه ليس إرهابياً».

«لن يرسلوا شخصاً بعمامة ولحية، وبيده مسبحة».

«ولم يهرب، خرج بكل ثقة، نفض ملابسه ومضى بهدوء».

كان يحاول من خلال تساؤلاته المتلاحقة، التلميح بشيء يغاير ما يجعجع به هؤلاء الذين في الخارج. شيء لا علاقة له بكل هذا الزعيق عن الإرهاب.

«هل تعتقد بأن هذا الشخص إرهابي فعلاً؟».

«ولم لا؟!».

«إرهابي أنيق بلا سلاح رشاش وقنابل!!».

«وماذا يكون؟!».

«إنه أشبه برجال الأعمال، أو الشبان الذين يُستأجرون لحراستهم».

فغر المصاب فمه مدهوشاً من هذا التوصيف البريء.

«شتان بينهما».

«كلاهما يرتدي بدلات سوداء وقمصاناً بيضاء ونظارات سوداء».

«لم يكن يلبس نظارات».

«خلعها لئلا تعيقه عن الرؤية في العتمة».

ابتعد عنه، وجلس على كرسي بجوار الخزانة. أراد أن يقول للمصاب الشامخ برأسه الملفوف بالشاش، من السخف التظاهر بأنه اجترح مأثرة في الصدام مع الظلاميين، القصة التي ينوي تصديرها، والآخرون ترويجها ضعيفة جداً، إذا كان من قصة فعلاً، فحساب أراد الفاعل تصفيته، ما هو؟! فتش عن المرأة!! المعتدى عليه رجل لا يخلو من وسامة فجة تروق للمراهقات، وذكورة ناضجة تلفت النساء غير الناضجات، لو أفصح عما يخفيه، فلن يكون هناك لغز. ثمة العديد من الأمور التي تجعل الناس يتضاربون، لكن منذ انتشرت العمليات الإرهابية، بات لها ضحايا زائفون يتحلونها ويسارعون إلى الالتحاق بها.

مدَّ بصره بعيداً، واخترق زجاج النافذة، أخذ يراقب شيئاً ما يتلوى، ثم يصعد ببطء شديد، لم يكن غيمة، كان دخاناً يتعالى في الفضاء.

2

سيدة في نحو الأربعين من عمرها

بعد مضي يوم كامل على اضطجاعه في المستشفى دون حركة، ما زال يعاني من التشوش. كان بحاجة إلى الخلو بنفسه، لكنه قضى الوقت بين الذهول والضجيج والنوم، يستعيد حادثة جرت في عتمة خفيفة، على وقع تحقيق متقطع ومرهق، بات مملاً منذ انتُزعت قضيته من الشرطة، وتولاها محقق شاب كما يبدو من فرع المخابرات يلبس الملابس المدنية. بدا عملياً جداً، وفي منتهى الحيوية، مهمته دحض ما أدلى به إلى المحقق الأول. لم يشأ أن يعلق على استنتاجاته، ما دام التحقيق أصبح تفنيداً متوالياً لأقواله السابقة. تفحص الشاب الذي كان يتأمل السماء، ما الذي يستثير ضابط مخابرات في سماء باردة خالية من الغيوم؟

حاول تذكر ما جرى مراراً، وبدلاً من أن يتوضح، كان في كل مرة يبهت، أو يفقد تفصيلاً ما، حتى خشي أن يفقد الحادثة

برمتها. ما صمم على تذكره فعلاً هو ما قاله الرجل له قبل أن يصفعه للمرة الثانية، شده نحوه، وهمس في أذنه ببضع كلمات، لم يسمعها، كان ملطوشاً ذاهلاً عما حوله، واقعاً تحت تأثير الصفعة الأولى وما خلفته من صخب عبق في رأسه. كان متأكداً من أنه قال له شيئاً يتعلق بالسبب الذي ضربه من أجله. كلمات أرقته طوال الليل، كان صداها الحانق يتردد في أذنه، لو نجح في التقاط كلمة واحدة منها، لعرف سر ما حدث. بل واختلط عليه ما تلمحه وتشتت مع ما كان يبزغ في ذهنه بقوة، ويتلاشى بسرعة، لكنه استطاع أن يتذكر واحداً منها:

«كانت عيناه قاسيتين وكئيبتين».

«هل نبحث عن رجل نظراته قاسية وكئيبة؟».

كانت ملاحظته مواتية للشاب كي يسخر منه.

«الأجدى أن تتذكر لونهما مثلاً، ولكي أنشط ذاكرتك كانتا زرقاوين».

ومع هذا تجرأ بعدها على التعبير عن تلك اللمحة التي عاودته وكهربته؛ عندما رمقه المعتدي بحدة، والشرر يتطاير من عينيه.

«كان يريد أن يقتلني!!».

حبس الشاب ضحكته، لم يكن الجاني يريد قتله، وإنما تأديبه، وحسناً فعل. ما فائدة أي سؤال، إذا كان يعاني من عدم التركيز، وينقصه التهويل؟ أحس بالضجر، القضية لا تستهويه، والمصاب لا يتعاون معه، كانت رغبته قوية في الانتهاء منهما على عجل. كان موكلاً بمتابعة ملفات إرهابية حقيقية وفي غاية الخطورة، ليست

بحجم هذه الحوادث الصغيرة المحظوظة، التي يتوفر لها جماعات تضخمها ووسائل إعلام خارجية تستغلها دعائياً، ودائماً على أسوأ وجه. يبدو أن جهات في الدولة ترغب في أن تتخذ هذا المنحى.

كان انتدابه صباح هذا اليوم ورطة مزعجة. لم يكن محققاً جنائياً، كان خبيراً في قضايا الإرهاب، وبما أن الخبير يسأل، اشتبه عمله بالتحقيق. ملاحظاته وأسئلته لم تكن في محلها تماماً. هذا ليس عمله. لو كان الأمر عائداً إليه، لأرسله إلى بيته فوراً. كان تكليفه بالمهمة للتأكد من سير التحقيق في الوجهة الصحيحة، لكن الذين أرسلوه لم يقرروا بعد وجهته الصحيحة، تركوا له هامشاً مؤقتاً، عليه من خلاله الفصل في التكييف القانوني لهذا الاعتداء، هل يقع تحت بند الإرهاب؟ الجواب، لا.

انفتح الباب ودخلت سيدة في نحو الأربعين من عمرها، أوحت تسريحة شعرها المنسدل على كتفيها أنها أصغر ببضع سنوات. لا بد أن الشرطة تأكدت من هويتها، حتى سمحت لها بالدخول. كانت تعليماته، الأقرباء فقط. هرعت إلى المصاب المفجوع الرأس، عانقته واطمأنت عليه، لاحظ اللهفة ترتسم على ملامحه، وخاطبها باسمها هيفاء دون كلفة. بدا من طريقة إمساكها بيديه، أنها أكثر من قريبة. التفت نحوه وسألته:

«هل الأمر خطير؟».

«لا، على الإطلاق».

«وجدوه يسبح في دمه أسفل الدرج».

هذا ما سمعته من الشبان في الأسفل المرابطين عند المدخل. إذاً

قوى النور لم تغادر المكان، بل تجمعوا على الرصيف الملاصق للمستشفى، يؤلفون روايات عن الحادثة، ريثما يعيدون تنظيم صفوفهم.

«بضع قطرات من الدم. لقد شُجَّ رأسه».

«يقولون....».

«أعرف ما يقولونه، الحادثة كي لا نبالغ، رجلان اصطدم أحدهما بالآخر، فتبادلا بعض الكلمات، وربما الشتائم، أو تشابكا بالأيدي، كان نصيب واحد منهما صفعتين، فانقلب على قفاه. ما أدرانا، هل استفزه حتى ضربه؟».

تناهى إليه صوت المصاب يعترض أو يغمغم. تابع دون أن يلتفت إليه:

«هذا مجرد احتمال، نحن لم نقبض بعد على المعتدي. عفواً، لم أعرف، هل هو زوجك؟».

«لقد زعمت أنني ابنة عمه، لكنه صديق».

فأدرك بأنه أكثر من صديق. وربما كانت هي المرأة التي ينبغي التفتيش عنها، طويلة أنيقة ولطيفة، لا بأس بجمالها، غير أنه من النوع الهادئ، وليس الصارخ المثير للنزاعات بين الرجال الأشرار.

«بعد ذلك غاب عن وعيه ولم يتذكر شيئاً ذا قيمة بنير التحقيق».

«يعتقدون...».

كان صبره قد نفد.

«إذا كانوا يعتقدون بأن الرجل الذي ضربه إرهابي، فالقصة غير مقنعة، لن يكتفي بصفعه، سيقتله، أو على الأقل سيهدده. لم يكن هناك سواهما على الدرج، الفرصة سانحة، الوقت عند الظهيرة، والجيران في فترة القيلولة أو يتناولون الغداء. صديقك أصيب برضوض وخدوش لا أكثر».

لم يرد تبديد ما ظهر من ارتياح على وجهها، فاحتفظ بشكوكه لنفسه، الإفصاح عنها، قد يؤذي صداقتهما الفتية.

«اطمئني، لم تعلن أية جماعة إرهابية مسؤوليتها عن الحادثة، هذا إذا كان ما يزال لهذه الجماعات وجود فعال في البلد».

وتصنّع الانهماك. هذه الجماعات كانت وسواسه الدائم، خلاياها متوزعة في أنحاء البلاد، لكنها خلايا نائمة، لا تستيقظ إلا إذا تعثر رجال الأمن بإحداها، أو ارتكب أحدهم حماقة فانكشف، أو أخذت جماعة منهم النخوة الدينية فهب أعضاؤها ليتقموا من ... ما أكثر ما بات يثير نقمتهم!! لكن لم تشأ أي جماعة، الإعلان عن نشاطها بمحاولة اعتداء فاشلة على موظف في إدارة ما، مغمور تماماً، لم يسمع به غير أولئك الحريصين على اكتشاف أناس مجهولين، تعرضوا لاعتداءات غامضة، فيحيلونهم إلى ضحايا للإرهاب. أما لماذا تهتم الدولة بالحادثة، فربما تفكر بدفع الصحافة إلى استغلالها. قبل ذلك، هل تستحق؟ لا، لا تحتمل!! هذا بشرط ألا يتأخروا في التخلي عنها، قبل أن يستثمرها المصاب على نحو مكشوف، الظروف مساعدة، قد يُوحى إليه ثانية، فيتذكر بأنه تلقى قبل فترة من الزمن عدة تهديدات، مع أنه قال في ضبط التحقيق إنه لم يتلق أي تهديد.

عند هذا الحد، لم يعد هناك ما يغريه بأي استفسار. اتصل برئيسه، وارتأى أن تصرف إدارة المستشفى الجريح المفجوع الرأس إلى بيته، لقد تماثل للشفاء. لكن رئيسه طلب منه متابعة ما يبدو... أنه تحقيق.

«لكنه انتهى».

رئيسه أصر.

«تظاهر بأنك ما زلت تحقق».

تقيد بالتعليمات الأخيرة، عاد بعد الظهر، وتظاهر بأنه يحقق، فأعاد طرح الأسئلة ذاتها، وتلقى الأجوبة ذاتها. من ناحية ثانية، لم يكن متشدداً، فتح الباب وسمح لأقارب المصاب وأصدقائه ومعارفه بزيارته.

لم يكن المساء مملاً، قدوم الزوار الكثيف بعث النشاط في الغرفة، كانوا من رجال الدولة المعروفين، ليس من الصف الأول، بل من الصفوف التالية؛ موظفون من الوزارات المختلفة، ومديرو إدارات ومؤسسات، وبضعة مسؤولين بارزين من الأحزاب؛ توافدوا بالمفرق، بينما تدفقت باقات الزهور بالجملة، وتقاطر معهم نساء سافرات في أواسط العمر، وموظفات شابات في زهرة العمر، يطمئنون على صحة الأستاذ فاتح القلج، ويهنئونه على سلامته من الاعتداء الغاشم.

لم يؤخذ بما أظهره الزوار من تعاطف، كانت مجاملات يستدعيها وجود رجل طريح على السرير في مستشفى. وإذا كانت كلمة إرهاب قد ترددت على مسامعه، وأحدثت لديه رد فعل غاضب، فلأنه كان على اطلاع واف بما يمكن أن تستجره هذه الكلمة

من مخاوف لم تكن حقيقية، على الأقل لأنها من صميم تخصصه، لم يكن يعمل على خريطة صغيرة، تقتصر على البلد، وإنما على خريطة تشمل العالم، يتابع يومياً وأحياناً بالساعة والدقيقة، ما يجري في أرجائه من العراق وأفغانستان والسعودية إلى أوروبا وأميركا.

وأيضاً، لاشمئزازه من هؤلاء الذين يسعدهم تحويل قصة تافهة محدودة الأثر، لا يشوبها أي التباس، إلى جريمة شنعاء أخفقت، مع التأكيد على أن المعتدي قد يعاود الكرة.

مراعاة لهذه الأكذوبة، أبقى الشرطيين يحرسان ليلاً المعتدى عليه الأستاذ فاتح.

3

الزائر الأخير

مع تناقص الزوار في اليوم التالي، أعد الأستاذ فاتح العدة لمغادرة المستشفى، اتصل بهيفاء مساء، وقال لها إنه لا يتوقع مزيداً من الزوار، وسيغادر في الغد، وطلب منها مساعدته ريثما يصل إلى البيت. واتفقا على أن يمر سائق سيارة المركز ويأخذها من عملها نحو الساعة الثالثة بعد الظهر كي ترافقه من المستشفى.

قبل الظهر بقليل، دخل الزائر الأخير، لم تسبقه باقة زهور، ولا مرافقة أفسحت له الطريق، أو أحد فتح له الباب. انسل إلى الغرفة وكأنه يدخل خلسة، بخفة على رؤوس أصابع قدميه، ابتسامة عريضة على وجهه، تشوب نظرته مسحة حزن عميق.

فوجئ فاتح بالرجل قصير القامة الممتلئ الجسم واقفاً أمامه، ينحنح وعلى وشك أن يتكلم. لكنه لم يفتح فمه إلا عن الابتسامة الملتبسة التي دخل بها إلى الغرفة. فاتح لم يعرفه، فظهر

التساؤل في عينيه، غير أن الملامح البشوشة والنظرة الحزينة معاً، تراكبتا بشكل عجيب، وأقنعتاه بأن هذا الشخص يعرفه جيداً، وإلا لما أظهر ببراعة وبشكل مقنع، الألم لما أصابه، والفرح لنجاته في آن واحد. وهذا كاف ليعتقد بأنه يعرفه بالمقابل، وإن لم يحضر إلى ذهنه. فتأسف بإيماءة من رأسه على ذاكرة لم تسعفه، واعتذر منه بنظرة حائرة، لأنه لم يرحب به بالشكل المناسب، فكان الصمت دعوة إلى المبادرة للتعريف عن نفسه.

لم يحبط الشخص الذي توقع أن يحظى بلفتة لطيفة تدل على أن فاتح تعرّف إليه. رغم أن الموقف تجمد على هذا الوضع. أبدى رحابة صدر بابتسامة باتت أوسع، لم يفته أن العصاب نسيه تماماً، فقد مضى زمن طويل، لم ير أحدهما الآخر، حوالي ثلاثين سنة.

«كنا أصدقاء طفولة».

فانتشر فاتح واستقام بجذعه فوق الفراش، عجباً من يكون؟ هل جمعتني الطفولة مع هذا الشخص السمين؟! حتى لو لم يكن سميناً في ذلك الوقت. تابع الشخص موضحاً:

«في المدرسة الابتدائية».

فرجع برأسه إلى الخلف، وارتد عائداً إلى مدرسته الابتدائية في حي الشيخ محيي الدين، وتذكر فوراً الولد الذي رافقه طوال خمس سنوات، من الصف الأول إلى الصف الخامس، لم يظفر باسمه، كان عالقاً على رأس لسانه. ولكن تذكر وجهه بسرعة، فلأن التقاطيع الطفولية لم تفارق ملامحه، ما زالت مطبوعة عليها، رغم أنه تجاوز الأربعين من عمره، وأصبح رجلاً قصير القامة منفوخاً لافت البدانة.

«كيف تذكرتني؟».

«سمعت بما حدث لك، فأتيت لأزورك وأطمئن عليك».

«لماذا لم تحاول رؤيتي من قبل؟».

«مشاغل كثيرة، أقصد مشاغلك، فلم أحاول الاتصال بك. كنت أتابع أخبارك وأقرأ لك. اعذرني يا صديقي، بصراحة لم يسرني ما كنت أقرأه وأسمعه عنك. بعد أن وصلني خبر الاعتداء عليك، دعاني الواجب، الواجب فقط، إلى الاطمئنان عليك، لقد قصرت معك، أنا الملوم. كان عليَّ غض النظر عن بعض الأمور، بعضها وليس كلها. للصداقة حقوق مهما مرَّ عليها الزمن، لا ينبغي التهاون فيها».

لم يشأ أن يسأله، عما قرأه أو سمعه عنه ولم يسره. آراؤه أحياناً لا ترضي أقرب المقربين إليه، فما باله مع صديق طفولة منسية، باعدت بينهما السنين. منذئذ لم يتذكره ولو لحظة واحدة، أو يخطر على باله.

«لا تلقي اللوم على نفسك، وإنما على الزمن الذي فرقنا».

أثاره تدفق الذكريات، هذا الرجل كان صديقه الحميم والوفي، مثلما كان صديق جميع طلاب الصف، ولد ممسوس بفعل الخير، ضرب أمثلة عجيبة على طيبة قلبه البالغة، كان يتبرع بمصروفه اليومي لمن يصادفهم من المتسولين وهو في طريقه إلى المدرسة صباحاً، ويقاسم أصدقاءه رفيقي الحال طعامه، ورغم أنه كان تلميذاً مجتهداً، لم ينافس رفاق صفه على المراكز الأولى، يدرس ليس كي يتفوق عليهم، وإنما ليمد إليهم يد المعونة في الامتحانات الشفهية والتحريرية، خارقاً مثاليته، ولو عوقب من جرائها.

فاجأه الحضور الزخم للماضي المنسي، وما فاجأه أيضاً، اكتشافه أنه كان طفلاً في يوم من الأيام. اعتقد أنه لم يمر بهذه المرحلة، مع أنه كان خلالها تلميذاً نجيباً متميزاً بذكائه، حسبما يقول صديقه الشاهد عليه وعليها:

«كنتَ ولداً لماحاً. توقعتُ لك في حينها، مستقبلاً عظيماً».

وأضاف بخجل:

«ولاحظ الأساتذة، أنا وأنت، كنا نفكر أكثر من غيرنا».

بعد هذا الفراق الطويل والشهادة الممتازة، كان الموقف ملائماً ليسأل فاتح صديقه الأسئلة المناسبة التي لا مفر منها دفعة واحدة، عما فعلته به الأيام، أين أنت يا رجل؟ ما الذي تعمله؟ هل تزوجت؟ كم ولداً صار لديك؟

بتلكؤ وتواضع، أوجز صديقه ثلاثين سنة من عمره؛ لم يتابع تعليمه الجامعي، تسلم بعد وفاة أبيه دكانه لبيع الأدوات المنزلية بالجملة في العصرونية. تزوج صغيراً، ورزق بخمسة أولاد، صبيان وثلاث بنات، اثنتان منهن تزوجتا السنة الفائتة. ترك الدكان لابنه الأكبر، وتفرغ لآخرته.

«في هذه السن؟!».

تساءل مدهوشاً، هل بلغ التدين بصديقه حدُّ التفرغ في وقت مبكر للعبادات وإعداد النفس للموت؟ لا بد أنه مريض بمرض عضال ألجأه إلى الله.

«هل تعاني من شيء؟».

«لا، أبداً، لا أشكو من شيء».

والعجيب، أنه ليس قاعداً بلا شغل، العمل في الجمعيات الخيرية أخذ وقته كله، وهي أعمال بلا مقابل، مد يد العون للفقراء والأرامل واليتامى وكل ذي حاجة، أعمال يبذل فيها جهده إرضاء لربه وللثواب فقط. هذا أفضل ما يحسن به خاتمته.

بعدما أوجزت الخلاصة حياته كلها، السابقة واللاحقة حتى النهاية، جاء دوره في السؤال، فأشار إلى الضمادة البيضاء التي لُفّ بها رأسه، وقال بعتب:

«يا صديقي ما الذي فعلته بنفسك؟».

فانتبه فاتح، كان صديقه يلومه:

«أنا لم أفعل شيئاً، لقد اعتُدي عليّ».

«أخشى أنك أثرت أحداً ضدك».

«لا أدري، التحقيق لم يؤد إلى نتيجة».

اختصر جوابه كي لا يفسد الجو غير المادي الذي استأنس به، مغلقاً الكلام حول هذا الموضوع. لكن صديقه اقترب منه وتكلم بصوت منخفض:

«من قيل بأنهم فعلوها، لا علاقة لهم، جماعتك يلقون الاتهامات جزافاً».

فقال متوتراً:

«ما أدراك؟!».

«أنا أعرف الكثير».

هبطت درجة توتره، وأفلت ضحكة لم يتمكن من إخفائها، هذه الجملة بالذات كان الولد الصغير الطيب القلب يرددها في مواقف كانت بمنتهى الطرافة، أيام كان لمعرفته أبعادها البريئة. ها هو الرجل الطفل، كاشف الأسرار، يرددها بعد مضي عشرات السنين، يزعم بأنه يعرف الكثير!! ما زال على نهجه، في معرفة دائمة، لم تتراجع أو تتبدل، وفي ازدياد.

«ما الذي تعرفه؟».

«الكثير، أكثر مما تتوقع».

«ما زلت كما كنت، لم تتغير».

«طالما تمنيت هذا».

تعجب من محافظته على سذاجته، متوائمة مع ملامحه الطفولية، لم يمسها تغيير ملموس ينبئ عن التقدم في السن، سوى خصلة من شعره دبَّ فيها الشيب، وتجاعيد خفيفة رسمت خطاً متعرجاً تحت العينين، عداها كأن الزمن توقف به عند ذلك الحين!!

والمستغرب، بقاؤه حياً حتى الآن، الحياة لا تحتمل رجلاً بهذه الشهامة والأريحية، التعامل الصادق مع الناس غير مأمونة عواقبه، ما هو إلا طفل صغير في عالم الكبار الخشن، كيف لم يلق حتفه بإحدى نوبات فعله للخير، قد يضحي بنفسه من أجل الآخرين، ولم يستبعد أن يكون احتال عليه الكثيرون، وسلبوه مالاً أكثر من مرة.

«لكن العالم تغير».

«عسى نحن ألا نتغير».

«ومع هذا تغيرنا، تغيرنا كثيراً».

«إذا رغبت في مساعدة...».

«لا أحتاج إلى شيء».

قالها بسرعة، مظهراً ضيقه منه. فما كان من صديقه إلا أن توجه نحو الباب، لكنه استدار عائداً إليه:

«أريد أن أقول لك، إن ما تدعو إليه سيئ، سيئ جداً».

كان يقصد ما يدعو إليه في محاضراته وما يكتبه أحياناً في الصحف.

«نعم لا يروق للكثيرين. معك حق. هذا ما أصبحته، لا لم أعد كما كنت. ولن أعجبك، لكن مهما قلت، فهذا أنا».

وكأنه لم يسمعه. أخرج صديقه ورقة من جيبه وكتب عليها رقم هاتفه، وأعطاه إياها.

«سأدعو لك بالشفاء العاجل. رجائي أن تتصل بي في حال احتجتني».

أخذ الورقة منه، دعكها ووضعها في جيبه. لا لن يتصل به، مهما كان الأمر، ثم لماذا يحتاج إليه؟ في الماضي السعيد كان طفلاً مثالياً. أما في هذا الحاضر غير السعيد، فلن يكون سوى رجل ثقيل الظل والدم، وكما يبدو قادته طيبة قلبه إلى التدين. وعلى الرغم مما يدعيه عن كثير معرفته، لا يعرف سوى القليل مما يدور

حوله، العالم يتطور، أما هو فما زال يعيش في الزمن الغابر.

أمر واحد، كان عليه أن يسأله عنه؛ اسمه، فهو لم يتذكره، كما أن صديق الطفولة، لم يكتبه إلى جانب رقم هاتفه. أخرج الورقة من جيبه ومزقها.

4

العلماني المقيت

الإقبال الرسمي والاجتماعي على زيارة المصاب في المستشفى، استرعى انتباه الخبير الشاب، فلم يدعه دون استفسار. سأل رؤساءه عن سر الاهتمام بالشخص المفجوع الرأس. فبدد الجواب الذي سمعه حيرته: الأستاذ فاتح القلج موظف مرموق، ومفكر مستقل، لا يقل أهمية عن مفكري الحزب!!

ما الذي جعله يسيء الظن بالرجل وقضيته؟!

تسرعه بالاكتفاء بانطباعاته الأولية عنه، واستعانته بالحدس الذي كثيراً ما يخطئ، وقليلاً ما يصيب، وقبلها حفنة المعلومات التي استقاها عنه من جاره في البناية، وهو في طريقه إلى المستشفى عقب تكليفه بالقضية.

المعلومات لم تكن في صالح الأستاذ، كان الجار على خلاف

معه، وأميل إلى تصغير شأنه، لا يعرف عنه سوى النزر اليسير، فهو يجهل عمله الوظيفي، وإن كان مطلعاً على أحواله المعيشية كأرمل يعيش وحيداً، ومثله بقية الجيران ينفرون منه، يعتقدون أن الأستاذ يتجنبهم ويأنف من الحديث معهم؛ كان لا يزور ولا يُزار.

لم يعسر عليه فهم انطباعاتهم السلبية عنه؛ ما دام يسكن معهم في البناية نفسها، وهي بناية قديمة تقع في سوق المزة طلعة السجن، فلا شيء يميزه عنهم، لو كان موظفاً ذا حيثية لسكن في منطقة الفيلات الغربية أو بناية في شارع المالكي. كما أن السيارة التي تقله صباحاً إلى مركز عمله وتعيده بعد الظهر إلى البيت، لا تنبئ عن منصب معتبر، ما دامت هي بيجو قديمة موديل سنة ٧٦، نادراً ما يستخدمها خارج أوقات الدوام الوظيفي.

المعلومات السريعة الرسمية التي حصل عليها، كانت لا ريب الأقرب إلى الحقيقة. كان مديراً مرموقاً فعلاً، لكن دون نفوذ فعال، ولا عمله ذو شأن كبير، كان موظفاً محترماً، والأهم مفكراً معروفاً. فاكتفى الخبير مؤقتاً بهذا القدر، لكن فيما بعد سيبحث عن المزيد.

وللعلم، أُسند إليه هذا المنصب المرموق غير الفعال، مكافأة له على مواقفه التقدمية في فترة سابقة، مع أنه لم يطلب شيئاً لنفسه، لكن أصحاب القرار في الدولة، وُجد من بينهم من ارتأى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وفي الوقت نفسه إبعاده عن أي وظيفة تشكل حضوراً لافتاً. كان منصب مدير مركز المعلومات شاغراً، لا أحد رضي بتسلمه على الرغم من الوجاهة الثقافية والسمعة الأخلاقية غير المنحازة التي يسبغها على صاحبه. كانت لديهم أسبابهم، الوجاهة الثقافية تبهت مع الزمن، والقيم

الأخلاقية نقيصة في عالم لا يهتم إلا بالمادة. أما الحقيقة التي لا يستهان بها فهي، منصب دون تأثير، منصبٌ دون مورد.

يجهل الجيران كل هذه الأمور عن جارهم الانعزالي. بيد أن الجانب المجهول والأبرز، أنه مفكر علماني، اختار منذ زمن غير بعيد الإيمان بالعلم، والانحياز إلى جانب العقل، ونبذ الخرافات والأوهام وجميع المعتقدات التي لها علاقة بالروح، أي كل ما لا يرى أو يلمس.

لم يحترف فاتح الفكر كمهنة تجلب المال، وإنما السمعة النضالية، تحت تأثير دافع كان خليطاً من الاستقامة الأخلاقية والجدل العلمي والشغب الفكري. كان هاوياً، يهتم بالمبادئ، أحدث المبادئ، دون أن يتعيش منها أو عليها، يعقد محاضرات غير دورية ويدير ندوات بلا مقابل. عُرف بمداخلاته العميقة ومعاداته للشعبوية، وكان صادقاً في الدفاع عن العقلانية والدعوة لها بدافع داخلي، بحثاً عن الحقيقة، خصوصاً الحقائق الدامغة، كالموت تلك الحقيقة التي كلفته فقدان زوجته.

وبالتأكيد لو علم جيرانه بما يدعو إليه، فسوف يكونون ضده، فهم لا يقرأون سوى صفحة الجرائم وما يطرأ على أسعار السيارات والعقارات من ارتفاع وانخفاض، ولا يهتمون بالأفكار المجردة، عدا أنها غير مفهومة، لا فائدة منها في الحياة اليومية. معلوماتهم عنه ما زالت على حالها، فهو الساكن الجديد، مع أنه مرَّ على سكناه البناية عشر سنوات، أو الرجل الذي ماتت زوجته، مع أنه مضى على وفاتها ثلاث سنوات. وبما أنهم يعنون بالمظاهر، بدا لهم أنه ما زال محتفظاً بشبابه، يراوح في منتصف ثلاثينياته، مع أنه تخطى الأربعين من عمره منذ سنوات غير قليلة.

كانت له صولات وجولات محدودة على صفحات الجرائد المحدودة أصلاً، وأصبح معروفاً ضمن دائرة صغيرة من القراء النابهين، ومشبوهاً لدى الإدارات الحساسة لانتقاده سياسات داخلية لا يجوز الإشارة إليها. لم يمنح ولاءه للسلطة، ولم ينضم معها. فلم يحاولوا شراءه لاعتقادهم بأنه سيحرجهم بآرائه الجريئة، ففضلوا رشوته بمنصب، وتجاهله ما دام لا يضايقهم، وإن كان يزعج المجتمع أحياناً بتطاوله على تقاليده ومعتقداته.

غير أنه من الناحية العملية، كان متمهلاً، لطغيان الجانب الفكري على شخصيته. كما كان لطبيعته الجادة التي تنفر من الاختلاط بالناس أثرها فيه وعلى اختياراته، فكان أميناً على صفته كمثقف غير تابع لأية جهة. ورفض التعاطي والحوار مع التنظيمات السياسية والمدنية والتجمعات الدينية بأنواعها المتشددة والمعتدلة، وإن ربطته بهم علاقات طيبة وغير طيبة، أثبتت جدواها حينما اعتدي عليه، وعدم جدواها، إذ لم تفده بشيء.

أما محاضراته عن العلمانية، فكانت تدور وتلف حول فكرة واحدة هي فصل الدين عن الدولة. كان يشرحها ببراعة ويحيلها إلى موضوعات عميقة ذات مستوى عال، فيرتقي ـ من فرط تحمسه للعلمانية ـ بالدولة المكروهة إلى نظام يحترم الضمير، يحفظه من أن يكون ملكاً لدين أو طائفة أو مذهب، فتبقى للجميع. لاقت فكرته صدوداً لدى ناقديه المتدينين؛ فالدولة إن لم تكن لدين، فلن تكون للجميع، ستختطف وتصبح نهباً للصوص المختارين.

انصبت عدائيته بالدرجة الأولى على الغيبيات، لم يكن يهاجمها صراحة، أو ينفي مكانتها الروحية. كان يبث ضدها وبذكاء دعاية إلحادية لبقة. لم تخفَ على متابعيه وخصومه. كان متعنتاً ضد

المتدينين، لا تهمه حرية ضمير ولا تعبير مخالف أو مختلف، ويجهر بعدم التسليم بصحة أي شيء، وإخضاعه للفحص والتجربة. شعاره، لا حقيقة إلا حقيقة العلم. ولئن تباهى بفكرة أن العلم نزع السحر عن العالم، فلكي يثبت أن الدين لا يقل شعوذة عن السحر، وليس أكثر من خزعبلات لا أساس لها، ولا حاجة إليها.

وعندما اضطرت السلطة إلى تحذير المثقفين من إطلاق الآراء المتطرفة، والتهجم على المعتقدات الدينية، وكان هذا ضمن خطة عملت فيها على بذر الشقاق بين الشعب، وفي الوقت نفسه، جادة في تأمين الاستقرار، نجحت في تحقيق هذا التوازن الذهبي المستحيل، وكأن أحدهما لا يتنافى مع الآخر، بل يعتمد عليه، حتى خيل للكثير من المراقبين أن الشقاق ليس عماد الاستقرار، وإنما ركيزته أيضاً.

لم يأخذ هذا التحذير بعين التفهم ولا الحيطة، فتخلى عن لباقته الفكرية ورفع حدة انتقاداته لأهل الدين، فسالت الكفة لأهل العلم، وأخل بالتوازن، وكادت أن تثار فتنة بين المتدينين وغير المتدينين على قضية فقهية عظيمة الشأن، كانت بالنسبة إلى العلمانيين طريفة وتدعو للتندر. ما دفع السلطة إلى كبح جماح علمانية الأستاذ. فاستدعوه إلى أحد الفروع وأفهموه بحزم أنه إذا كان كافراً، فهم كفار أكثر منه. وألزموه بوقف تهجماته على الدين في المحافل العامة. فقلص انتقاداته العلنية وحصرها بجلساته الخاصة، التي لا يحضرها إلا مريدوه، واكتفى بالدفاعية، أي بالدفاع عن العلمانية من ناحية أنها تحفظ السلم الأهلي وتمهد للدين روحانيته. فاستعاد احترام ورضا الأجهزة صاحبة القرار. واعتبروه من

المخزون الاحتياطي العقلاني لدولة غير عقلانية ولا مؤمنة، يكمل تشكيلة الأصناف المفكرة التي لا يستغنى عنها في المناظرات التلفزيونية التي تتطلب مماحكة ومناكفات، وجدلاً ومصطلحات، لئلا يقال إن البلاد تفتقر إلى مُنظّرين يتكلمون بالفصحى، ويسبغون مناخاً من التفكير المنفتح، وإن كان ثقيلاً على برامج كانت بلا وزن، وشيئاً من الجدية على حوارات الطرشان.

ومع أنه لم يُستدع إلا مرة واحدة، لتلفظه بآراء ينبغي أن يكون أكثر حذراً في الإفصاح عنها، فقد تعلم الدرس. على كل حال، بالنسبة إليهم، ما دام تحت اليد، فلا خطر منه، ولا من إبقائه في وظيفته، بل وترفيعه، بشرط ألا يشعل سوى حرائق صغيرة لا يعسر تطويقها، وإطفاؤها عند اللزوم.

وإذا كان جيرانه قد أخفقوا بعقد صلات طبيعية معه، فلأن انعزاليته المحكمة لم ترقْ لهم، ظنوا أنه يتعالى عليهم، خاصة أن هيئته الجادة تضفي عليه مظهراً واجماً، من النوع الذي يتلبس المفكرين المتشائمين ولا يفارق تصرفاتهم اليومية، مع أن شروده، كان لانشغاله بالتفكير بأمور هائلة التأثير، ذات أبعاد إنسانية، حتى المشاكل البيئية الهامشية، كانت حسب تحليلاته ممتة، كأكياس القمامة التي ترمى من الشرفات، وانقطاع المياه والكهرباء لفترات طويلة، وأشغال الطرقات التي لا تنقطع.

لم تكن ملامحه مريحة عندما تتضارب الأفكار في رأسه. كان يعقد حاجبيه فيتجعد جبينه، مضفياً على ملامحه العبوس، ويبدو عليه القرف، فيصبح شكله أقرب إلى أن يكون مقيتاً، فمقته جيرانه، ولم يهتموا بما حصل له، ومن اهتم، فلكي يشمت به.

وعندما كانوا، بين فترة وأخرى، يستعيدون حكايته مع المرحومة، يشفقون عليه ويتعاطفون مع مأساته، وتلين مشاعرهم تجاهه ويشوبها الإكبار. فيحاولون التقرب منه، فيفاجئهم بعجرفته، وهي ليست عجرفة، وإنما مظهر اعتاده، فيمقتونه من جديد.

5

لماذا سبّب الأستاذ قلقاً طفيفاً للدولة؟!

اعتدلت نظرة الخبير الشاب إلى الأستاذ فاتح. لم يعد مجرد شخص مفجوع الرأس بسبب امرأة، وإنما مفكر معتدى عليه. لا يهم لماذا؟

بل ونجح في إثارة فضوله كمفكر تقدمي ذي إمكانية مستقبلية واعدة في النشاط المضاد ضد الإرهاب. أدهشه تجسده المباغت على هذه الشاكلة، وأن يصبح فجأة على علاقة بعمله وعالمه، عالم قد يعثر له على دور في داخله، إذا جرى توظيفه في المكان الصحيح. لكن قبل هذا وذاك، عليه التأكد من جدية اهتمام الدولة به، رسمية أم فعلية!! دون أي تفكير بإعادة النظر في قضيته. القضية حالياً غير مهمة، الرجل هو المهم.

اتصالاته أثمرت، ولم تكن من الناحية التي خشي أن تعيده إلى الوراء، وتضعف موقف الأستاذ فاتح، سجله الأمني لم يحتو على

دزينة من النساء، وإنما على عدد ضئيل منهن، لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة، إحداهن زوجته. التفتيش عن امرأة في الظلام فقد أولويته، بعدما أصبحت متوافرة في النهار، خصوصاً أن الجنس لم يعد مادة ثمينة، ولا يصلح للتشهير، صار بضاعة غير نادرة، بعد دخول المرأة سوق العمل.

كما أن السجلات لم تخيبه، أنجدته ببعض المعلومات المهمة، فتوصل إلى استنتاجات معقولة لم يتوقعها، وشكوك سيئة لم يستطع تفاديها، لكن بالوسع توقعها، ولا تستغرب من دولة تجهد في فتح صفحة جديدة مع المثقفين، وتحاول استئناسهم، فبادرت نحوهم ببضع مجازفات، كي لا تُلصق بها تهمة إهمال المفكرين غير المحسوبين عليها، واضطرت إلى معاملتهم على قدم المساواة مع مفكريها، وعدم التخلي عنهم في حال استهدفوا بالقتل، وقدمت لهم بعض الرعاية، مع التغاضي عن انتقاداتهم وأكاذيبهم ضدها، كان هذا سر الاهتمام الرسمي به... مجرد شكليات، منعاً للتقولات.

أما لماذا سبّب الأستاذ قلقاً طفيفاً للدولة؟ فليس لأسباب صحية. الأمر معقد ببعض الشيء، كان، سواء يدري أو لا يدري، واحداً من الذين يفكرون لحسابها، ويدعمها في معرض تأكيده على أخطار الأصولية. كانت خدماته مبذولة لها على نحو غير ظاهر ولا مكلف، وخسارتهم له لا مبرر لها، ولاسيما أنهم لم يشاركوا بتدجينه ولا تأهيله. ما يتبرع به مجاناً، يدفعون ثمنه للآخرين باهظاً، مع كف النظر عن انحرافاتهم المالية وسمعتهم السيئة. أما هذا فبدافع ذاتي، حتى المنصب الذي منحوه إياه، لولا جانبه الثقافي لما قبل به. كان أحد أدواتها النظيفة، الصالحة للاستعمال في الأمور غير النظيفة.

لم يهتم الخبير بنشاطات الأستاذ الوظيفية، ومعها المركز وما يحتويه من معلومات، ماذا تكون سوى المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والجغرافية.. إلخ. أما المعلومات السرية، فغير متوفرة لديه، عدا أنها محجوبة عنه.

أيضاً، مشاغله الفكرية، ما ضرورتها؟ ما دامت عملية التفكير، لا تزيد عن ذلك اللغو المضني الغني بالحذلقات والتلاعب بالألفاظ، حول الأيديولوجيات الدينية والقانون الإلهي والتجربة الأوروبية والحداثة.... ما الذي تقدمه لدولة لا تجعلها الأفكار التقدمية تتقدم، ولا الرجعية تتراجع؟

لم يقل هذا عن غير دراية، كان هو كخبير يفكر أيضاً، لكن على طريقته، وبهدف محدد، وإذا كان يُحدث تأثيراً في الواقع وعلى الأرض، فبهدف عدم إحداث متغيرات، أو تعريض النظام إلى خضات قوية، وذلك بالعمل على اكتشاف ما يبتكره الإرهابيون من أساليب جديدة. كان على سباق دائم معهم. ومن الطبيعي ألا تلتقي تهويمات التنظير الفكري المجرد بالتخطيط العملي المضاد للإرهاب، ليس لأن أهدافهما متناقضة، وإنما بحكم الفرق بين الوسائل: الجدل والرصاص. الجدل يقتصر على الكلام، بينما يتضخم الرصاص إلى قنابل ومتفجرات، وسيارات مفخخة، وأحزمة ناسفة؛ وسيف عاد مسلولاً، أحد تطبيقاته؛ قطع الرؤوس.

كانت تقصيات الأستاذ فاتح خارج نطاق عمله. مثلما كان اهتمام الدولة به، خارج نطاق تعاطفها معه، لإبطال حجج المعارضين وجماعات حقوق الإنسان، حتى أن المعركة شديدة اللهجة، تداركها أصحابها بعد ضغوط حازمة وسريعة، وأصبحت أكثر دقة، فشُطب منها وقوع الاعتداء في وضح النهار، بسبب

العتمة على الدرج، ولم يوجه الاتهام لقوى الظلام، لئلا يظن أحد بأنهم عادوا إلى الساحة، فسجلت ضد مجهول، واكتفي بأربعين توقيعاً. نشر الخبر في الصفحات الداخلية للجرائد الصادرة اليوم، أما على المواقع الإلكترونية فلم يظهر تحت صيغة خبر عاجل.

والآن، مسايرة لرئيسه الذي أصر قبل يومين على متابعة التحقيق بعد إغلاقه، وإكراماً لمخاوف المفكر المعتدى عليه؛ اقترح وضع حراسة مؤقتة على بيت الأستاذ فاتح ومرافقين مسلحين، واحد صباحي والثاني مسائي، يرافقانه لفترة محدودة من الزمن.

رئيسه وبالإصرار نفسه، طلب منه لفلفة القضية. الرفض هبط من فوق معللاً: في هذه الحالة، لن يكفينا تحويل دوريات فروع المخابرات كافة إلى حرس لحماية أمن كل من يقول كلمتين ضد الدين، لدينا جيش من الكفار، إذا كانوا يريدون الجمجمة والتشدق بإلحادهم فليتكفلوا بحماية أنفسهم.

القرار نهائي: لا عودة للمظاهر الأمنية، لئلا نثير رعب الناس.

دون شك، غَبنَ القرارُ الأستاذ بشكل مجحف. ما زالوا مصرين على إهماله. المشكلة، أن ما جرى له يفتقر إلى لمسة إرهابية. لكن ماذا لو كان فعلاً قد تعرض لهجوم إرهابي؟! طبعاً لن يعاملوه بأحسن. غير أن الدافع، ما زال قائماً، وإذا تعرضوا له ثانية، فلن يضربوه بل سيقتلونه. احتمالٌ مستبعدٌ الآن، لكنه وارد في المستقبل.

كان الأستاذ فاتح بصورته الحالية يستحق التقدير، وإن كان غير مشهور على نطاق واسع، لهذا لم يسمع به، ولولا هذه المصادفة لما تعرف إليه. ما استوقفه فعلاً، هو الجانب العلماني من

شخصيته. كان من المستحسن أن يتعامل معه بشكل أرقى. وبالنظر إلى بعيد، ليس بعيداً جداً، يعتبر مادة خصبة لقضية كبيرة، نقطة الضعف فيها، أنه معروف على نطاق ضيق، لكن عند اللزوم، من الممكن توسيعه قليلاً، أو تضييقه أكثر، حسب المطلوب.

سيراه اليوم، ويصلح الأمور بينهما، هذا إذا لم يكن قد غادر المستشفى.

6

برقية محمولة باليد

أدركه قبل أن يغادرها بلحظات. رآهما يهمان بالخروج، الأستاذ واقف إلى جانب السرير متأبطاً ذراع السيدة هيفاء، التي انسحبت وأخلت لهما الغرفة بمجرد أن دخل، قائلة للأستاذ بأنها ستنتظره في السيارة.

لم يكن بوسعه تبرير زيارته له بعد انتهاء التحقيق. لكن من يستطيع مساءلته عن تقدير ضرورة أو عدم ضرورة ما يفعله؟ ومهما يكن، الفرصة تهيأت لترميم علاقة شخصية نشأت وتدهورت إلى الحضيض خلال يومين، لن يشير إلى مهمة اضطر إليها، وكان غير راض عنها، فالقضية أقفلت. سيجاري أوهامه بعض الشيء، بوضع الاعتداء في نصاب ما معقول، بعدما امتنعوا عن حمايته بعنصرين مسلحين.

حاول أن ينجز كل شيء على عجل، التهنئة بالشفاء، وبضع

كلمات بلا معنى، ثم يودعه إلى لقاء قريب. زاد عليها بأن شدَّ على يده، وأبدى أسفه، معتبراً العملية إجرامية، أشفعها بتفسير، كان مختلفاً.

«تقديراتنا أن الرجل الذي قام بالاعتداء عليك، رجل أزعر استأجره شخص يُكِنّ لك الحقد لأسباب لا داعي لذكرها، أعتقد أنها خصوصية جداً. قضيتك انتهت عند هذا الحد، والأغلب دون عقابيل».

بداية معقولة أدت إلى نهاية معقولة، طمأنت الأستاذ كما يبدو، وكسرت حاجز الرهبة لديه، بما أبداه الخبير من رحابة صدر. لكن الخبير نفسه لم يتوقع أن تنازله سيحرك في داخل الأستاذ شهية عارمة للكلام، أحبطت طوال الأيام الماضية.

قبل أن يتكلم، استعاد الأستاذ شخصيته، ليس تلك الشخصية العادية، وإنما شخصية المفكر المتهكم الواثق بنفسه، بعدما أحس بالتفوق على المحقق الذي أعطى تفسيراً سخيفاً للاعتداء، فبادر للتعليق عليه بالسخافة نفسها.

«ذكرتني بأستاذ جامعي، لا أظنك تعرفه، كان مشهوراً بقامته الممصوصة، زعم أن سبب نحوله اتباعه حمية نباتية قاسية، بينما كان حسب شهود عيان نهماً أكولاً لا يعف عن اللحم والدهن. وإذا كان لم يسمن، فلأن الحسد كان يفري شحمه وعظمه دون هوادة».

استغرب الخبير دفق اللحم والدهن والشحم والعظم!! كان بلا معنى، بعد طول تلجلج وانحباس. طوال اليوم الفائت كان يجر الكلمات من فمه جراً.

«الأستاذ الجامعي... ما به؟».

«اتهمني بأنني أتعدى على التفكير».

«ما علاقته بما جرى معك؟».

«هل يعقل أن يكون الشخص الذي هاجمني منافساً جديداً، يخفي صفته الأكاديمية وراء مخاطرة إرهابية؟».

فاجأه السؤال، هل كان الأستاذ جاداً؟! لكن الأستاذ أطلق ضحكة عالية:

«هذا مستحيل طبعاً، رجال العلم مهما بلغ بهم الشذوذ، لا يلجأون إلى العنف، وإنما إلى الدسيسة والوقيعة».

يا للمفاجأة، الأستاذ صاحب نكتة، ولديه أسلوب في الكلام يعتمد المخاتلة العميقة والطريفة. ما شجع الشاب على الإسهام بتفسير إضافي:

«أو أن الرجل الذي اعتدى عليك، أخطأ غريمه، كان يسأل عن شخص ينوي قتله، شبيهاً بك. ساعدت العتمة على هذا الالتباس، عندما أدرك خطأه فرّ هارباً، من حسن الحظ، لم يؤذك بشكل بالغ».

لاحظ أن الاعتداء على هذا النحو، لم يرض الأستاذ. فأكمل:

«طبعاً، هذا لا يزيح عن الواقعة صفتها الإرهابية، لدي كثير من الشكوك. أنا لن أتركك. سأعتبرك من مسؤولياتي».

أراد أن يشعره بأن تخلي الدولة عنه لم يكن عادلاً، وأنه يعقد معه

اتفاقاً شخصياً، وإن كان حالياً لا يزيد على شد أزره ببضع كلمات:

«لا أخفي عليك أنني مهتم بقضيتك. ولن أتأخر عند الحاجة عن التدخل. إذا لاحظت أحداً يراقبك، أو يلاحقك، أو أحسست بالريبة نحو أي شخص، فلا تتردد عن الاتصال بي في أية ساعة تشاء، سأعطيك رقمي الخاص لحالة الضرورة».

لم يبق سوى أن ينزلا معاً، ولمزيد من الألفة سيطلب منه الاتكاء على ذراعه.

في الوقت الذي كاد أن يمد ساعده إليه، دخل الشرطي، وقال له إن أحد عناصره يسأل عنه في الخارج. كان المراسل في العمر، يحمل برقية سلمها إليه باليد. كانت جواباً متأخراً عن استفسار وجهه إلى أحد فروع الأمن قبل يومين. انتحى جانباً، وأخذ يقرأها على مهل.

(رداً على طلبك حول وضع الأستاذ فاتح القلج. ما وردنا عنه أنه كان متديناً في السر، لفترة من الزمن لا تقل عن سنة، ولم يكن لأحد أن يعرف هذا، لولا أنه ضبط قبل أربع سنوات يمارس الصلاة. تحققنا من أمره بوضعه تحت المراقبة، الإخباريات أكدت مواظبته على صلاة الفجر، يؤديها حاضراً في مسجد الزهراء بنزلة الإسكان في الحمزة. ثم توقف عن الصلاة، ولم يشاهد في أي مكان له علاقة بأي نوع من العبادات، بعدها لوحظ أنه رفع من حدة انتقاداته ضد الجماعات المتدينة).

أحس بالإحباط، البرقية تسلمها بعد أن وعده بالتدخل لصالحه وكاد أن يعطيه رقمه الخاص، سمعة الأستاذ العلمانية غررت به.

لأول مرة يتورط بالشفقة على ضحية مخادعة. شعور فرط به، مع أنه عاهد نفسه مراراً على استئصاله من داخله. كيف خطر له، ولو مجرد خاطرة، بأن يجعل له مكاناً ما في خطة قادمة؟!

عاد إلى الغرفة وقد انقبضت ملامحه، صحيح أنه لم يعده بشيء ملموس. لكنه كان كريماً معه بشكل زائد، فأراد أن يقلص منحته السخية، لئلا يطمع بأكثر.

«أنت أدرى بحماية نفسك، مؤقتاً اسع إلى تغيير عاداتك».

كانت أريحيته الخيرية قد تراجعت، ومع هذا أراد سحبها كلياً.

«لا داعي للاتصال بي، سأزورك قريباً في مركز عملك».

وألغى فكرة مرافقته إلى الأسفل، استدار كي يخرج.

عند الباب استوقفه الأستاذ فاتح، أحس بأن روح المزاح والتطمينات انقلبت دون مقدمات. لم يكن على استعداد لتقبل مزاجية الشاب قبل أن يعرف ما هي صفته، وبسأله ذلك السؤال الذي دار في ذهنه، عندما طرد المتجمعين في الغرفة، وأقصى الشرطة عن التحقيق. ظنه بداية واحداً من محققي فرع المخابرات، لكنه لم يحقق معه، بل اعتمد تحقيق الشرطة، وأضاف أسئلة لا على التعيين.

«هل أنت محقق؟».

«لا، أنا خبير من فرع مكافحة الإرهاب. هل تريد أن تسأل شيئاً آخر؟».

«اسمك، بما أننا سوف نتقابل ثانية».

«أسماؤنا متحفظ عليها. لكن اسمي المتداول هو سليم، نادني به».

لم ير في تعمد الأستاذ التعرف على هويته، سوى حشرية غليظة، وكاد أن يسأله كي يغيظه، أما زلت تمارس عباداتك سراً؟! سيكذب لا محالة. كانت رغبته جارفة في الكشف عن حقيقته، لكن الوقت والموقف لا يساعدان إلا على الإصغاء إليه مرغماً.

«ما الذي تنصحني به لتغيير عاداتي، الدوام محدد في الوظيفة وليس بوسعي تغييره، ما الذي أفعله؟».

«لا تفعل شيئاً، هذه الحادثة لا يعتد بها كثيراً، لا تعطها حجماً أكبر مما هي عليه، وبما أنك سألتني، سأنصحك، لا لزوم للاحتياطات، ولا داعي للمخاوف».

لم يفت الأستاذ التجهم الرهيب على ملامح الشاب، بدا الخبير في الإرهاب الذي كان لطيفاً، إنما كان يتظاهر بالتودد نحوه، بينما الآن متوتر، يحاول بصعوبة ضبط أعصابه بالكزّ على أسنانه، يفضحه تصلب عضلات فكيه.

«قبل قليل...».

وأكمل الأستاذ بابتسامة ساخرة، يُذكره بما أبداه من تعاطف... قبل قليل... فقط.

فوجئ الخبير بسخريته، ورد عليه بسخرية أكبر، كانت أشبه بمزحة ثقيلة:

«أضف هذه الحادثة إلى أرشيفك الشخصي في بنك المعلومات».

7

بنك المعلومات

حتى لو على سبيل المزاح لا اللؤم، المفروغ منه أن يهمل بنك المعلومات واقعة اعتداء كهذه التي جرت على الدرج، لسبب جوهري، أنها لا تحيلنا إلى مأساة.

عادة يتعامل البنك مع الظواهر المهمة، لا الأحداث الصغيرة، حتى الحدث الكبير، لا يحظى بالاهتمام، إن لم يخلف قتلى وجرحى ودماء ولغطاً إعلامياً. لو أن الرجل قتله أو بالعكس، تدرج الحادثة كمعلومة، وتأخذ رقماً متسلسلاً، فإذا سجلت تكراراً لافتاً، بلغت مرتبة الظاهرة المقلقة، فتقتحم قوائم الإحصائيات الإجرامية بكل ثقة، تمهيداً لتثبيتها في ملفات يختزنها كومبيوتر ضخم، لا يعبأ إن رأت النور يوماً، أو لم تره.

الأستاذ فاتح لم يول قصته اهتماماً، اللوائح المعتمدة لا تأخذ بالجرائم المخففة، وإن كانت تشير إلى جانب مُعتَّم عليه في عالم

الجريمة الخفيفة، ولا يُعنى بأشباهها من الحوادث غير المثيرة التي يرويها أناس تعرضوا لهجوم من لصوص، ولو كانوا من أصحاب السوابق، لكنه أضافها كمعلومة صغيرة إلى ذاكرته، والتي عبر عنها الخبير الشاب بشكل ساخر بالأرشيف الشخصي. فالحادثة تعنيه مباشرة، ألم يكن ضحيتها؟

□□□

تقع إدارة بنك المعلومات في منطقة المالكي من العاصمة دمشق، وهي منطقة سكنية هادئة، مأهولة بعلية القوم من التجار الأغنياء والمسؤولين المعتبرين. لم تختر الإدارة موقعها المتميز، وإنما اختير لها اعتباطاً، كان البناء من الأملاك المصادرة بعد الثورة مباشرة، عندما كانت المنطقة في طور التشييد. وضعت الدولة يدها عليه لأسباب سياسية، كان مكتباً لحزب ممنوع وصف في ذلك الوقت بالرجعية.

يطل البناء على ساحة نظيفة تحيط بها محلات أنيقة ومطاعم فخمة، إلى جوارها حديقة واسعة الأرجاء بالمقارنة مع غيرها من الحدائق الصغيرة. اشتهرت بأشجارها وعشاقها وعصافيرها، وتميزت بمماشيها المتعرجة ومقاعدها الحجرية. البناء قديم، لم يجر تجديده بعمليات الترميم والإكساء منذ سنوات طويلة، لتحافظ المنطقة السكنية على نضارتها دائمة، بالرغم من تسارع إيقاع التحديث العمراني، مع أنه مضى على إنشائها نحو نصف قرن. ولولا توارد الموظفين صباحاً وخروجهم بعد الظهر، لبدا البناء بطوابقه الثلاثة مهجوراً. وقد اضطر الأستاذ فاتح بسبب الوسط الراقي المتاخم إلى العناية بنظافة الإدارة من الداخل، طالما لم يفلح بتحديث البناء من الخارج، مع أنه طالب مراراً بتبييضه

وتحجير مدخله ليتلاءم مع المحيط، ولم يتلق جواباً حتى الآن.

عُرفت الإدارة اختصاراً بمركز المعلومات، وأجرى عليه الأستاذ فاتح المزيد من الاختصار، فكان يشير إليه بـ«المركز». لم يعلم به سوى القلة، كان مغموراً، صلة الناس به تكاد أن تكون معدومة، فلا مراجعون أو شكاوى، ولا غرامات أو رشاوى. إذاً من أين تأتيه الشهرة؟ كأنه من غير هذا العالم المتخم بالتعقيدات. لم يُعرف ما هو عمله بالضبط، فلم يؤخذ على محمل الجد، بل على محمل الألغاز التافهة للإدارات غير المطروقة، ولئن جرى التكتم عليه وعلى العاملين فيه، فليس لأهميته، وإنما كي لا يفقد هيبته. كان الجهل به أكبر دليل على حساسية مكانته المتدنية في عالم الوظائف المجهولة. مع أنه اتخذ موقعاً مثيراً في أذهان بعض المثقفين الموسوسين، واعتبروه واجهة بريئة على أنشطة غير بريئة. أما الناس العاديون، فكانوا أكثر واقعية، فهم لا يهتمون بالإدارات التي لا تجلب ضرراً، ويقيسون ثقل مديرها أو المسؤول عنها من خلال مظاهر ملموسة، كموقع بيته والسيارة التي يركبها؛ ولهذا أساء جيران الأستاذ فاتح تقدير مكانته والوظيفة التي يشغلها.

كان فاتح بالمقارنة مع غيره من رؤساء الإدارات، مديراً متقشفاً، لم يستعن بمعاون أو سكرتيرة. يوجه تعليماته إلى رؤساء الأقسام بالهاتف، ويعقد لهم اجتماعات دورية نصف شهرية، ويقوم شخصياً بأعماله التي تتطلب التحرك من طابق إلى طابق، والتنقل من غرفة إلى غرفة، فكان يأخذ أوراقاً ويجلب أوراقاً دون الاستعانة بالحجاب، وكانوا ثلاثة يجهدون في الحفاظ على لمعان البلاط وزجاج النوافذ ونظافة دورات المياه.

وعلى الرغم من أن المطلعين على الخفايا الوظيفية يراعونه، لم

ينظروا إليه نظرتهم إلى مسؤول بارز، وإنما مجرد شاغل لمنصب، مع أن الإدارة التي يتولى تسييرها ذات سمعة جيدة، أي تسير وفق ما يرام وتقوم بعملها خير قيام، مع أنها غير مستقلة. كانت ملحقة بمراكز تُعنى بالبحوث بعيدة المدى، تلك التي تتجاوز الحاضر إلى مستقبل يقدر بزمن لا أقل من بضعة عقود. أما لماذا هي موجودة وفي الوقت نفسه متوارية، فلأنها تقبع في الظل أو في الظلام، لا مبرر لرؤيتها، وأي تسليط للأضواء عليها يخلق إشكالات لا داعي لها، فلم تكن مخولة، بإبداء الرأي، أو بإصدار تصريحات أو تلميحات.

كما أن الأستاذ فاتح لم يطنطن بوظيفته، مع أن عمله لم يكن لملء الفراغ كما يدعون، كان يقدم خدمات متعددة، لم تستغل على النحو الأمثل. فالإشراف على تجميع المعلومات عمل جبار لا يستهان به، يحتاج إلى جهود حقيقية، خاصة أن المعلومات تشمل كل شيء، ولا تستثني مجالاً من مجالات الحياة المحلية والعالمية، من شؤون السياسة والاقتصاد والتسليح وشذوذ السياسيين إلى جنون البقر وألعاب الفيديو وورق التواليت، يُزوَّدُ بها الجهات المرتبط بها بالدرجة الأولى، دون معرفة وجه فائدتهم الاستراتيجية منها؛ وبالدرجة الثانية، الحكومة والصحافة، تستفيدان منها كوسيلة لإبراز معرفتهم وسعة أفقهم، مما يساعد على إثبات أمر أو دحضه، فيستغلها كلاهما لإضفاء الصدقية على إنجازاتهما الإيجابية، أو للتخفيف من صدى عثراتهما السلبية.

كان إنشاء المركز من جملة نتائج خطط التحديث الشاملة لبنى الدولة المتآكلة، لم تكن هناك إدارة شبيهة بها، ليجري تحديثها، فأنشئت دفعة واحدة، أوصى بها مستشارون أجانب، كي تكون

بنكاً للمعلومات. لم يصبح حسبما خطط له على الورق، وعانى من نواقص تفاقمت لضعف إمكاناته المادية والبشرية مما لم يؤهله لتأمين ردود عاجلة على ما يرده من طلبات غزيرة، بعضها شخصي جداً، ينحو إلى التساؤل عن المقويات الجنسية وأدوية تنشيط الذاكرة ورفع مستوى الذكاء ... إلخ. كان المدير من فرط حساسية الطالب والمطلوب يتلقاها على الهاتف. وبسبب أهمية الطالب وإمكانية تأمين المطلوب، كان موظفو الإدارة يباشرون البحث فوراً، ولم يكن أكثر من تشغيل كومبيوترات توفر حجماً هائلاً من الاحتمالات المطروحة. وتوفر معها حيرة أشبه بالشلل من فرط غزارتها، ما أدى إلى استحالة الاختيار. فلم تحقق فائدة فورية، كما كان معولاً عليها. فرميت الإدارة بالعجز، وأصابها الكساح سريعاً، وتضاءل التمويل المرصود لها. لكنهم حافظوا على الاستعانة بها، ولم يستغنوا عنها، بعدما غدت من منجزات التحديث.

يتعامل الأستاذ فاتح مع ما يرده من معلومات بشكل مرن، فللمعلومة لديه، صغرت أم كبرت، دلالة، أي أنها ليست مجرد إعلام عن شيء. تأتي قوتها كمعبر محايد عن أحوال البشر ونشاطاتهم، وتحولات الرأي العام وجرائم الدول. لم يثق بها ثقة عمياء، كانت كاشفة، وغير منزهة عن النقصان، وقد تشط، فتكذب أو تخطئ، إذ ليس بالوسع التأكد من صدقيتها بشكل يقيني، ولو انطوت على حقيقة في منتهى الواقعية، إذا قرأت بتأن، وفي حدودها الدنيا لاكتست بمعاني لا تنكر. كل معلومة تحتاج إلى مراجعة وتدقيق، وربما معالجة. ومع ذلك كان إيمانه غير الأعمى بها لا يعادله شيء آخر، إذ للمعلومة تنبؤات تفوق أية توقعات أو تكهنات، أو حتى تصريحات، ولو كان قائلها: «مصدراً رسمياً مطلعاً».

تفهمه الواسع لتأثير المعلومات، حوّل وظيفته من عمل روتيني جاف يتقاضى مقابله راتباً شهرياً، إلى هواية مشوقة ارتقت إلى غواية آسرة. كان انتظارها وتتبع تواردها ونتائجها وتحولاتها وحظوظها في البقاء أو الاستبعاد، لا يخلو من ترقب ومتعة، وأحياناً كثيرة من نفاد صبر وشد أعصاب.

من خلالها رصد الأوضاع الحالية وما سوف تتمخض عنه من متغيرات قادمة نحو الأحسن، أو الأسوأ. ادعاؤه هذا، ناجم عن خبرة لا تكتفي بقراءة المعلومة فقط، كان يتبصر فيها، فيسهم أحياناً، إن لم توافقه، وبأساليب قراءة ذكية، وتحوير لا يقل عنها فطنة، بتحريكها نحو التفاؤل أو التشاؤم لاعتبارات رؤيوية، كان يتخيل نتائج فعلها، فتبدو أشبه بحلم في سبيله إلى التحقق.

في الأحوال العادية، كان أشبه بالعازف عليها، لا المتلاعب بها، فبلغ الذروة في أحكامه الاستباقية، مبرهناً على صحة تقديراته، وكانت تتناول أوضاعاً داخلية، أو إقليمية تلقي بظلالها على المنطقة، وتمتد إلى البيت الأبيض وغيره من البيوتات سواء الأوروبية أو الصفراء والسمراء والسوداء. واستطاع مراراً أن يبلي بلاء حسناً. فكان حجة في أمور يقضي فيها الآخرون جدالات مطولة على شاشة التلفزيون تغطي عدة حلقات متعثرة من الزعيق والبعبق بغية إسكات الخصم، بينما يستطيع بجملتين محكمتين إنهاء مناظرة الاتهامات المتبادلة.

لكن من يهتم لهذا القابع في إدارة مجهولة قد يتلعها النسيان؟!

لم تطغ غواية جمع المعلومات على اهتماماته الفكرية المتأصلة المتنوعة، بل ساندت استنتاجاته الأكثر دقة. فأتخم محاضراته

بالأحكام المتشددة، والأرقام الموثقة على الرغم من تجاوزاتها أو تقصيرها، استغلها لإضفاء الحتمية على غاياته.

التوفيق لم يحالفه دائماً، كان إيهام المستمعين بالصدقية من فرط تكديسه للمعلومات والأرقام، يشتت انتباههم. مع أنه كان يؤلف بينها بألمعية وجرأة، فتخرج بحلة متجانسة يدعم بعضها بعضاً. ولم يكن أحد سواه يعرف أنها صُممت طبقاً لأهداف اجتماعية تعود بالنفع على بلد يجهل طريقه، وبشر لا يدركون إلى أين يقودهم رجال بلا أخلاق، يستنزفون الحاضر ويدمرون المستقبل.

حاز فاتح على احترام رؤسائه الكبار ومرؤوسيه الصغار، وكان بعضهم من الحزبيين المثقفين، والأغلبية من عديمي الثقافة والفهم. وحصد الكثير من المعجبين بآرائه المتحررة من المقولات السائرة، وأصبح له مريدون أوفياء يرافقونه ويصفقون له، يحتفون به ويزورونه في بيته ومكتبه. وحصد أيضاً جمعاً غفيراً، يفوقه من المنتقدين، لما كان يطرحه من أفكار لا شعبية لها. عيبه الوحيد، برأي حتى المتعاطفين معه، أن تعبيره عن علمانيته يكتسي باستفزازية فجة.

المستغرب أن أغلب خصومه كانوا من التقدميين اليساريين، المناضلين متخرجي السجون، اعتبروه علمانياً زائفاً، وخطيباً جمجاعاً يصلح للمنابر لا للصدامات، (ما هذه العلمانية التي تنحصر بالمروق من الدين، والإصرار على أن التدين، مهما كان نوعه أو درجته، غطاء لمآرب سياسية؟!) مع الكثير من الانتقادات ضده، هذا دون أن ينتسب إلى حزب موالٍ أو معارض، سري أو علني. أو يشترك بمظاهرة أو يوقع على بيان، ولم ينادِ بحرية الرأي

لمختلف الفرقاء دون تمييز بين اتجاهاتهم. حسب قوله، كان حريصاً على استقلاليته إزاء الجميع، الأصدقاء والأعداء معاً، ولا يهادن الدولة تحت أي ظرف. هذا ما حصنه من الملاحقات والاستجوابات.

لكن وعلى الرغم من تشدده، كانت علمانيته النوعية منتقصة بشكل فادح، فقد كان منفتحاً على الخيال بشكل سري واستثنائي، خاص بشخص واحد، معتبراً هذا الخلل حقاً مشروعاً له، لا يعني سواه، ولا يمس جوهر علمانيته المدعومة بالمعلومات والأرقام، الشاملة للبشر والأديان والحكام والشعب والوطن والأقليات والحربات... عدا زوجته الراحلة.

لماذا استثنى الأستاذ فاتح زوجته الراحلة من علمانيته الشاملة؟!

8

الراحلــة

لا يمكن فهم هذا الاستثناء، إن لم يؤخذ بالاعتبار، السبب الذي دفعه إلى عدم التخلي عن بيته القديم في الطابق الرابع، والواقع في منطقة شعبية كثيفة السكان، في بناية بلا مصعد، وبلا خدمات، تفتقر إلى ناطور، أو امرأة تشطف الدرج!! كل هذه المنغصات، تنهاوى أمام البيت المليء بتذكارات عزيزة على نفسه، لم تخل من الروعة ولا من التعاسة، تكدست طوال سبع سنوات من الأفراح والمناسبات السعيدة؛ وأتراح من شدتها لم يميز فيها نهاراً أبيض من سلسلة أيام حالكة السواد، أرخت بظلالها القاتمة على غرفة النوم، وما برحت بعد مضي ثلاث سنوات تفوح منها رائحة الأدوية والمعقمات المعششة في الزوايا وتحت السرير، تتردد بين جدرانها أصوات الآهات وصرخات الألم المتشنجة.

أمر لن يخطر لأحد مهما كان رومانسياً، هو احتفاله الدوري

بذكرى عيد زواجه. فمنذ توفيت زوجته لم يتخلف عن الاحتفاء به، في موعده المحدد، الأول من كانون الثاني؛ بعد أن يكون الناس قد أنهوا احتفالاتهم بقدوم العام الجديد، وناموا ملء جفونهم، ثم استيقظوا حوالي الظهر. عندئذ تبدأ استعداداته لحفله المسائي الخاص بإحياء هذه المناسبة السنوية بمجموعة من الجماليات الرقيقة، كانت المرحومة تتألف معها، يراعي معالمها الكبرى، ولا يغفل عن تفاصيلها الصغرى، سواء الإضاءة الخافتة، أو الظلال المرتعشة والموسيقى الحالمة؛ ونسمة خفيفة باردة تتسلل من خلف الستائر، وباقة الورد الجوري، وكؤوس الكريستال اللامعة والشفافة، والشمعدان الفضي...

مع إعلان ساعة الحائط التاسعة مساء، تستعيد غرفة القعود حيويتها ورونقها، تمسي كأنها تتنفس، متأهبة لاستقبال الراحلة بمظاهر وإن كانت متقشفة، لا تفتقر إلى الحنان والدفء. مكانها المعهود في انتظارها، بين أضواء الشموع، وصور الزفاف والنزهات والرحلات وتحف الصيني وأشغال الكانافه، وما يرافقها على الأطراف من إضافات متحركة، أو ساكنة على وشك الدخول إلى المشهد. فمن المطبخ تهف رائحة قالب الكاتو، والتلفزيون يبث برامجه، وعادة يكون مسلسلاً تلفزيونياً سورياً أو مسرحية كوميدية مصرية، كبكوبة الصوف تتدحرج إلى أن تصطدم بقائمة الترابيزة، الصنارتان إلى جوار الكنبة. ومن باب غرفة النوم المفتوح، تظهر علبة الماكياج وزجاجات العطور الفرنسية أمام المرآة، السشوار على أهبة التشغيل، ملابسها الداخلية والمشدات فوق السرير، أروابها وفساتينها مكوية معلقة وجاهزة في الخزانة، الفولارات بألوانها المتعددة، وشال الحرير الأسود والمخرم والمطرز... والأحذية؛ حذاء السهرة ذو الكعب العالي، والزحاف للمشاوير،

والمقصب للمناسبات ... مع لمسات مبعثرة برشاقة توحي بيد سنمتد إليها وتختار ما تلبسه منها. وكأن الراحلة لم ترحل عن بيتها إلى غير ما رجعة.

ما كان يقوم به من ترتيبات، ليس لأن خيال زوجته يجد مرتعاً خصباً للظهور والتجوال بين معالم لم يطرأ عليها تغيير. لا، كان يُعد هذا اللقاء الرومانسي، طقساً لا بد منه، يؤديه بكل عناية رغم عدم قناعته به، فهو لم يصادف خيالها على الإطلاق، ولم يلتق بها حتى في المنام. الأمر مختلف تماماً، كان من نوعية الرجال الذين إذا وعدوا وفوا. وتحضيراته، كانت تنفيذاً لرغبة نطقت بها عابثة عندما كانت بكامل صحتها، تُطمئنه إلى أنها لن تتركه وحيداً في العالم من بعدها، خاصة في ذكرى زواجهما، مهما بَعُدَ بها الزمن، وفي أي مكان كانت، فاغتنمها مناسبة تتجدد سنوياً، يختلي مع ذكرياته الزوجية وأيام مضت، يتخفف فيها من أحزانه، فكانت تبعث من جديد.

لم ترحل قبل أن تزرع في اعتقاده أنها لن تنساه في العالم الآخر، وأن الحياة ستبقى مستمرة بينهما طبقاً لمواعيد موقوتة ومناسبات محسوبة، ولن تبخل عليه بين الفينة والفينة بزيارات مفاجئة! في الواقع لم تقم بها.

وعود تمتمت بها بلغة غير مفهومة، تمكن من ترجمتها وكان متأكداً من دقتها، وواثقاً من استحالة الوفاء بها. كان يعرف بشكل غير قابل للنقض، أنه في حال كان هناك عالم آخر، فلن ينشغل سكانه بالتذكر ولا بالنسيان، وإنما بأمور لا تمت إلى عالمنا الأرضي بصلة. كان قد أنكر العالم الآخر واعتبره خارج أي موضوع أو تفكير. فلم يقع تحت تأثيراته المتوهمة، وبالتالي لم

يحدث أي شيء غير عادي، ولو كان من بنات تخيلاته. ومع هذا كان يترك لمبة الممر الضيق المؤدية إلى غرفة النوم منارة ليلاً، لكي تجد طريقها إليه بسهولة، هذا ما أصرت عليه، كم عقل النساء غريبٌ؟!

في دخيلته، كان حازماً، لم يؤيد سلوكه السري، أو يدافع عنه، كان عاتباً على تنازلاته غير الواقعية ولا العلمية، إلى حد المصارحة الذاتية القاسية بأنه لم يكن علمانياً قحاً. فلم يتسق إلى هذه التمثيلية، أو يأخذ تلك الإجراءات التي باتت أثيرة إلى نفسه على محمل الجد، رغم الخطوات العملية التي حافظ عليها طوال السنوات الثلاث الماضية، كانت أمثلة مخجلة على ترهات عاطفية مشوبة بروحانية مضللة. وكان واضحاً إزاء نفسه، ما يفعله كان احتراماً لذكراها العزيزة. ولقد ارتبط بهذه الرغبة، لسبب آخر، عناده، كان يتشبث بأي أمل، ولو كان مستحيلاً، أو مضاداً للمنطق. ويُجري على هذا الأساس حساباته بدقة، لا يهمل احتمالاً وارداً، وإن كان خيالياً وضعيفاً جداً، لو جاءت... وهذا أمر مستبعد، لما أخطأت غرفة القعود ولا النوم... طبعاً هذا لن يحدث، عندئذ تجده بانتظارها... هي أصلاً لن تأتي. ولئلا تتعثر بأية تغييرات... لم يبدل أمكنة الأشياء، مثلما بعض الإصلاحات التي أجريت في البيت، لم تمس غرفة القعود. هل تخطر على بال أحد هذه البرامج العاطفية؟

لا، لكنها تدحض سؤالاً مضاداً ومفحماً، يتردد دائماً على سبيل الازدراء: إذا كان الوفاء نادراً بين الرجال في الحياة، فلم لا يكون معدوماً بعد الموت؟!

عاش فاتح قصة حبه الوحيدة مع زوجته الراحلة، والتزم بها كما

يلتزم بفكرة قيّمة وسامية، وقد جعلتها زوجته مثالية بتصرفاتها اللطيفة والخجولة. اعتقد أنها تحبه مثلما أحبها. لم يعرف أن قصة حبه كانت من طرف واحد، قبل أن تصبح من طرفين. زوجته التي لم تحبه، لم تكرهه. كان الرجل الذي أنقذها من عنوسة باردة، لم تكن تزعجها، لكن سمعتها كمانس كانت تضايقها. عندما التقت به، أدهشها بعقليته المنفتحة، مع أنه كان وحيداً مثلها. قال لها إنه يحتاج إلى امرأة كي يحس بالعالم، فتذكرت العالم الذي قاطعته، وأرادت أن تعود إليه مسلحة برجل، فأوقعها في زواج كان مملاً بلا أولاد.

بعد تمنيات عريضة زرعت آمالاً في داخلها، بدت على وشك التحقق بواسطة محاولات طبية عديدة. غير أن الحقيقة المؤلمة، لم تتأخر. عائق الإنجاب المستحيل سببه هي، وليس هو، ولا علاج له. فعصف بها يأس كاد أن يدمر عش الزوجية. لكنها أنقذته برجاحة عقلها. أدركت بأنها لو تركت حياتها للشكوى، فلن تتوقف خسائرها، وتقبلت صاغرة معاناة صامتة، بدت النهاية المحتومة لزواج بات بلا هدف، وضعها على شفا الضياع. لم تستمرئ حالتها القانطة، إذا ضاعت فسوف تضيعه معها، اتخذت قراراً، لن تدع نفسها نهباً لحسرات أمومة مفتقدة عصية المنال.

عادت حياتهما إلى سابق عهدها، مع أنه لم يعكرها معكر، كانت أزمتها وحدها، ومخاوفها وحدها، وجرت بغفلة عنه. ولكي تتخلص من هذا الإيقاع الزوجي البليد، أدخلت تنويعاً مثيراً على حياتهما، بتحويل البيت، وليوم واحد من كل أسبوع، إلى ملتقى نسائي فكري رفيع المستوى.

9

الملتقى النسائي

لاقت فكرة المنتدى الفكري صدى قوياً لدى معارفها من النسوة. شجعها فاتح عليها، وساعدها بوضع تصور متكامل لها، انبثق عنه برنامج وجدول أعمال يتناول موضوعات حساسة أدبية وفكرية متنوعة. بعد مناقشات مطوّلة حاز ما طرحه على موافقتها. وسرعان ما تحلقت حولها صويحباتها من الجامعيات السابقات، اللواتي أصبحن سيدات أعمال، موظفات، مرشدات، طبيبات، محاميات، مربيات أجيال... وربات بيوت. أيقظ الملتقى طموحاتهن، إن لم تكن الاجتماعية، فالسياسية، أو الفنية، أو الأدبية، أو على الأقل... المساواة مع الرجل، مع أن هذا الموضوع لم يغب عن نشاطاتهن الثقافية التي اعتمدت طرح قضايا راهنة عميقة، كانت تطبخ على عجل، وتناقش بخلٍّ ونزق.

استضاف الملتقى زوجها بصفته مفكراً ذا سمعة طيبة، فساهم

بإلقاء سلسلة من المحاضرات الأسبوعية حول موضوعه الأثير: العلمانية، حققت تفاعلاً طيباً، وتأثيراً ملحوظاً في السيدات المتزوجات والمطلقات والعازبات، فأضفن إلى تطلعاتهن النسوية، التحرر من الدين ونواهيه. فالدين كما تعلمنه في المدارس أو رضعنه مع الحليب، بضع عادات اعتدن عليها، ينبغي إعادة النظر فيها؛ ما حرك نوازعهن الخفية، وفكرن قبل فوات الأوان بالتمرد على ما نشأن عليه من اعتقادات باطلة وقيم بالية مغرقة في التخلف تقمع إنسانيتهن، وتنعكس عليهن باضطرابات نفسية، تتجلى بتشنجات وتوترات واختلاجات وتصرفات لاإرادية، أعراضها الغضب والسأم والبكاء والقرف من الزوج والأولاد، تبلغ الأوج في الإحباط مع ميعاد الدورة الشهرية.

استعدن الثقة بأنفسهن، لم تعد سوداويتهن وأمزجتهن المتقلبة متاعب نفسية غامضة المنشأ، بات لها أصل وسبب، لا علاج لها، إلا في التكيف مع حياة بلا خالق، وأصبحت لديهن نظرات ونظريات في التفرد بإدارة شؤونهن وتنظيم أمورهن.

صار التمرد محل إجماع فيما بينهن، بعد أن تكشفت لهن حياة أجبرن عليها وزهقن منها، لم يُشبعن فيها عاطفياً ولا جنسياً، فمنهن من تزوجن صغيرات، أو من أجل المال، أو اضطررن للزواج تجنباً للفضيحة، أو خشية من الوحدة والتقدم في السن... لم تكن واحدة منهن راضية عن زوجها ولا عن زواجها، حتى اللواتي تزوجن بعد قصة حب بطولية، ظهر أنها خدعة تبادلاها طويلاً، فلا الحبيب حبيب، ولا الزواج سعيد.

بدت الحياة عريضة، رحبة وجذابة، مستجيبة لانطلاق أهوج لا محدود، لا يخشى من عواقبه في العالم الآخر، عالم انهارت

ركائزه، فلا جنة ولا نار، ولا رب يحاسبهن، أو ملائكة بالمرصاد لهن، أو عذاب في سعير جهنم. بينما هذا العالم من حولهن، الثابت بقوة على الرغم من دورانه حول نفسه وحول الشمس، هو الوحيد؛ وهذه الحياة السخيفة التي يقضين جلّها بالنقارات مع زوج دائم التذمر وأولاد عاقين، ويعشنها بسأم قاتل، هي الوحيدة؛ لا يوجد غيرها، وكل يوم يمضي، يتلاشى إلى الأبد، مثل غيره سبقه، في دنيا قد تكون ملعباً للمتعة أو مسرحاً للآلام، فاختاري أيتها المرأة، أي حياة ترغبين؟

في لحظة الإقدام ترددن، كانت النقلة من الفكر المحض إلى العمل المحض مرعبة غير مأمونة العواقب. بعد مناقشات حرة دارت في رؤوسهن، شكلت الشهادة الجامعية عائقاً، كانت الخيانة مستهجنة من حاملات الشهادات العالية. أضيف إليها السمعة المهنية، والمركز الاجتماعي، الأولاد والأقارب، فباتت مستحيلة، رغم الرغبة الجارفة.

غير أن المحك الحقيقي كان سراً، يكمن في الجانب الأعمق من الطبائع الأنثوية المتقلبة التي لا يقف في وجهها مستحيل، فتستمزج أو لا تستمزج حسبما يروق أو لا يروق لها، فتراوحت خياراتهن طبقاً لها، فلنزوات الطبع الحزين بدت التعاسة قدراً لا فكاك منه، ومن العبث معاودة الكرة، ولو على سبيل النكاية أو التجربة. والمتأملات، وجدن بعد طول تأمل، أن اضطهاد زوج تافه أسهل من تدليل عشيق سخيف. بينما الباردات، أملى عليهن برودهن فكرة صقيعية؛ لن يفلح الحبيب ولو اتسع له الوقت بضع سنوات، طالما الزوج أخفق طوال عقود من الزمن، ولم ينجح في بث الحرارة في أعضائهن!! والحاميات لن يخاطرن بأجسادهن بعد أن

ضبطن درجة سخونته وأصبحت ضمن المعدل الطبيعي المعتدل. أما الأموميات، فلا فائض لديهن من الحب يمنحنه لعاشق ولو كان طفلاً، أو على أبواب المراهقة. والنكدات، إذا كان رفيق العمر رضي بنصيبه، فما الذي يجبر شاباً في أول العمر على تحمل عبوسهن اللاإرادي، وثوران أعصابهن الجنوني؟!

تراجعت الأغلبية (سبع عشرة امرأة)، وأقدمت الأقلية (عازبة وأرملة ومطلقتان) على التمرد. ساعدتهن عياراتهن الجسدية غير المنتظمة ولا المنضبطة سواء من ناحية السخونة أو البرودة، ومیوعة أمزجتهن رغم ما أصابها من غبن قديم، تجلت بإقبالهن النهم على العيش، مصحوباً بتلك الخفة واللامبالاة الملازمتين للهذر الصريح من قوانين المجتمع؛ كان خرقها طرفة اتخذت شكل زلات جنسية، مبطنة بانتقام واقعي يشفي الغليل.

أطلقن على أنفسهن لقب: الرباعي المرح. هؤلاء اخترن البدء من جديد. ما جعل العلماني يظن أن دروسه فشلت في تحريض الأغلبية على كسر إيقاع حياتهن الرتيب. كما أن الأقلية المتفهمة (الرباعي المرح) كانت مخيبة، فهو لم يشجعهن على سلوكهن المنحرف هذا، كان يريد إطلاق عقولهن لا أجسادهن. لكن في العمق كانت أفكاره قد نجحت، وإن اتخذت تعبيراً طائشاً.

غير أن مغامرات الحياة الكبرى لا تبدأ في أواسط العمر، هذا ما كان متعارفاً عليه. فتوقع أن تجهض محاولاتهن. مع هذا بدأت، أو استؤنفت، أو استمرت، مع ما توافر لهن من شبان ورجال من مختلف الأعمار.

ضجت حياة الرباعي المرح بحيوية خارقة، وجرى تنشيطها بالهالات الملازمة للغراميات المتأخرة من وصال وهجران وفراق، ما أضفى على العالم جدة بنكهة حارة ومتلونة؛ وردية أحياناً، وملتهبة غالباً، بلا أغلال عاطفية ولا موانع جنسية... وبلا كوابح، حتى أنهن لم يكبحن غرائزهن عن توجيهها نحو الاستحواذ على زوج صديقتهن المثقف، فبعد أن جرى استنزافه فكرياً، عزمن على استغلاله جسدياً.

لم تفت الراحلة نواياهن المفضوحة الحائمة حول رجلها المفكر المهذب، لم تخش على دفاعاته الأخلاقية من الانهيار، كانت قوية، لكن الهجوم كما قدرت لن تصده القوة ولا الأخلاق، ما دام أن الشفقة ستلعب دورها، عندما يحرجنه بمآسيهن المختلقة ودموعهن الكاذبة، هل يصمد؟ حسناً، شخصيته لا تفتقر إلى الصلابة، لكنها لا تخلو من جانب رخو، غير مضمون، وسيضطر لا محالة، لمراعاتهن لدواع بريئة، علمانية الطابع.

أوقفت سلسلة المحاضرات، مع أنه لم يبق سوى الأخيرة منها، وكانت تحت عنوان «خلاصة واستنتاجات»، بحجة مضادة لجملة الاستنتاجات المتفائلة، وخلاصة متشائمة أوجزتها لزوجها، كانت تشخيصاً متحيزاً وظالماً ضد بنات جنسها... لا شيء يعوق النساء عندما يردن، عن إتيان الفاحشة، يسوغنها لأنفسهن بأي مبرر، ولو كان واهياً، عندما يرغبن في رجل، لا يثنيهن عنه رادع، ولا يتورعن عن ارتكاب المعاصي؛ يحسمن أمرهن بلمح البصر.

ارجع إلى التاريخ، طالما حققن إنجازات تشق على الذكور، وبرهنّ على أنهن، عندما يجدّ الجد، أشد إلحاداً وفجوراً من الرجال.

مع بداية الموسم التالي، حظرت على المحاضر دخول الملتقى، أو

حتى إلقاء التحية على تلميذاته النجيبات. فتحول الملتقى الفكري، إلى ملتقى للنميمة والقيل والقال، تلاك فيه أعراض الطالبات المراهقات تحت العشرين، والفتيات الجامعيات فوق العشرين، والنساء الناضجات الثلاثينيات والأربعينيات، ولم يوفرن الخمسينيات والستينيات، وجرى التشنيع على الزوجات المخلصات والأمهات الرؤومات. فأقدمت على تعطيل جلسات الملتقى مؤقتاً، لئلا يصيبها ما أصاب غيرها على ألسنتهن. احتاطت لسمعتها قبل أن يأتي دورها، فقد كانت زوجة وفية مخلصة لزوجها.

لم يدرك رباعي النسوة المرحات نعمة التوقف المؤقت، إلا عندما لم يكتفين باشعار المحاضرات فكرياً، بل وزمنياً أيضاً، فضاعفن جلساتها الافتراضية، وجرى استغلالها حجة للغياب المتكرر عن منازلهن. واسترحن من أزواجهن الأشرار وأولادهن المشاغبين الصغار والكبار، تركنهم لعناية السيرلانكيات والإندونيسيات والفليبينيات، ووفرن على أسرهن الكثير من النكد والشجار وتكسير الصحون. وانتشرن في أرجاء العاصمة، يسرحن ويمرحن في غرف البيوت المستأجرة.

بعد تعطيلها المؤقت للملتقى، عاجلته بتأجيل مديد على أن يعاود أعماله في الموسم القادم. لم يكن التأجيل مديداً، كان دائماً، الموسم القادم لم يأت على الإطلاق، فأغلق الملتقى ولم يستعد نشاطه. كان بعض النسوة الأعضاء، كما قالت لزوجها، تحت المستوى، متخلفات، يعانين من أمراض اجتماعية بالغة الهمجية والقدم، ما قبل الحضارة والتحضر، قبل أن تكتفي المرأة برجل واحد.

الفصل الأخير لم تعش لتراه، فصديقاتها المغامرات بعد أن أطلقن لأنفسهن العنان، لم تكن مغامراتهن موفقة كلها، كانت في انحدار، لعب عامل السن الدور الأكبر في انحطاطها، وترهل الجسد الدور الأبرز في إخفاقها. فعانت غرامياتهن من خيبات مشينة لا تليق بهن، فندمن على ما فعلنه وعدن صاغرات إلى الدين؛ كان قطار العمر متجهاً صوب الآخرة.

عزون خطاياهن إلى أنهن ناقصات عقل ودين، وكفرن عنها بالتصدق والاستغفار؛ واثقات من أن الله يغفر كل شيء ما عدا الشرك به؛ ولقد ارتكبن كل شيء عدا الشرك بالواحد الأحد. لو كانت الراحلة على قيد الحياة، لشدهت بما آلت إليه أحوالهن، فبعض اللواتي تبن تحجبن أيضاً. تشخيصها لم يخطئ، ما زال صالحاً، يؤكده أولئك اللواتي لا يتورعن عن فعل أي شيء؛ إذ عندما يجدُّ الجدّ، يُثبتن دون جدال أيضاً، أنهن الأقوى إيماناً، والأكثر تحفظاً وحفاظاً على تقواهن من الرجال.

قبل أن ترحل، وجهت الراحلة عنايتها، دون أن تدري بأنها ستغادر الدنيا بعد عام واحد، إلى ترتيب حياتها من جديد على نحو لا يضيره التنازل، ولو كان مجحفاً، وكان أكثر إقناعاً، قبلت بزواج دون أولاد، وبنشاطات يومية متواضعة من غير طموحات أسرية كبيرة، وانغمست في حياة فاترة، دون قلق، وبأقل قدر من المنغصات، راضية بأحلام صغيرة، وآمال متواضعة، وكانت حياة سعيدة.

10

جولة خاسرة مع الموت

لكن من قال إن السعادة تدوم، والهناء يستمر؟! مطلع العام الجديد، الأول من كانون الثاني، تاريخ لن ينساه أبداً ما دام حياً. في الليلة الفائتة سهر مع زوجته بمناسبة رأس السنة الميلادية، وفي تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً تبادلا القبلات والتمنيات بعام جديد سعيد، وذهبا إلى النوم. استيقظت زوجته صباحاً، وأخذت تعد للحفلة التالية، عيد زواجهما السابع. وكانت تمنحه اهتماماً خاصاً لدلالته على استمرارية علاقتهما وترسخها، بينما عيد اليوم الفائت، بذكرها بتقدمها في العمر.

عند الضحى لبست ملابسها لتشتري ما ينقص المائدة من لوازم المقبلات: بقدونس للتبولة، وطحين للمعجنات، وفطر للبيتزا. نزلت من البناية وتوجهت نحو السوق، وهي تقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، انكسر كعب حذائها العالي، فتعثرت ووقعت

على الأرض، حاولت النهوض، صدمتها سيارة مارسيدس سوداء مسرعة، لاذت بالفرار. تبرع بعض العابرين ونقلوها غائبة عن الوعي إلى مستشفى المواساة القريب.

استيقظ فلم يجدها، قبل يومين فكر بهدية لها بمناسبة ذكرى عيد زواجهما، كان قد أعجبه مشبك من الألماس رآه في سوق الصاغة، لم يكن غالي الثمن كثيراً، فعزم اليوم على شرائه. لدى خروجه من البناية أخبره ولد صغير يلعب في الشارع، أن زوجته دعستها سيارة، فانطلق كالمجنون إلى المستشفى. وجدها مسجاة خارج غرفة الإسعاف، امرأة ذليلة ملقاة على الرصيف.

كانت قد أُدخلت إلى المستشفى، وأُخرجت منها. الممرض المناوب فحصها، وخاف أن تموت بين يديه، مع أن صدرها كان يعلو ويهبط بانتظام. أصر فاتح على إدخالها ثانية، خلال المشادة بينهما، حضر الطبيب المناوب، يفرك عينيه من آثار سهرة البارحة، وشوشه الممرض المناوب، فأصر بدوره على أن يعود بها زوجها إلى البيت لتموت هناك، أو ينقلها إلى مستشفى آخر. بعد صراخ وضجيج، سمح الطبيب بإدخالها إلى غرفة الإسعاف، ريثما ينقلها زوجها بسيارة أجرة. لكنه عاد مدججاً بوساطة ثقيلة، استنجد بها، عن طريق أحد معارفه، فاستنفر المستشفى وانتزع الأطباء والممرضات من بيوتهم، وأطار عيد رأس السنة من رؤوسهم.

بعد إجراء الفحوص والتحليلات، وعده الأطباء خيراً، لكن طبيباً شاباً متمرناً نصف سكران، لم يعرف بالوساطة ولا بالضجيج، تجول بين الأسرة مساء، فحص المريضة وقرأ التحاليل، قال له، اسمع مني، زوجتك لن تصحو أبداً. فلم يصدقه، رائحة العرق

تفوح من فمه، سهرة عيد رأس السنة ما زالت تدور في رأسه، لم تنفضّ بعد. كان مبتهجاً، الحياة مشرعة أمامه، وواعدة بشهادات التخصص والثراء وحفنة من الممرضات، وزرافات من المرضى، أغلبهم سيشفى، وبعضهم سيموت، مثل هذه المسجاة، مع أنها مفتوحة العينين، كانت برأيه، أنموذجاً غير قابل للشفاء.

لم يأخذ بتشخيص الطبيب السكران، فهي لم تكن غائبة عن الوعي. كانت صاحية، وبأسوأ الأحوال كانت بنصف وعيها، وما عليه سوى الانتظار، لتسترد نصفه الثاني. بل وكانت تتكلم، وإن عن غير تبصر، لا يفهم أحد ما تبربر به، كلماتها همهمات وغمغمات وغرغرات وصريف أسنان.

بعد شهر من العلاج المديد اللامجدي، نصحوه باستشارة طبيب أخصائي من خارج المستشفى الحكومي. استدعى طبيباً أخصائياً من مستشفى خاص، فحصها وعلق على حالتها بثقة، ثمة أمل كبير. ونقلها إلى مشفاه الخاص. تحت إشرافه بذل مجموعة من الأطباء جهداً خارقاً، واستماتوا في إبقائها صامتة تتنفس نائمة بعمق، كي لا تصرف طاقتها على كلام غير مفهوم، وإن كان نطقها قد تحسن، وبدأت حسب تبدلات ملامح وجهها تحكي قصصاً، كلماتها متداخلة وأحرفها مدغومة، أشبه بثغاء الخراف ونقيق الضفادع. لم تكن تحاكي الحيوانات، كانت تسرد قصصها الحزينة بأسلوب موجع.

لم يفهم فحواها، إذ لم يظفر بجملة واحدة مفيدة ذات معنى، وإن أحس بما كانت تقاسيه مما اختلط عليها من ناحية الزمان والمكان، كانت تعيش في زمن لا يشبه الماضي الذي جاءت منه، ومكان اتساعه لا يزيد على بياض السقف؛ لم تألف بعد ما

تراه وتسمعه. تشخيصه لحالتها، أنها لم تستوعب وضعها الحالي، لعلها فوجئت به.

كان كل يوم يمضي، يكلفه دفع آلاف الليرات، ما اضطره إلى بيع قطعة أرض ورثها عن عمته. مع الوقت راوده الوسواس الخناس، هذا ليس علاجاً، وإنما إطالة لعذابها بالسيرومات والفيتامينات والمهدئات والمسكنات... كانوا يستنزفونه مالياً، يطلبون دفعة مقدماً، يقبضون، ثم يحقنونها بالأدوية، ويجرون التصاوير والتحاليل، بعدها المراجعات والاستشارات... ثم دفعة مقدماً.

عجائب المصادفات، وربما الأقدار، سوف تفعل فعلها.

وحسبما جرى، أسهمت في الفعل ذاته، كما يبدو، وسائل الإعلام بقدر مرئي ومسموع. فمنذ زمن بعيد، اقتحم التلفزيون بأشكاله الإخبارية الصاخبة والترفيهية الطريفة، والتهريجية غير اللطيفة، البيوت الآهلة بالسكان، من جميع الطبقات دون استثناء. ثم منذ زمن غير بعيد، دخل إلى الأماكن العامة كالمقاهي والبارات وغيرها من المحلات المغلقة والمفتوحة التي لا يتصور أن يكون لهذه الأجهزة مكان فيها، خصوصاً المستشفيات، فالحرص على راحة المرضى وسلامتهم يتطلب الهدوء الكامل والسكينة المطلقة وعدم التدخين. غير أن التلفزيون تسلل إليها، محملاً بالأفلام والمسلسلات وبرامج المسابقات ومباريات كرة القدم، مع أنها توتر الأعصاب، وتسيء إلى حالة المريض من فرط الانفعال، لكنها تسلي مرافقيه وتنسيهم همومهم وتصرف ذهن المريض عن آلامه. أما البرامج الدينية المتنوعة، بالرغم من أنها غير مسلية، وتتطلب التركيز، فلاقت إقبالاً على مشاهدتها في المستشفيات،

كانت تعود بالفائدة على المرضى، أصحاب الحالات المستعصية الذين لا يرجى شفاؤهم.

وبما أنه كان علمانياً متنوراً، يخوض معركة حياة أو موت في مستشفى مجهز بآلات ضخمة كهربائية، وأدوات صغيرة، دقيقة ومعقمة، وأطباء مؤهلاتهم مستمدة من العلم وحده، لم يفتح التلفزيون إلا على البرامج العلمية والوثائقية، كان رأيه بالبرامج الدينية سلبياً، لعدم ثقته بما يروجه الدعاة حول القدرة العلاجية الربانية، ولا عندما يقومون بأداء دور تبشيري في التحريض على العمل الصالح.

صباح أحد الأيام، وكان قد دخل لتوه إلى غرفتها ليطمئن إلى أنها ما زالت تتنفس بالعمق نفسه، وتتكلم باللغة الحيوانية المتوجعة ذاتها، سمع صوتاً صادراً عن التلفزيون يتلو القرآن: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ كان المقرئ يجلب سمعه في هذا الوقت المبكر من النهار الذي يخلو من الأطباء والممرضات والزوار، إلى أنه إذا سأل الله شيئاً، فسوف يساعده. وبما أنه لم يكن معنياً بعرض المساعدة، أغلق التلفزيون دون تهاون، مثبتاً تعنته في علمانيته! الله لا علاقة له بالطب. مع أنها، أي علمانيته، تراجعت حدتها وأصابها الوهن، بعد انتظام تردده على المستشفى، وانتظام وضع زوجته على حاله، ومواساة الأقرباء له بأن حياتها بين ألطاف الله.

مساء اليوم نفسه، وهو في المطبخ يجلي الصحون المتراكمة، والتلفزيون مفتوح على قناة لا على التعيين، سمع المقرئ يتلو: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فتخيله انتهز فرصة وجوده وحيداً في البيت، وكرر عليه نداءه الصباحي، وكان في صوته

ملامة أشبه بالتقريع، تدحض رأيه في لا جدوى الطلب والدعاء. وإذ أعاد المقرئ الآية ثانية، بدا وكأنه يدعوه إلى التجربة، وفي انتظار مبادرة منه.

دهمه شعور غريب، أخرجه من الوجود العادي، إلى وجود عار من الأشياء، كان فيه خفيفاً وهشاً، وأحس أنه قابل للكسر والتهشم. لكنه صرف نظره عن الخفة والهشاشة، وارتد إلى الوجود العادي. ما زال أمامه الكثير من الجلي والمسح والتنظيف.

صباح اليوم التالي، لفتت نظره لافتة، فوق سرير زوجته، داخل إطار خشبي مزخرف كُتب عليها آية كريمة ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ حددت الله بالذات هو الشافي. وأين...؟! في المستشفى المشتق اسمها من الشفاء. فتعجب من هذه المصادفة، لأنه لم يلاحظ اللافتة من قبل، مع أنها كانت موجودة!!

لم يؤولها من ناحية تواضع الطب المحلي أو عجزه، أو أن الأطباء يؤمنون بقدرة الله العجائبية، ولا أن المستشفى تخلي مسؤوليتها من المرضى الأموات ضحايا الخطأ والإهمال وتعلقها على مشيئة الله، وكان اعتمادهم عليها كبيراً من هذه الناحية. استشف من الآية، أن المستشفى عبارة عن بناء مجهز بأسرة للنوم، والإجراءات الطبية أمور شكلية، لا تعدو سوى وسائل يعمل الله من خلالها، وهو وحده المتخصص بشفاء المرضى والمعافي بلا منازع.

هذا الإلحاح الغيبي، لم يعدم إشارات، أفرطت في دلالاتها وتجلي معانيها، لم تكن برأيه سوى مصادفات روتينية، بيد أنها لم تتوقف.

ففي المساء، ظهر في التلفزيون مذيع ظنه يقدم برنامج مسابقات،

وشاب ذو وجه باسم يجلس بكل أدب مواجهته، المذيع يسأل والشاب يجيب. بعد حين ظهر أن المذيع مقدم لبرنامج ديني، والشاب داعية، خدعه بذقنه الحليقة وباقته المنشاة وابتسامة لم تغادر وجهه. وكان يشرح الآيات التي سمعها في اليومين الماضيين!! بينما مقدم البرنامج يشيد بين الفينة والفينة، بعلم الداعية الوفير وتبرعه بتفسير ييسر أمور العباد ولا يُعسرها، جزاه الله كل خير.

أدار فاتح رأسه عنه هارباً بسمعه نحو الجدار، لم يعد عرضة لمناوشات من الإشارات والتلميحات، وإنما إلى قصف مركز، يقوم به الداعية خير قيام، ولا يترك للمشاهدين أية حجة من سوء الفهم، كان الكثيرون منهم لا يعرفون التفسير الصحيح للآيات.

لم يكن يشرحها بشكل عام، كان يتعرض إلى حالته بالذات، ويخاطبه شخصياً وكأنه مكلف بطرح هذا الموضوع الحساس مباشرة، ويطمئنه إلى نتائجه المضمونة، من خلال حالة مشابهة تماماً. فمن ناحية، المرض المستعصي والطب العاجز، وفي الناحية المقابلة، الشافي الأعظم، إذاً لا شيء يبرر اليأس.

«إياك أن تقنط من رحمة الله».

كان الداعية يوبخه، وفي الآن نفسه يرفع من معنوياته. كان على اطلاع كامل على حالته اليائسة، ويعرف ما سوف يكون سؤاله:

«هل يستجيب لي إذا دعوته؟».

ويعرف أيضاً بأن السائل ربما كان لا يصلي ولا يصوم، فيهتف به:

«لا تخجل، ارفع يديك يا أخي واطلب منه، لن يردك خائباً».

ثم يردف منبهاً بحدة:

«أنت لا تطلب من البشر، بل من رب البشر، الله الغفور السامح والكريم، لن يبخل عليك. يقول نبينا: الله حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه، أن يردهما صفراً خائبين».

فقد فاتح السيطرة على نفسه، ودب الخشوع في صدره، لم يترك له الداعية حجة، الله سخي في الغفران. جهد في منع نفسه من البكاء، لكن الدموع طفرت من عينيه غزيرة، بللت وجنتيه. كانت مأساة زوجته قد حضرت بكاملها، الغيبوبة والآلام والصمت والغمغمات، ومعها العلاج المستحيل والموت الوشيك... أو الشفاء بمعجزة، بمشيئة الله ... إذا قال له كن، فيكون.

هذه المرة، لم يخرج من الوجود العادي، إلى وجود عار من الأشياء، وإنما إلى وجود كل ما فيه يجري بأمر الله، فأحس بأنه يطير، ويحلق عالياً، ليرى العالم يسبح في فضاء من الجمال السرمدي والصفاء الخارق، عالم معافى من الأمراض.

لا، ليست مصادفات، ولا حتى تصاريف قدر غامض، الله يقود خطواته إليه. ومع هذا كان خياراً صعباً، نقضُ كل تلك النظريات العلمية ومشتقاتها عن الإنسان والطبيعة، والخلق والتطور والقرود وتحطيم الذرة والحتمية والجينات ونشوء الكون، وارتياد فضاء كلما توغلنا فيه ازداد خواء... وذلك التوالد الأعمى للبشر بلا غاية إلا بقاء النوع، وحياة لا معنى لها سوى ما نسبغه عليها!!

تجاوز كل هذه العقبات العلمية والحقائق العدمية الكأداء، وتصالح

من أجل زوجته مع الدين، وكان عملاً مقداماً وجريئاً، بل ومتهوراً، فهو لم يكن متديناً، ولا يؤمن بالأديان السماوية ولا الأرضية. قدم تنازلاً جوهرياً وجدياً، فآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، رافقها بجهد عملي، داوم على أداء الصلوات الخمس بأوقاتها، ودفع الزكاة على أصولها، وصام شهر رمضان بكامله، وعزم على الحج إلى بيت الله الحرام.

كل هذا لقاء معجزة صغيرة من الخالق، القادر على إحياء العظام وهي رميم، لم يطلب أكثر من ألا تموت زوجته التي تفاقم حبه لها، وتخيل أكثر من مرة، أنها نهضت، أو ستنهض، كأن شيئاً لم يكن، بينما كانت تذوي ببطء وتتحول حسنها شحوباً. لم تتحسن حالتها، كانت تتأخر، ما الذي يجعلها تقاوم على الرغم من هزالها؟! بدا أن المعجزة القادمة ستحل في الذروة من مرضها، وسوف تكون متكاملة.

على فراش المرض كانت أقوى من المنية، وهي تتحول إلى شبح عليل أصفر اللون ذي عينين في منتهى الألق الحزين. فجأة تنبهت وانتفضت، وأخذت تصرخ من شدة الوجع، كان الألم يطحنها. تجمع الأطباء حولها مستغربين، ثم انفضوا عنها وهم أشد استغراباً، لا أمل، وطلبوا منه نقلها إلى البيت.

غادر المستشفى مزوداً بحفنة من المسكنات والمهدئات والمعقمات، وعاشت أيامها الأخيرة بين النوم العميق والآلام المبرحة، تطلق نداءات، كانت رجاءات غير غامضة، تكهنها لم يكن صعباً، بعدما أفلحت في تركيب جملة ذات معنى، جملة مفيدة كانت مفجعة، تمنت فيها الموت، بعدها لم تكف عن طلبه.

إلى أن استيقظ ليلاً على صرخة ألم مجنونة اهتزت لها جدران غرفة النوم. تحت الضوء الواني كانت غارقة في عرقها ودموعها. احتضنها وبكى. كانت تشكو بصوت مفعم بفرغرة روح تتحشرج في حلقها كأنها هديل الحمام، تستعجل مبارحتها الأرض والانطلاق إلى السماء. وقضت بقية الليل بين ذراعيه تتقلب بين الصراخ والهديل.

في الصباح، تذكر التاريخ الذي يجب ألا يغيب عن باله أبداً. الأول من كانون الثاني، بداية العام الجديد، كان عيد زواجهما، وتاريخ وقوع الحادث المشؤوم. ألم يتصادفا في اليوم نفسه؟ إذاً حان قدوم المصادفة الثالثة، وآن وقت رحيلها. وتمنى لها الموت، مثلما كانت تتمناه.

مسح وجهها بالماء واستنجد بالله:

«اللهم أعنها على سكرات الموت».

فأعانها الله، استسلمت للموت بعد صمود سنة كاملة، وكان هذا آخر عهده بالدين.

حسب اعتقاده، الله خذله، فانقلب على الدين وحمّله عجزاً مطلقاً، وأضمر له عداء لا حدود له. ولام نفسه على تواطئه معه كمزاء لا يجدي، وارتكابه خيانة لا داعي لها، لم تكن إلا من أجل محبوبته، ومن يومها أصبحت حربه ضده معلنة وبلا هوادة.

وإذا كان قد آمن لبضعة أشهر، فلم يطلع على سره سوى القلة من الذين كان يصلي معهم حاضراً صلاة الصبح في جامع الزهراء

القريب، وكانوا يجهلون وجهه الآخر، كذلك المخبر الذي أخبر فرع المخابرات. كان إيمانه خفياً، ثمنه الباهظ، عناء كتمانه.

عندما ارتد، عاد أكثر إلحاداً مما كان عليه. فأنكر الله واليوم الآخر وكذّب الرسل والأنبياء وجحد الكتب السماوية والمعجزات.

11

الخبير ... من هو؟

عقب عودته بعد أقل من أسبوع إلى الدوام، وانتظام عمله، حركت فضوله زيارة الخبير الشاب الموعودة. قرر، لن يقابل شخصاً يتميز عنه بأنه مجهول. استعداداً له، أخضعه قبل اللقاء به، لعملية تجميع معلومات واسعة النطاق. كان الأولى بالحصول عليها، بعدها، سيعرف عنه أكثر مما يعرف الخبير عن نفسه. غير أن التكتم حوله كان شديداً، لم ترد عنه أية معلومة في السجلات الرسمية المتداولة. واضطر أكثر من مرة خلال تقصياته عنه إلى الجواب عن سؤال يتعلق بالحادثة:

«ما الذي جرى لقضيتك، هل كانت إرهابية؟».

فيخفف من وقعها:

«كان المحقق أميل إلى اعتبارها ناجمة عن خطأ ارتكبه الفاعل».

إلى أن سأل عنه أحد معارفه الذين جاؤوا ليطمئنوا عليه، وكان على صلة بكواليس السياسة، ونزاعات المسؤولين التجارية والمالية، وتنافس أجهزة المخابرات. فاستغرب:

«الخبير سليم!! من يكون؟!».

«هو الذي تولى الإشراف على قضيتي».

لم يعرفه، فوصفه له. عندئذ تذكره، قال له بأنه يجهل اسمه الحقيقي وعمله الرسمي، لكنهم يلقبونه بالشاب النابغة.

بعد أن أمسك بطرف الخيط، لم يقعد مكتوف اليدين، سأل عنه في معرض تبادله المعلومات مع مراكز الحل والربط العليا والسفلى. وهو أمر وارد، فعن طريق بنك المعلومات، كان الجميع يسألون عن الجميع. كان البنك ممراً اختيارياً، لكنه الوحيد، يلجأون إليه للاستطلاع، حتى من دون أن تمس الحاجة إليه، فكيف إذا مست؟

عادة لا يبخلون بما عندهم، تلك مسؤولية وطنية، الاستفسار عن شخص يعني على الأغلب أنه مدان سلفاً، أو تحت التحقيق، أو مهدد بالطرد أو السجن، عموماً قضيته ميؤوس منها؛ فينكلون به، يزيدون وضعه سوءاً، ولا يوفرونه من الأقاويل. ومع هذا لم ينالوا من الخبير الشاب، بل امتدحوه على نبوغه اللافت.

الخيط نفسه سيقوده إلى أن الشاب لم يلقب بالنابغة لشدة ذكائه، وإن كان ذكياً فعلاً، وإنما لأنه يحظى بدعم كبير من عدة جهات أمنية.

«يراعونه لأنه متشدد أكثر منهم».

فلم يكن قرارهم عبثاً بتزويده بصلاحيات واسعة في معالجة بعض القضايا، أوكلوا إليه ما يُخشى أن يثير النعرات الطائفية، أو الحساسيات الحزبية والتراتبيات الوظيفية، لا يُكلف إلا بالشائك منها، مما يخص أطرافاً نافذة في الدولة. فتُسند إليه، لكي تأخذ العدالة مجراها.

«طبعاً، دون أن تقصد العدالة بالذات».

أو تبلغ الحقيقة مقصدها.

«ودون أن تقصد الحقيقة أيضاً».

وإنما لئلا يعرقل أحد سير التحقيق أو يتلاعب في نتائجه. أما إصدار القرار النهائي، فيعود إليهم وحدهم.

كان الخبير سليم على قدر هذه المسؤوليات الجسام، وأحرز نجاحات لم تكن شكلية، وفصل في قضايا كانت سياسية، فإذا بها جنسية؛ أو عقائدية، أو مالية. فأبطل الكثير من الادعاءات والمزاعم، وأوغر صدور الكثيرين ضده.

أما عن خبراته، فقد أجرى عدة دورات في معاهد ومراكز سرية متخصصة بمكافحة الإرهاب، كانت وظيفته من ثمار التعاون الأمني بين أجهزة المخابرات حول العالم، بمعزل عن الخلافات السياسية. ما أهّله ليكون أحد القنوات التي ربطت المخابرات المحلية بمخابرات الدول الكبرى، وحاز على ثقتهم رغم ما أصاب التعاون فيما بعد من خلاف وتعثر وتبادل اتهامات. والآن يمثل القناة الأكثر فاعلية وارتياحاً بالنسبة إلى الأوروبيين والأمريكان،

فتاة لا تغلق، وإن قيل إنها أغلقت.

«هذا لا يتم إلا بموافقة الأطراف كلها».

وما زاد في مؤهلات الخبير النابغة، وعضد مواقفه، وطمأنهم إليه، إخلاصه في عمله. كان على الرغم من انخفاض التوتر بين الدولة والإسلاميين، يطارد الجماعات الأصولية دون توقف، ليلاً ونهاراً، ويعتقلهم على الشبهة، بسيطة كانت أو تافهة.

«لا يعني هذا أنه بلا قلب، أو بقلب من حجر، قضايا الإرهاب لا تعترف بالقلوب ولا بالمشاعر، ولا مكان لها في الملاحقات وتحت القصف».

وإذا تسامح رؤساؤه معه، فليس لأنه يتفانى في أداء واجبه.

«الجميع يتفانون في عملهم، أما هو فيغالي في أدائه على أكمل وجه، بل وأكثر».

أما سر كراهيته المبالغ بها للإسلاميين...

«فيحتفظ به لنفسه، بعد تجربة قاسية دمرت حياته لفترة من الزمن».

كان يجاهر بأنه لا يرضى بأقل من القضاء عليهم، عن بكرة أبيهم، وإرسالهم إلى الجنة التي يطمعون بها، وقبلها الجحيم التي سيصليهم نارها.

«هذا الحقد ربما من جراء صدام قاس معهم».

وسوف يبقى قتاله معهم، كما يقول، إلى يوم الدين، أو يوم المآب، أو يوم الحساب، أو يوم اللاشيء... حسبما يدعون ذلك اليوم.

ما توصل إليه الأستاذ فاتح، لم يكن كافياً، كان قليلاً. فيما بعد سيدرك أنه كان كثيراً، وأكثر من كاف، وإن افتقر إلى التفاصيل.

12

العلماني ... من هو؟

على الجانب الآخر، أجّل الخبير سليم زيارته للأستاذ فاتح، وكاد أن ينساها لولا أن علم بأنهم في بنك المعلومات يسألون عنه (الأستاذ المفكر، من يكون سواه؟!). فقرر تنفيذ وعده، وأخذ يحضر للزيارة. لم يشأ التورط بالمعطيات القليلة التي زوده بها رؤساؤه، أو تلك التي اطلع عليها في البرقية، لا بد من المزيد. بالنسبة إليه، لا يحتاج إلى أن يكون لديه بنك للمعلومات للحصول عليها، لديه وسائله.

لم يطل الوقت، سرعان ما تواردت فأخذ يستعرضها ويقلبها على أوجهها، فقد كان لها أوجه:

الأستاذ فاتح مفكر محترم، لم يبع قلمه لأية جهة، مع أن بيع الأقلام والعقول للدول الغربية والنفطية أصبح سائداً تحت عناوين دارجة؛ صحافة حرة، مراكز أبحاث، لجان حقوق الإنسان،

جمعيات نسوية، جماعات الدفاع عن الحريات ... إلخ. ركب الموجة المضادة للإرهاب دون مقابل مجز، سوى هذه الوظيفة التي لا تغني ولا تسمن من جوع. نقد في محاضراته وكتاباته بالأصوليين وعملياتهم الانتحارية؛ هذا بشكل عام. وبشكل خاص، لم يهمل خلفياتهم الماورائية، أي ما يكمن من أسباب غير مادية وراء أفعالهم المتطرفة. فحلل بعمق شخصياتهم المتشددة، واكتشف أنهم يكرهون الحياة ويعشقون الموت، ليس عشقاً مجانياً، فالذي يفجر نفسه، يستقبله الرسول عقب تنفيذ العملية مباشرة، ويأخذه إلى الجنة ليتمرغ في النعيم، فيأكل ويشرب ما لذ وطاب، ويمارس الجنس الشفاف مع مجموعة من الحوريات من ذوات الأجساد البلورية. الأستاذ فاتح لم يقصر بهم، فضحهم بأن الواحد منهم كي يذهب إلى الجنة يرسل بالمئات إلى الموت.

لم تهزه هذه المعلومات عن الأستاذ فاتح، أو تدهشه شجاعته، ربما لو قرأها غيره لتساءل، أما زال ينعم بالحياة؟! هذا كلام جرائد، أما الواقع، فيقول إن الأستاذ الجريء لم يكن جريئاً، الأمان الذي وفره النظام، سمح للأطراف كلها أن تتناقش بواسطة الإنترنت مع بعضها وتكذب على بعضها وتشتم وتتهم وتزول وتكفّر بعضها... بعضاً، دون تبادل إطلاق رصاص. ساعد على ذلك، ما يفصل الداخل عن الخارج من حدود ومسافات، استغلها الأستاذ فاتح، وكانت مواتية لمواقف جذرية كهذه.

كما أن الأستاذ المفكر، لم يضف جديداً، انتحل هذه الاتهامات الرائجة، من فقهاء الأنوار الغربية التي ما زالت تضيء من بعيد قضايا المنطقة الكبرى، وترغب في تفجير أزماتها المستعصية، بتقسيم المنطقة ثانية، بدعوى خلق شرق أوسط جديد. وكان من بعض

منجزات مستشاريهم، نظريات اعتبرت الاستشهاد هو الموت انتحاراً، اجتاح المنطقة بفعل انتشار الأفكار الأصولية وسريان عدوى التطرف، كمرض إسلامي محض، نتاج دين يحض على التخلف، يمنعه من التمدن، ويحرض أتباعه على العنف، ولا يحثه على المنطق. تفسيرات وجدت طريقها إلى كتابات المثقفين والصحافيين المحليين عشاق الحياة الحلوة على الطراز الأميركي، كررها الأستاذ فاتح بشكل ملطف. فكانت حتى جرأته محسوبة.

لو كان جريئاً فعلاً، لما تجاهل هو وأمثاله، أكثر من سؤال: لماذا لا ينتحرون، لماذا لا يكرهون الحياة، لماذا لا يعشقون الموت؟ لكان أجدى لتفسير أحقادهم وجنونهم.

أخذه طلب المعلومات عن الأستاذ فاتح بعيداً، أبعد مما يجب أو يتوقع، مع أن الأسئلة الأخيرة، لم تؤرقه، بالعكس فليعشقوا الموت ويذهبوا إلى الجحيم. فالأمر لم يكن الحب أو الغرام، بل السلطة والتسلط والانتقام.

أزاح ما وصله من معلومات جانباً، كلها لا تعني شيئاً، إزاء ما حفلت به البرقية المحمولة باليد. ماذا إذا كان ما أبداه الأستاذ من نشاط في الجرائد والمراكز الثقافية والمنتديات، مجرد غطاء وتمويه؟! وماذا لو كان يدعو لأفكار أقل ما يقال عنها بأنها رافضة للإرهاب وأسلمة السياسة وتسييس الدين، لكن في داخله يخفي حقيقة مخالفة؟ حقيقة أثبتتها إخباريات لشاهد عيان محترف، نقل ما رآه بحذافيره، وإذا كان هناك بعض الزيادة، فلن تبلغ الصلاة يومياً، طوال أشهر عدة، عند الفجر في جامع الزهراء.

وما يسترعي الاهتمام فعلاً، أعداؤه من العلمانيين لا يغفلون عن

أعدائه من الأصوليين. أليس الأولون من فصيلته نفسها؟ لماذا لا يثقون به؟

هل يُبطن الأستاذ العلماني الإيمان ويُظهر الكفر؟ احتمال كبير، وربما أكيد، وعلى هذا علمانيته استعراضية. وحتى إذا كانت حقيقته المؤقتة، فكم ستدوم؟! ومتى سينقلب عليها، ويقفل عائداً إلى مواقعه الأصولية؟ لقد فعلها كثير من اليساريين والتقدميين السابقين.

حسب الإخباريات نفسها، سرعان ما ارتد عن أصوليته، كما ادعى شهود عيان فيما بعد. في هذه الحالة، لن يختلف استعراضه اللاحق عن استعراضه السابق، إلا في تعمده ظاهرياً تصوير نفسه شهيد العلمانية المرتقب، والمستهدف الأول من قبل الأصوليين، تمثيلاً وليس فعلاً، وهو الحد الأقصى لطموحات الدنيويين، لن يتجاوزوه إلى شهادة لا تعني في أحسن أحوالها سوى الموت. بينما بتمثيلية لا تزيد على صدغ متورم وقليل من الدم، تذهب به الحادثة من المستشفى إلى الشهرة. لكنه فوّتها عليه، وأرسله إلى البيت.

على كل حال، كلتا الفرضيتين تحت الفحص ومدعاة للتساؤل. إذا كانت إحداهما أخفقت، فهل الأخرى في سبيلها إلى التحقق؟

13

دراما متقلبة

لاقى الخبير سليم بعض الصعوبة في العثور على الإدارة، لا لافتة تدل عليها ولا إشارة تقود إليها، رغم أن عنوانها المسجل لديه كان واضحاً، لِمَ التخفي، هل يظنون أنفسهم مركزاً سرياً لتدبير المؤامرات؟! سرعان ما لفت نظره البناء الكالح على طرف الساحة. كان واقفاً منزوياً، أشبه بلغز بوليسي طريف، بمدخله الطولاني الهادئ، الخالي من مكتب للاستعلامات، أو كوة يجلس خلفها موظف يسأله عما يريده، كأن المقصود أن يبدو مهجوراً.

عبَرَ المدخل، طالعه في مؤخرة الممر رجل يكنس الأرض. سأله عن المدير، فأشار له بيده إلى الطابق الذي يعلوهما. ارتقى الدرج، طالعه ممر آخر، قرأ اللافتات النحاسية، على إحداها مكتوب «مدير المركز»، فقرع الباب. سمع لدخل، فدخل.

كان الأستاذ فاتح واقفاً أمام النافذة، يطل منها على الحديقة

العامة، يحيط سورها المنخفض بنظراته، ويتأمل الاخضرار الساري على جنباتها. كان تعاطفه مع اللون الأخضر، يخالطه الضعف والحياء، ويستثير ذكريات عاصفة، عاطفية ومؤلمة. فالأخضر لون الحياة، يستدعي الأصفر لون الموت والموات.

المنظر يهتز في عينيه، يترجح بين الشتائي والربيعي، الشتاء آثاره مبعثرة على الأرض، بينما الشمس اللطيفة تُذكر بالربيع، فيبدو الجو معتدلاً، الأشعة الحانية تنسكب على الأشجار، تلمسها برقة وتمضي برشاقة، بينما الأغصان تتثاقل مبللة بمطر الصباح، أشبه بحبات من اللؤلؤ، ترشق ومضات النور، فتنبثق شرارات واهنة، تنعكس من قطرات الماء المعلقة على ذؤابات أوراق الشجر.

منظر شاعري، وانسجاماً مع شاعريته، اشتبه عليه مطر الصباح بحبات اللؤلؤ، ما بعث في داخله، بالرغم من المعالم الباردة المحيطة به، بهجة التمتع بشروق ساحر، تأخر بضع ساعات، نشوة لم تدم سوى لحظات، إذ اكفهر الفضاء؛ الغيوم ملأت السماء على عجل. عاد ببصره إلى البقع المتدرجة الاخضرار، يلاحقها بنظراته قبل أن يتبدل لونها، أحس بالكآبة، كانت تسارع إلى القتام.

استثير بشكل عانده فيه التركيز، مع أنه بعد حادثة الدرج تبلدت مشاعره، وتضاءل اهتمامه بما حوله، لم يعد يُعنى كثيراً بما يحسه نحو الأشخاص والأشياء. وإذا كان قد انتابه شعور إزاء إنسان، فبالذنب نحو هيفاء. لقد قصَّر نحوها، زارته في المستشفى واعتنت به في البيت، وما زالت تطمئن عليه يومياً. ولم يفعل شيئاً يشكرها به على رعايتها له. قد يزورها اليوم، وربما قضى الليلة عندها. ذلك يعتمد على ألا يكون مملاً.

تذكر أنه قال ادخل، التفت، رأى الخبير سليم، فامتعض، لم يرغب في رؤية الشاب النابغة وهو بهذه الحالة الكئيبة. أخفى استياءه وأبدى دهشته، ما هذه المفاجأة؟! رد سليم بأنه كان مارا بالجوار فتذكر وعده له بزيارته. أظهر فاتح سروره، وطلب بواسطة الهاتف فنجاني قهوة، جاء بهما الحاجب الذي رآه سليم قبل قليل يكنس الأرض.

طرقا ما تناقلته الصحف في الفترة الأخيرة، الوضع السياسي الدولي الرازح بثقله على السياسة الخارجية للدولة، والضغوط الأميركية التي أساءت إلى علاقات الدولة بدول الجوار. تسايرا وخلصا إلى أنه ما دامت أميركا تقود العالم، فغالبية العالم ضدنا!! ثم عرجا على الأزمة اللبنانية المستفحلة، واتفقا على أن حلها ليس في الداخل وإنما في الخارج. الانفاق بينهما كاد أن يكون كاملاً.

أصغى سليم ملياً، ولم يتكلم إلا قليلاً، كان يعيد النظر في الرجل الذي كان طريح الفراش في المستشفى، بئن من الخوف، وليس من الألم. جاء يحمل عنه توصيفاً بسيطاً، هذا الرجل عميل مزدوج، لكن ولاءه الحقيقي لمن؟ هذا ما يجب أن يفصل فيه عن قرب.

لا شك بأنه يواجه موظفاً من طراز غير معهود، مهتم بعمله، ومتابع جيد لحركة السياسة الدولية. وفي الوقت نفسه شخصية مفكرة غير مألوفة، وعلى الأرجح، شخصية هي شخصيتان، واحدة تتمترس خلف الأخرى. كان سبرهما عويصاً في هذه العجالة، دون استعمال الأساليب التقليدية في التحقيق.

حتى لو كان مفكراً، فهذا لا يمنحه أي امتياز على غيره، سوى

أنه ماهر في حساباته الدنيوية والأخروية: لا خسارة لمنافع الدنيا ولا مباهج الآخرة. تعاقد مع الله سراً، وأدى له الفرائض والسنن، وعندما خشي من انفضاح أمره، مارس عباداته في الخفاء. فضمن الآخرة وحسن الختام. وفي الوقت نفسه، علماني يتصيد الشهرة وموقعاً في المعارضة، هذا لم يضمنه بعد، ما زال يسعى إليه.

ما الخطر الذي يشكله بشخصيته مزدوجة الطابع؟

الأمر واضح، ألّا يكون اكتفى بتعاقده مع الله، وارتبط بجماعة أصولية، مستغلاً من جانب آخر، دعم الدولة للعلمانيين كرأس حربة ضد الإسلاميين.

وبالعودة إلى شخصيته، إذا أُخذت بحدودها التافهة الواقعة بين الجبن والشجاعة، فلا خطر داهماً. ثمة مسافةٌ يستدعي اجتيازها عزيمة جبارة، لا يمتلكها. لكن من بوسعه التأكد من بقائه على هذه الشاكلة، يتقلب بحذر مع تقلبات الظروف السياسية؟!

ثم انتقلا إلى الأوضاع المحلية، وتناولا المواقف الملتبسة لجماعات المعارضة. خرج الخبير عن إصغائه العميق ووقف ضدها بقوة! هذا ليس وقتها، ما دام العدو واحداً، لا ينبغي تشتيت الجهود في هذه المرحلة. فيما دافع فاتح عنها بقوة! مواقفها مشروعة، وعلى الدولة أخذ مطالبها بالاعتبار، مما يساعد على تقوية الجبهة الداخلية. كان الاتفاق بينهما معدوماً.

الأستاذ يبدي آراءه بصراحة لا يتجرأ موظف في الدولة على إعلانها، يعتبر نفسه مثقفاً مدللاً أكثر منه موظفاً مأموراً. لن ينساق إليه، ليس موظفاً بريئاً ليتسامح معه، بل مثقف مشكوك بأمره، يطمح إلى أن يكون منشقاً ذائع الصيت.

استدرك تخميناته، إذا استمر على هذا المنوال، يتسرع باستنتاجات مسبقة، فسوف يضفي عليه أهمية تتجاوز رجلاً مطلوباً بتهمة تضليل التحقيق. كان قد أربكه بالفعل، بعدما شطح أكثر من مرة خلال أقل من نصف ساعة. الأفضل، بعض التأني، ولو أدى به إلى التنازل عما راوده حوله، قبل أن يضيع في متاهة أحبولة من تلفيقه هو لا من شطارة الآخر.

أدرك هذا متأخراً، بعد أن أصبح أسير دراما متقلبة على أكثر من وجه، لن يفصل فيها سوى التيقن من ولائه. إذا كان يعمل مع الله، فلن يقنعه العمل لحساب أية دولة، ولو كانت دولة عظمى، ولن تعوزه الشجاعة والإرادة لقتل أي شخص يوصم بالكفر. وربما لا يفكر بالقتل والتدمير، لكنه عدو محتمل، حتى لو لم يكن متطرفاً، ولن يتقاعس عن تقديم خدماته إلى أية جماعة ترغب في القيام بعملية تهز أركان الدولة؛ تفجير مروع في شارع آمن، أو سوق مكتظ بالناس، أو.... ثانية شطح بأفكاره!!

كان الأستاذ فاتح قد نسف بمظهره الوديع تخيلاته حول الشارع الآمن والسوق المكتظ والدولة المهتزة. كان التفجير المروع، هنا في رأسه، لا في هذا المكتب الهادئ جداً، المفتقر إلى شبهة إرهابية. إلا إذا كانت اللوحة التي تصدرت الحائط الجانبي، تنطوي على سر، بما تحمله من صور لأئمة الفكر الإنساني، ضمت إلى جانب سقراط وأفلاطون وديكارت واسبينوزا... رجلاً بلحية ضخمة!!

حدق إليها، كانت صورة لماركس الذي أثار قلق الرأسمالية بنظرياته التحريضية طوال أكثر من مائة عام، كان للإرهاب خلالها سمعة محمودة ونكهة محببة وشعبية كبيرة، بروليتاريا تهب طلباً

للعدالة والسلطة، تسحق البرجوازية، تعدم رجال الحكم البائد، وتستولي بالقوة على الدولة. مظاهرات الشباب في أوروبا ترفع صور غيفارا وماو تسي تونغ. عالم يضج بالانقلابات وحروب التحرير والعصابات... وفي الجانب الأقصى منه، جموع هائلة تزحف ملوّحة بالكتاب الأحمر... كلها، على علاقة سيئة بالدين، إن لم تكن ضده، تُبرّئ العلماني من أية لمسة إيمان. وإذا كان متأثراً بها، فنحو تغيير العالم بالقوة، والتقدم نحو الأمام، لا الرجوع نحو الخلف بضع سنوات، فكيف بأربعة عشر قرناً؟

كاد الاستطراد، أن يأخذه إلى منحى مغاير، ويرفع من حدة الدراما، لكنه أوقفها، ماركس من مخلفات الماضي اليساري للعالم، لم يعد قدوة ولا دليلاً، وإذا كان العلماني يحمل نحوه شيئاً، فلا أكثر من مودة فكرية، وصورته ليست سوى تمويه ماكر.

غير أن الدراما عادت إلى التفاعل.

كان الأستاذ فاتح قد استطاب الشرح بالتؤدة السابقة نفسها، ومضى يدافع عما آلت إليه حال الجماعات الإسلامية، بإعطائه الأهمية لما وصفه بظاهرة جديدة، تتجلى بظهور جيل جديد من الإسلاميين، متعمق في الدين، يدعو إلى النأي عن العنف!! وبروز فتاوى وآراء فقهية، تنبذ العمليات الإرهابية، لأنها تضر سياسياً أكثر مما تنفع، فضلاً عما تمثله من إساءة لسمعة الإسلام والعرب.

دراما عليه أن يخمدها.

الأستاذ يلعب بخبث ودهاء دور المفكر المحايد، بتجاهله واقعاً يشهد كل يوم أن تراجع الإسلاميين كان بسبب ما أصابهم من

ضعف شديد بعد الضربات القوية التي وجهت إليهم في معاقلهم، وقصفت تجمعاتهم من الجو، وسحقت شراذمهم على الأرض، وحاصرتهم بتجفيف منابع تمويلهم، وقطع الشبرعات عنهم، وملاحقة خلاياهم وتفكيكها.

المفكر المحايد يتلاعب بالحقائق، ويردّ عدم وقوع عمليات إرهابية جديدة في أوروبا وأميركا، ليس إلى عوامل خارجية لم تفلح، بل إلى أخرى داخلية، ستفلح! بالعودة إلى أصول الدين الحنيف!!

آن له أن يوقف عبث دراما تتقلب متهافتة.

14

احتمال لا بد من تجريبه ذهنياً

لم يتردد، اتخذ قراره، لا خيار له في القفز عن أي مظهر للبراءة، والتمسك بالشك، ولو لمجرد احتمال ضئيل.

تناول فنجان القهوة، وأخذ يرشفه على مهل، كان بارداً. إلى أين وصل قبل القهوة؟ إلى التفجير المروع، حسناً ماذا بعده، بل ماذا قبله؟ سيحتاط الإرهابي المتنكر بالعلمانية ببضعة إجراءات، لئلا تتناوله الشبهات. ما الذي سيفعله؟! سيختلق حادثة تبعد الشكوك عنه، وتضعه في موقف قوي؛ المُتَّهِم، لا المُتَّهَم.

احتمال لا بد من تجربته ذهنياً، بمتابعته حتى النهاية.

أوعز إلى واحد من أعوانه بالسؤال عنه في السوق، فقدم بذلك دليلاً على وجود الفاعل. ثم حسب الخطة، فجَّ له رأسه، مدده فوق الدرج، تأكد من سيلان بضع قطرات من الدم،

خرج بكل هدوء، نفض يديه، وتابع المهمة بإبلاغ وسائل الإعلام وتجمعات المعارضة وحقوق الإنسان بما أصاب صديقهم، فوصلوا إلى المستشفى بعد وصول الجريح بدقائق معدودات، وعلى التو باشروا مهماتهم في التشويش والضجيج وجمع التواقيع. عملية أعدت جيداً، وتوبعت جيداً، ونفذت بشكل نموذجي.

كفاءة الأستاذ في التخطيط والتنفيذ، أثبتت فاعليتها كاملة في هذه العملية البوليسية المتواضعة، وكان أكبر منها، وبالتالي سيكون أذكى في الإعداد لعمليات أكبر وأوسع وأكثر تعقيداً... على مستوى البلد والمنطقة.

قبل أن يعطيه أكثر من حقه أو أقل من البراعة، لا مفر من اختباره بصورته الحالية، الموقف مناسب كي يستخدم ما دار في ذهنه من دراما وحيرة وعمليات وشكوك واستلهامات، لن يستدرجه إلى الإفصاح عن مكنوناته، سيسأله مباشرة، دون تمهيد أو توريات، وكان الأستاذ يقول شيئاً يحاول إقناعه به، فقاطعه بفظاظة:

«هل أنت مؤمن؟».

صمت الأستاذ مدهوشاً، فتابع يبرر سؤاله المفاجئ:

«سمعت أن بعض العلمانيين مؤمنون، ألا يتعارض هذا مع ما يدعون إليه؟».

«لا».

«وأنت...؟».

«أنا غير مؤمن».

«ألم تراودك هذه المشاعر عندما كنت صغيراً؟».

«لقد تخليت عنها بعد أن وعيت».

«ألم تُعد النظر بهذه المسألة بعد ذلك؟».

«بلى، قبل سنوات، تعرضت لموقف صعب، فآمنت، كانت فرصة لأجرب الله».

«وماذا كانت النتيجة؟».

انزعج فاتح من التحقيق الذي بدأ على حين غرة، النابغة الأحمق ارتد إلى أسلوبه الخشن الذي اعتاد عليه، أسئلة متلاحقة، يحشره بها وقد يدفعه إلى ارتكاب زلة في الكلام حول أمور في منتهى الخصوصية. تردد قليلاً. هل يتابع الرد على أسئلته؟ ليس لديه ما يخفيه.

«طلبت منه طلباً، لم يستجب له. اعتقدت أنه لم يستمع إليّ، أو كانت لديه مخططات أخرى، لا مكان لي فيها، عدا أنت تعرف، يقال بأن كل شيء في حياة الإنسان مسجل مسبقاً في كتاب محفوظ، ولا داعي لإحداث تغييرات كرمى لشخص واحد، كائناً من كان؛ الترتيبات الإلهية لا تتطابق مع رغباتنا، هذا من جانب، وبما أنني في الجانب الآخر، لم أشوش نفسي بهذه الافتراضات، أيقنت أنه غير موجود، وانتهى الأمر بيننا».

«ما الذي طلبته؟».

«تمنيت شيئاً كنت بأمس الحاجة إليه، لم يكن من أجلي، وإن كان يعنيني كثيراً. للأسف لم يرفق بي».

«لو أنه حقق أمنيتك، ثم طلب منك شيئاً، مهما كان هذا الأمر، فهل تنفذه؟».

«نعم».

«حتى لو طلب منك أن تقتل؟».

«سوف أقتل».

كان هذا هو الجواب الذي انتظره، جاهز قاطعاً دون التباس. ونجح أخيراً في استدراج شخصية الإرهابي المختبئة خلف شخصية المفكر إلى الظهور؛ تمكن من التغلب عليه، وانكشف بكامل عتاده، قادراً على القتل، بمجرد أن يتلقى أمراً من الله... أو ممن يزعمون أنهم يتكلمون نيابة عنه؛ أصحاب فتاوى الجهاد، مؤولو شرائع الله ومقاصده.

أدرك فاتح أنه أخطأ بهذه الإجابة، ترى على أي نحو سيبرر، سوف يفسرها النابغة الذي بدا موتوراً؟ من المستحسن إعطاء جوابه صيغة أقل فجاجة.

«لا أعتقد بأن الله قد يوجه أمراً ظالماً كهذا دون مبررات قوية، حسب أدبياتهم الدينية، الله رحيم، وكريم بالعفو والمغفرة. أمر القتل، لا بد أن يكون خيراً خالصاً».

«أو ما يعتقدون أنه خير».

لم يتابع الحديث. نهض واقفاً. لقد ضبطه باعتراف لا يقبل النفي ولا التصحيح أو الإنكار. لن يتحير، تصنيفه أصبح واضحاً، وما سيفعله به أوضح، سيقضي عليه. وأراد قبل أن يغادر العبث به قليلاً.

«بالنسبة لهذا الموسم الثقافي، أرى أن تكون أكثر حرصاً، أعتقد أنك في خطر فعلاً، لا أريد أن أخيفك، وإنما أن أنصحك...».

ابتسم بلؤم، ولم يكمل.

«هل أنا مهدد؟».

هز له رأسه، فسأله فاتح بتحفز:

«بماذا تنصحني؟».

«بإلغاء محاضراتك».

لم ترق له النصيحة، ولا الأسلوب. كان يُلمح إلى شيء لم يفهمه، فأراد أن يكون صريحاً وفجاً معاً، ويقول له بالأسلوب ذاته بأنه لا يتلقى أوامر من أحد، ولو كان الدولة.

«لا، لن ألغيها».

«أو أجّلها شهراً أو شهرين».

«ولن أؤجلها».

ردُّ بإصرار. ولم يفته بأنه أصبح موضع شك، هؤلاء يشكون بأمهاتهم وآبائهم. وتذكر بسخرية مؤسية أن حياته غير الآمنة، باتت في خطر من جهتين.

والأنكى، كان ضحية وأصبح متهماً.

15

تشابه غير متعمد

قبل أن يصحو من أفكاره المضطربة، سمع نقراً على الباب، ظنه رجع. وكان قد عاد إلى وقفته أمام النافذة يطل على منظر فارقته الغيوم، وتداعى مدلهماً بالاخضرار الكاسح، كان مهيأ له أن يبعث الأمل، لكن في ظرف غير هذا.

التفت خلفه، عند الباب وقفت فتاة في حوالي العشرين من عمرها. تذكر أنها الموظفة الجديدة التي تم تعيينها قبل أسبوع في قسم المراسلات، وصادفها قبل يومين، أنقذ رآها خطفاً، وأثارت في داخله قلقاً عابراً لم يدر كنهه، ربما لأنها محجبة. في هذه المرة يراها عن قرب. كيف دخلت؟ ربما أذن لها بالدخول وهو مشغول الأفكار.

عقد حاجبيه، ورمقها بنظرة متسائلة فاترة، فابتسمت، كأن بريقاً توهج من عينيها ولمعة أسنانها. تعثر في مكانه، دون أن يخطر

خطوة واحدة، وكاد أن يقع، لولا أنه استند بيده إلى الخزانة، مما أعاد إلى ذاكرته، المرة الأولى المقلقة التي وقع عليها بصره في الممر المؤدي إلى المصعد.

أيقن أن روحاً لطيفة حلت في الغرفة، وما عليه سوى أن يصمت ويتأمل بخشوع هذا الحضور المتخم بالجمال والنور والسكينة، تمتزج كلها، ببعضها ومع بعضها، وتعيد تشكيلها ذاتياً على نحو رائق يموج بالألوان السائلة، ويتهادى ببطء، يحددها إيقاع خفي، ينظم مساحات الفراغ، ومعايير الانسجام بين الهواء والأشياء. وإذ تلامسه ترقق قلبه، حتى تكاد أن تمزقه. كانت الدموع على وشك أن تطفر من عينيه.

بصعوبة تمكن من الوصول إلى الكرسي خلف الطاولة، جلس وهرب بنظراته إلى الدوسيهات المفتوحة على أخبار تصاعد حوادث المرور وارتفاع تكاليف المعيشة وجنون الأسعار... ألقى نظرة إلى الأرقام، كانت تتصاغر وتبهت دونما تفسير؛ ما يجري برهافة يخرجها من دائرة التأثير ويبطل فاعليتها. وإذ تتحلل إلى نقاط سوداء؛ تبعثر وتتساقط من الورق الأبيض إلى فراغ بلا لون.

ثمة ما أعاد رسم المرئيات أمامه.

كانت هي أو ظلها أو انتظارها المشوب بالحيرة مخيماً على المكان، واستحوذ عليه، ساحة الرؤية انشغلت بها، برافقها نغم خافت يتهادى بحنين غامض وآسر هيمن على سمعه كلية. ترددت أنفاسها، فأدرك مصدر النغم. كانت قد منحت المشهد موسيقاه العذبة. لم يشعر بالحبور، كان يعاني من روعة حالة وقف عاجزاً إزاءها.

سألته عن آخر إحصائية لمعدلات البطالة في القطر.

فأعاده سؤالها إلى العالم الذي غادره.

أخذ ملهوجاً يبحث عن الإحصائية التي طلبتها. كانت على الطاولة أمامه، لكنه لم يجدها، مع أنه عثر على إحصائيات وجداول وبيانات كان قد أضاعها، كارتفاع الين الياباني أمام العملات الآسيوية، وانخفاض الدولار إزاء اليورو، وتزايد معدلات الاحتيال... ربما كان الآن يتعرض إلى عملية احتيال رقيقة جداً!! وقع المصنف من يده وانفرطت الأوراق، لم يميز هذه من تلك. امتزجت في عينيه العناوين بالأرقام، واختلطت الخطوط الطالعة بالنازلة.

كاد أن يجدها، لكن ما سيطر عليه، جعل بحثه بلا فائدة، حتى لو وقع بصره على الإحصائية المطلوبة فلن يراها. رفع رأسه قائلاً:

«سأجدها وأرسلها إليك».

شكرته والتفتت صوب الباب. هتف بها مذعوراً، وقد لمح شيئاً على ملامحها:

«انتظري».

لم يقل شيئاً. بقيت يده مرفوعة، يستبقيها واقفة أمامه. يتأملها مذهولاً. ظنت أنه نسي نفسه هكذا صامتاً. فاندهشت.

كان المنديل ذو اللون الرمادي الفاتح الذي التف حول رقبتها وغطى شعرها وأذنيها، قد أبرز جبيناً كالمرمر، وأضاء عينين عسليتين، ظللتهما أهدابها الطويلة، بينما تخضبت بشرة خديها

البيضاء بلون برتقالي، كانت الشفتان مرسومتين ببراعة منقطعة النظير.

تظاهر بأنه يريد أن يقول لها شيئاً حول الإحصائية المطلوبة، فتخبطت الكلمات في ذهنه. كان الفم الذي لم يجد وصفاً له سوى أنه رسم ببراعة منقطعة النظير، يكاد يكون فم زوجته الراحلة، بل وكان لها الجبين ذاته. أما العينان فكانتا بالوساعة نفسها.

قال لها وهو يرتعش:

«اعذريني، أنت تشبهين شخصاً عزيزاً عليّ فقدته».

أحست بمدى تأثره، فارتبكت. أومأت برأسها خجلة، وكأنها تقول له أن لا بد لها في ذلك الشبه وهذا الحزن. تراجعت صوب الباب وخرجت.

بعد قليل، لم ينظر إلى هذا المشهد المؤثر، بالمنظار نفسه.

استعاده بحيرة شديدة. ما الذي أسبغه عليها، أو تصوره، ما الذي عطل محاكمته النقدية لمنظر تشكل ببطاوة وسحر، وصيّره فريسة سهلة لانخراع أعمى؟!

المشين، أنه كاد أن يبكي، لأن بصره وقع على موظفة في المركز، ماذا تكون غير فتاة محجبة، أي متدينة، أي محتشمة، أي متحفظة، أي محافظة، أي ... كم باستطاعته أن يرفق بهذه الـ«أي» مختلف أنواع النعوت البريئة العائدة للجانب الإنساني المحبوب بالفضائل الخنوعة، والعبودية لأوامر كائن متوار عن الأنظار.

كان التشابه الحاصل بين الفتاة الموظفة وزوجته الراحلة، هو الذي جعله يتهور إلى حد تجاوز فيه الحدود الرصينة لرجل عاقل لا يجوز أن يطيش صوابه لمجرد توارد ملامح بين فتاة على قيد الحياة وامرأته الحبيبة المتوفاة، ولا يعطي الحق لأي امرأة ولو كانت تشبهها، أن تثير كوامن أحزانه.

كان انجذابه الصاعق، خديعة لا يسوغها مقدار كاف من الإعجاب الجنسي أو الجمالي. فالفتاة بجسمها النحيل لم تكن شهية، فلا بروزات مثيرة، أو تكويرات موحية، حتى أن البروز الوحيد كان منفراً، فمؤخرتها السمينة اللافتة غير متناسقة مع جذعها النحيل. والملامح التي أطارت عقله كانت عادية، لا تسترعي النظر؛ الفم كان مرسوماً على عجل، وإن رآه مرسوماً ببراعة، كما أن العين اليسرى يشوبها بياض في زاوية الحدقة.

دهمته غصة، تذكر أنه مهدد بالقتل، وتذكر أن خبيراً نابغة على قدر عالٍ من التخصص في الإرهاب، أظهر ريبته منه. فأحس بأنه عاد إلى صوابه بغظاظة بشعة، وعاجلته دون إنذار كراهية مضاعفة نحو الفتاة المحجبة، لم يحتمل ما خطر له عنها. كان مجرد أنها تشبه الراحلة مساساً بذكرى زوجته، ثم ما هذا المنديل القبيح الذي كانت ترتديه، هل يعقل أن ملامحها اقترنت بملامح امرأته، ولو للحظات؟!

تناول الهاتف واتصل بمدير الشؤون الإدارية وطلب منه نقل الموظفة الجديدة إلى «البراده»، المصطلح المتعارف عليه داخل المركز للمستودع في القبو غير المزود بأي نوع من التدفئة، حيث تختزن غرفه الرطبة ما تصدره وزارات وإدارات ومؤسسات الدولة من قرارات وأوامر وتعليمات لم تعد تعني شيئاً حتى لمرسليها،

ريثما يجري تصنيفها، ثم إدخالها إلى كومبيوتر مهجور، ترقد فيه رقدتها الأخيرة. يُكلف بهذا العمل السخيف هؤلاء الذين تأتي بهم الوساطات، فيودعون في البراد، بغية تطفيشهم. قد يداومون بضعة أسابيع، ثم لا يداومون، يأتون نهاية الشهر ليقبضوا رواتبهم، ريثما تعمل وساطاتهم على نقلهم إلى مكان آخر.

تحت الأرض، ستمارس عملاً مملاً لا يقيها برد الشتاء، ولا حرّ الصيف، هذا إذا بقيت للصيف. كانت مثل من سبقها، صادف قدومها في الشتاء، وستذهب قبل نهايته. لم يُدعَ القبو بالـ«براد» عبثاً، كان يؤدي عمله على أكمل وجه في هذا الفصل، ويؤدي أيضاً المعنى المرصود له؛ تجميد كل من يرسل إليه.

بعد اليوم لن تطرق عليه الباب، ولن يراها في دهاليز المركز وممراته وطوابقه العالية، عالم البراد منقطع الصلة عن عالم المركز.

أحس برغبة جارفة في تنفيث ما احتقن في داخله من غضب وفي ذهنه من تخيلات. لم يشعر بالارتياح. كان بحاجة إلى من يسمع له دون أن تخالجه الظنون السيئة. هل هو مهدد؟ ربما. هذا أمر عليه ألا ينساه، وألا ينسى أنه فرّط بهذه الميزة بسبب انحيازه لرب رحيم، كريم بالعفو والمغفرة، وأن أمر القتل، لا بد أن يكون خيراً خالصاً. لماذا تبرع بهذا التفسير؟ ما أدراه أصلاً بمقاصد الله؟

خطرت له هيفاء، اليوم هي في إجازة، لن ينتظر إلى المساء ليزورها. نظر إلى ساعته، قاربت الواحدة ظهراً. الآن هيفاء تغلي ركوة القهوة الثالثة، قد يدركها ويشرب معها فنجان قهوته الثاني.

□□□

«لقد رأيتها».

قالها متصنعاً الدهشة، وحبس أنفاسه، ليرى تأثير ما قاله على ملامحها. استدارت هيفاء نحوه متسائلة، وهي ممسكة بالركوة تصب القهوة في الفنجان. ما الطرافة في أن يرى امرأة؟ فلم تشاركه دهشته، أكد:

«كأنني قابلتها اليوم وجهاً لوجه».

«من هي؟».

تنبه إلى حماقة تأكيده، فاستدرك:

«تخيلت للحظات أنني رأيت المرحومة».

لم يكن في روايته لحدث اليوم أمر غير عادي، حتى في انطلاء الشبه عليه، المستغرب نقمته على الموظفة المحجبة، وإصراره على تحميلها المسؤولية.

«يستحيل أن تشبهها!!».

«لا تبالغ، لا ذنب للمسكينة».

ضميره لم يؤنبه، ولديه العذر، الفتاة التي أرسلها إلى القبو، موظفة بلا تجربة ولا خبرة ولا ثقافة، تحمل شهادة الثانوية العامة، وهي شهادة الحصول عليها يعتمد على الحفظ غيباً لا تشغيل الدماغ. فلتعتبر إرسالها إلى القبو فترة تدريب، يحتاج العمل فيه إلى خبرة منزلية متوفرة لديها، الترتيب والتوضيب والتصنيف ونفض الغبار. وإذا ضرب صفحاً عن هذا كله، فلا يمكنه التغاضي عن أنها متدينة تديناً تقليدياً يخلو من بذرة الشك اللماح.

عدا... أن الوفاء للراحلة لا يسمح باستمرار حالة تشابه تسيء إليها. ثم قطعاً للتخيلات والأوهام، استعمل صلاحياته الوظيفية كي لا يقع بصره عليها.

«لا تتكلم عن الوفاء، حتى أنت الذي تدعيه، خنت ذكراها مرات ومرات؟».

لوحت يدها مستنكرة، مع ابتسامة لم تخف العديد من الشواهد التي تثبت خيانته لزوجته، وإحداها معها هي بالذات.

كانت هيفاء على اطلاع واف على مغامرات صديقها العلماني العفيف، المحاضر السابق في الملتقى النسائي الفكري.

16

مغامرات العلماني

بدأ العلماني خياناته للراحلة بعد وفاتها ببضعة أسابيع، وتستر عليها باتباع أساليب صبيانية ساذجة. فغزواته التي تتم تحت جنح الظلام، اضطرته لدى ذهابه للقاء إحداهن إلى اللف والدوران بين الأزقة، متلطياً من الأنظار، ومتهرباً من تعهداته بالإخلاص. ومهما حاور نفسه وناورها، بغية تأجيل موعده أو إلغائه، يفلح في الوصول، ويعتذر عن تأخره بحجة المواصلات. لجأ إلى هذه الحيل المكشوفة حسب ادعائه احتراماً لذكرى زوجته، فلم يكن وقحاً.

ما الذي دفعه إلى عقد صلات حميمة مع النساء، افتقرت إلى الثبات؟ كان إحساسه بالتماوت العاطفي، وشعوره بأنه يتحول إلى شيء جاف أشبه بالمستحاثات، قد انعكس على قواه الجنسية، ففارقته الرغبة، وظن أنه أصيب بالعنة. جرب وتأكد من سلامته،

دون أن تزايله حالة التبلد. حصل على الارتياح الجنسي، ولم يحصل على ما ارتجاه من عاطفة. بعدها حركه حافز تعدى الفضول، إلى استراق متعة محفوفة بالإثم والذنب، متعة لم تُخلِصْ للذة، وإنما للعقاب والتنكيل بالنفس، كشفت له عالم المرأة، ولم يكن عالماً موحداً، كان متعدداً، وارتد عليه وبالاً. اكتشافاته لم تعن جديداً سوى إحباطه المرة تلو المرة، على نحو متنوع، والمآل نفسه.

ولماذا انحصرت مغامراته بالرباعي المرح؟ ببساطة لأنهن متوفرات؛ ولم يكن موفقاً، لم تعن العواطف بالنسبة إليهن، سوى أنها الجماع لا أكثر ولا أقل. ما سبب تعارضاً بينهما، كان ما يطلبه من الجنس أقل ومن العاطفة أكثر. وما يبتغينه، العكس تماماً.

اختلاف المعايير ووجهات النظر، كان سبب خذلانه، وليس قلة خبرة من تلقاه على أيديهن وفي أحضانهن، فقد أخذه عن نسوة متمردات، اجتهدن في إطلاقه من أسر الجنس الزوجي المنزلي، المحدود الأفق والأساليب، اعترافاً بفضل تعاليمه، وتسديداً لديونه عليهن، ألم يجتهد بتحريرهن من العيب والحرام، وشجعهن على وثبة، أحرزن فيها نجاحاً؟

كانت مؤهلاتهن ممتازة، قد تجاوزن سقف النضج المثالي، وفي المرحلة الشائكة منه، لم يتقدمن كثيراً في السن التي تتدهور فيها قدراتهن، ما اضطرهن إلى تكبد عناء إضافي تجاهه. حافظن على قدر معقول من الجمال، لم يكن من النوع الطبيعي الخالص، أسهمت فيه عمليات التجميل بنصيب واف، سواء بالإصلاحات الجزئية أو الترميم الخفيف. فسرنها بأنهن كلما كبرن أصبحن

أحلى وأحلى، فلم يقمن بتعديلات جذرية، العمر لا يتسع، عدا أنها مكلفة. لم ينقصهن الإغراء، غير أن سحره لم يكن كافياً ليقوده إلى الفراش؛ وسائلهن الأخرى كانت أجدى وأقدر.

كدسن تجاربهن بين اللازواج والزواج، ولم تكن مما يُعتد به، لكن بضع سوابق أعقبت تحررهن التاريخي، عوضت عن سنوات طويلة وعجاف من ماض بائد. احتفين بالجنس الخالي من العقد، مع إضافات شخصية، اختصصن بها العلماني الذي كان طفلاً غضاً في مجاهل الجسد السخي، ومنحنه كعرفان بالجميل، إحساساً بالأمومة، الراقي والخالي من الغش والمنفعة، وإن كان مصطنعاً.

لم تكن براعتهن في التعامل معه، إلا بحكم كون الأولى عازبة عن جدارة، والثانية أرملة بلا فجيعة، أما المطلقتان فعن مزاج برجوازي؛ اتخذن الجماع على أنه كسر لرهاب الوحدة مع رجل مهذب يخشى العزلة، مع أن للتهذيب سلبياته، لكن تتفوق عليها إيجابياته التي لا تنكر، في فصم العلاقة، متى أردن لا متى يشاء. وحتى تلك السلبيات، كالخفر الرجولي من أوضاع جنسية يأباها الذكور العوام المنتفخون بفحولتهم، تغلبن عليها، وانقاد صاغراً إليهن، وإلى ما خطر لهن من حذلقات شهوية، شُطرت أفانينها من غياهب الجنون اللذيذ. وإذ تستعاد تبدو كأنها نسلت نارها ونيرانها من جحيم الانحطاط الحيواني. كان مكر الجسد أقوى من أن يقاومه الحياء المتأصل، فلم يكتفين بالإشباع وإنما بالتخمة، كان أكثر من قضاء حاجة، ترفيه بلا حدود، لا يهم إن سبقته الألفة الطويلة أو القصيرة أو الاستلطاف القوي أو العابر. لكن يستحسن بعض الميل نحو الرجل المتوفر.

توافرت في العلماني ملامح شيقة، تفضلها المرأة عموماً، مظهره الخشن، أسلوب تودده اللطيف، دماثته، ثقافته المتنوعة، ذلاقة لسانه، حنكته الفكرية، وهي صفة لا تستدعي الحنكة الحياتية، فتعرضن للخديعة، عندما اشتبهت عليهن هذه بهذه. كان بتصرفاته المكبوتة والملجومة عن الفعل أنموذجاً للحرمان الجنسي والتعطش إلى المرأة. فكانت المبادرة من طرفهن خيرية مع إحساس بالواجب. ومن طرفه معرفية مع إحساس بالتقصير، لكن لم يتصورنه على الإطلاق أن يكون رغم حالته المتأخرة بهذا التصلب الزائد، فلم يتجاوب كما ينبغي، أو يتعلم كما أوحى لهن.

بدأت علاقاته مع صديقات المرحومة دون مبادرة من جانبه؛ تلميذاته النجيبات الناشطات في الملتقى الفكري، وقع اختيارهن عليه عن سابق تصور وتصميم، بعد أن حوّمن حوله سابقاً، ويحسن منه لاحقاً. خلال المحاضرات لشحن له مراراً عن استعدادهن للقيام بمغامرة رشيقة وسريعة لها صلة بالموضوع نفسه، العلمانية، مع خطوة إلى الأمام، تتجسد نتائجها عملياً بين طرفين راشدين. في ذلك الوقت، لم يخطر له أن يكون لمحاضراته النظرية هذا الوقع الجهنمي المنفلت من عقال الأفكار الرصينة، أو أنه أصبح شخصاً من الصنف الرجالي المرغوب فيه على نطاق نسائي متنوع، متقارب في العمر والنزوات. كان المناخ والمكان والزمان حسب اعتقاده لا يلائم تلك التطلعات، فالجو الثقافي السائد في الملتقى ينبذ النوايا الخيانية للسيدات التواقات إلى المعرفة. عدا خضوعه للمراقبة الشديدة من زوجة تعتبر الوفاء والعفة أمرين لا ينقسمان. كما لم يسمح له الوقت بحكم وظيفته بالغياب عن البيت إلا لسبب معلوم. لكن الموت سيسمح لهن بتعزيات كانت في منتهى الكرم.

في ذلك الظرف الأليم الذي أعقب وفاتها، أثبتن أنهن نِعْمَ الصديقات المخلصات، كنّ إلى جواره في السراء، واليوم معه في الضراء، فتحملن مسؤولياتهن تجاه الرجل الذي فقد زوجته عنوة، ومعها أصفاد الزوجية. بات حر الجسد، فأضاف إلى ملامحه العلمانية، جاذبيته كأرمل حزين. لم يتخلين عما رتبه موتها عليهن من التزامات تجاهه، برعاية كانت مضاعفة. فشهدت تلك الفترة عجقة عليه، من دعوة إلى عشاء أو سهرة في بيوتهن، أو في مكان خافت الإضاءة، أو يدعون أنفسهن إلى فنجان شاي أو قهوة في بيته.

انتهج لقاؤه معهن خطوات متدرجة ومتشابهة. بعد تبادل ذكرياتهما الرصينة عن الملتقى، وتنشيط أحزانهما المشتركة حول الصديقة الوفية والزوجة المتفانية (رحمها الله)، مع أن طلبهن الرحمة لها لم يكن مستساغاً من الناحية العلمانية، غير أن التعابير السائرة تبقى سائرة على الألسن وسارية المفعول في التعازي، ولا بديل عنها. ومثلها تمنياتهن له بالسلوان، وإجابته التلقائية بالبقاء على العهد مع المرحومة، دون أن يدرين عقب الخطوة الأولى، أنها ستشكل تضارباً فيما بينها، ما يعيق الخطوة التالية. فالتمنيات تنتهي بهما إلى الفراش، في حين تذهب تلقائيته المخلصة النوايا إلى ضروب من الجدل العبثي مع رجل لا يعرف أن البقاء على العهد كلمة تقال في المناسبات العاطفية القصوى، دون العمل بها، خاصة مع الأموات!! وبالعودة إلى السلوان، لم يدرك حتى في الفراش، أن العملية الجنسية هي السلوان بالذات، وتجري بطبيعتها هكذا، بين بالغين عاقلين، ينجذبان إليه مباشرة، أي إلى الجماع المسلي، دون عنعنات لا موجب لها.

اعتقد العلماني أن لدى شريكته العابرة القدرة على الحلول محل الراحلة المقيمة، ولو لزمن محدود، فاشترط الحنان والدفء، وطالب بهما كمقدمة رومانسية لازمة، أو كتمهيد يراوح عنده، لا يتقدم خطوة بعده إلا بشق الأنفس.

رومانسية كانت مضادة للواقعية الجسدية بشتى صنوفها، لا سيما وقد اعتقدت أنه من الممكن تفادي هذه الميوعة العاطفية، بتقبلها على الهامش، وعلى أن تكون جزءاً يضاف إلى الجماع، قد يسبقه قليلاً وليس كثيراً، على ألا يطول، فيؤدي بالطرف الثاني إلى التوتر، وألا يستغرق الطرف الأول الحنين أو افتعال التنهدات، ويمكن رفقاً بوضعه، ممارسة هذه المشاعر خلال الاحتدام الجنسي بتكتم وعلى حدة. وحسب مهارته، قد يتلازمان ويتمفصلان، أو ينفصلان، فيتقدم أحدهما على الآخر. وإذا كان لا بد من إعطاء الرومانسية حقها في التعبير دون قيود، فبالخيال، بتأجيلها إلى ما بعد، مع القهوة والسيجارة.

لا يعني هذا أن العلماني لم يبذل جهده في العملية الثنائية، وسواء شارك فيها بكليته أو بنصفه، لم يكن على مستوى الموقف الذي توقعنه وطال انتظارهن له. ورغم تظاهره بالانغماس في صميم مجريات الحدث الجنسي الممتع، كان عدم تركيزه يفضح تردده الجبان. اعتقدن من فرط حسن نواياهن، أنه عفيف، طاهر الذيل، بريء، خجول، بلا تجربة، وماذا أيضاً...؟! فساعدنه. من طرفه، أبدى تعاوناً مثيراً، خلع ملابسه الخارجية والداخلية وتجول عارياً، تمدد وتمرغ، نزل وطلع، شمشم ونخر، شهق وزفر ... ثم حرن وسكن!! لِمَ الوجل؟ تحايلٌ كان من أصول لعبة أتقنها لأنه اضطر إليها، ولم يكن قادراً على الاستمرار فيها بالحمية نفسها. فكان

بجامع، دون أن يتأكد بأنه بجامع، مع أن جميع الدلائل من الاعتلاء والانبطاح إلى الإيلاج والإنزال، تشير إلى أن الجماع حصل.

حسب زعمه، كان ينكحهن، وحسب زعمهن، كأنهن لم ينكحن.

الأسوأ أنه لم يشعر بهذا التفاوت بين الجماع وعدم الجماع، ولم يسع لتعويض ما ينقصه حسب رأيهن من إحساس ومعرفة ودراية وجرأة. مع أنهن أسبغن على الأرمل الجاحد عناية جسدية فائقة، وتحملن ضروباً من سذاجته المرهقة، والتخاذل غير المفهوم، لمفكر تخطى الأربعين، عميق في التنظير، وسطحي في الواقع، يتعامل مع النظريات ولا يفكر بتطبيقاتها على السرير. ومن دون ندم، طردنه من حياتهن.

ومع هذا كان محظوظاً، واحتفظ بعلاقة جيدة مع هيفاء، الصديقة الأقرب لزوجته، ولم تكن عضواً في الرباعي المرح. كانت من النوع المتأمل الساخر، طاحت بها السخرية إلى حد الاعتداد بالنفس، فأفرطت بالتأمل ورضيت به، بعجره وبجره، سترت عليه عيوبه، بداعي الشفقة بأنواعها المعنوية والعاطفية والجنسية. كان مثل زوجها السابق يرغب في المجامعة، لكن بشكلها البسيط، وأساليبها غير المعقدة، مصحوبة بالكثير من اللغو وأحياناً الدموع. ما المشكلة، ما دام لكل رجل طريقة؟ وعدها أنه سيكون صديقاً دون إشكالات، فتقبلته وإن شكل عبئاً عليها أخذته على عاتقها للسبب إياه، تعهدها للراحلة بأن ترعاه في غيابها، وكأنها ستعود يوماً ما وتحاسبها. مع أن زوجته قصدت مواساته لا مشاركته الفراش، لكن للضرورة أحكاماً لم تخطر لها، فالمواساة تستلزم

التقارب والتلاصق لا التباعد والتنافر، ما اضطرهما إلى الاضطجاع على الصوفا عدة مرات، ثم لضيق المكان ذهبا إلى الفراش، وفوق الفراش أصيبت هيفاء بالخيبة، ولامت نفسها على خطيئة ارتكبتها دون مقابل مجز. وندمت مرتين على الوعد وحنثها به.

مع الأيام، تجاوزت إحباطها، واعتادت على الأرمل العلماني بإشكاليته المتعبة، وأصبح صديقاً حميماً أحسن منه عشيقاً مرضياً، لا يخلو من بعض المزايا، لم يكن يسأل أو يتدخل في ما لا يعنيه، ليست له طلبات خاصة، يساعدها في تحضير المائدة، يكتفي بالقليل من أي شيء، وجوده أشبه بعدم وجوده. زياراته تُشعرها مثلما تُشعره بالراحة وتمنحهما فسحة للتفكير والتهويم، فيغرقان في هذه المتعة لدقائق أو ساعات.

كانت سيئاته القليلة جيدة كحسناته الكثيرة، لم يكن ثقيل الظل في الجنس، بل خفيفاً، سرعان ما يبدأ وسرعان ما ينتهي. لم تؤنبه على تعجله، رغم أنه كان أحياناً يتركها في بداية مشوارها، ما أتاح لها فرصة اكتشاف شيء يخصها ولم تكن تعرفه عن نفسها، أن احتضان الرجل للمرأة، أو توسدها صدره، أو إراحة رأسها على ركبته، وإغماض العينين خلال عناق طويل، أروح للنفس من المضاجعة وأمتع. كانت بحاجة هي أيضاً إلى الحنان، وفي غنى عما هو غير قادر عليه. ما جعل علاقتهما نموذجية.

بل وأصبحت تشتاق إليه عندما يغيب. اعتاد أن يزورها مرتين في الأسبوع، يجلس صامتاً وعلى وجهه تعبير روحاني لطيف، كمن ألقى عن ظهره أثقال الدنيا المادية على عتبة بابها قبل أن يدخل. يدعها تتكلم، وكان لديها الكثير من الكلام. يصغي إليها شارداً عنها؛ مجرد إحساسها أنه يستمع إليها، مهما كان كنه هذا

الاستماع أو اللاستماع، يشفي جروحاً تتجدد من يوم لآخر في زمن كان مجدباً ويسير نحو لا أفق. حتى اعتقدت أن هذا الرجل خلق لها، والأفضل ألا يدري، حتى لا يحرمها هذه المتعة، أو يحملها المزيد من المشاق. وأحياناً يخطر لها أنها لم تستمزجه إلا لأنه قليل الكلام وقليل الحركة.

وبرأيه، أنّ ما جعل علاقتها به أكثر من نموذجية، عدم اتساق شخصيته، كانت غير محبوكة الأطراف، ثمة جانب منها فالت، لا يمكن التحكم به، ولا تحديد إلى أين يمكن أن يتسرب، ولا بأي شكل متطرف يتمظهر. كان التناقض الذي يحف بشخصيته، يُشكل الأمان الخفي لهذا التشتت الذي يرتع فيه ولا يعاني منه، يتبدى في الأخطاء التي يرتكبها عن غير قصد، وفي الميلان نحو نوازع هو ضدها، وربما كانت تلك النوازع هي حقيقته. لم يضبط تصرفاته إلى ما ينسجم مع أفكاره، كان انحرافه عنها يجري تحت وهم الحفاظ على عدم الانتقاص من شخصيته، التي تبدو حتى بالنسبة إليه غامضة، لم يحاول الكشف عنها. لذلك وجد لديها الانسجام الذي افتقده مع الأخريات، وحرية البوح بأكثر الأفكار سخافة، وبأشد التهيؤات غرابة دون أن يخشى انتقاداً، أو استهجاناً.

كانا من أجيال متقاربة، جمعتهما في فترات سابقة، قبل أن يتعرف إليها، هموم مشتركة، قومية ووحدوية ووطنية واشتراكية. أما اليوم فتجمع بينهما العلمانية، وإن كانت هيفاء من هذه الناحية، أكثر تساهلاً منه في أمور الشعوذة والخرافات، لم تتخلّ عن هوايتها في قراءة الفنجان، كانت تجد في داخله إشارات وبشارات، وقد تسير على هداها. من ناحية أخرى، كانت أكثر علمانية منه، لم تعتقد

يوماً بعودة أحد من الموت، أو تصدق أن عاقلاً يأمل بمثل هذه المعجزة. فلم تصدق تلك المجاملة العاطفية لزوجته التي يعيد صياغتها كل سنة. أما خشيته من أن تضبطه زوجته في موقف مشين، فمجرد إحساس بالخجل. كانت متأكدة، أنها لو عادت، سيرتمي بين أحضانها، ولن يكف عن الاعتذار والبكاء.

□□□

«ما الذي تقولينه؟».

«أقول، حتى للعلمانيين أوهامهم!».

لم يتوقع أن يكون تعليقها بهذا الاستخفاف. مع أنها بعد قليل ستتلهى بقراءة فنجانها وفنجانه، وتلقي بتوقعاتها مازحة لكنها جادة، وبلا ريب سوف تتنبأ له بيوم عاصف بعد أن اتهمته بارتكاب جرم حقير بنقل الفتاة المحجبة إلى القبو.

«حدقي إلى الفنجان جيداً، سوف ترين أنني لن أعود ثانية إلى هنا».

خرج غاضباً وشهقته بضحكة من قلبها.

17

حسين المريد والحارس والتلميذ

كيف نسي أمراً ينبغي ألا ينساه فعلاً؟!

كان من الأفضل عوضاً عن حرده وما تشدق به، تحذير هيفاء ألا تأتي لعنده أو تتصل به، حرصاً على حياتها وسمعتها. لم يعد مستهدفاً من الإرهابيين الأصوليين فقط، بل ومشبوهاً من فرع مكافحة الإرهاب أيضاً. لا يريد أذيتها، سيضعونها على القائمتين، بالإضافة إلى الفضيحة، قد يقتلونه في فراشها، ولن يوفروها من الذبح، إذا عرفوا بعلاقتهما غير الشرعية.

شعر بالضيق، حياته تقيدت، الخبير النابغة لم يكن على مستوى نبوغه، ولم تخطر له فكرة ذكية واحدة يحافظ بها على حياته، تذاكى بطرح تلميحات مريبة وأسئلة لا داعي لها، ونصحه بالتوقف عن محاضراته، وقد ينصحه فيما بعد، بالاختفاء تماماً، وعدم ممارسة أي نشاط وظيفي أو اجتماعي.

فكر بإلغاء محاضرته التي يحل موعدها غداً. غير أن الفكرة كانت جبانة، ربما لم يقصد المعتدي بضربه سوى تأديبه، على ماذا؟! لم يستبعد قيام زوج مخدوع من رواسب فترة مغامراته النسائية الطائشة، علم متأخراً بما وقع خلف ظهره، فتصرف بما تمليه عليه أحقاده الزوجية، فانتقم حسب زعمه لشرفه المهدور.

لكن في هذه الأيام، الشرف ليس مسوغاً قوياً للضرب والقتل، ما دام الأزواج لا يغارون على زوجاتهم، يعتقدون أنهن غير صالحات للخيانة بدوافع غرامية، ليس لمناعة عهود الإخلاص القديمة، بل لأن الغرام لم يعد يحرك مشاعرهن، توقهن أكبر إلى افتعال المشاجرات، والتصرفات الكيدية، تنفيساً عن تشنجاتهن العصبية. إلا إذا كان الزوج عاشقاً، مثلما كان هو مهووساً بزوجته. عندئذ، لن يكتفي بصفع غريمه صفعتين، بل سيرفسه بقدميه، ويدوس على رأسه، هذا إن لم يقتله شر قتلة.

أما إذا كان ما تعرض له عملية إرهابية، تحمل رسالة تحذيرية، فالأسوأ حدث.

لن يحاول أن يكون بطلاً، أو يبتدع بطولات. احتياطاً، سيعتمد على نفسه ويتباحث مع صديقه حسين حول ما ينبغي اتخاذه من إجراءات أمنية خلال المحاضرة. اتصل به وتواعدا على اللقاء بعد الظهر، الساعة الرابعة في حديقة السبكي.

لم يكن حسين صديقاً بالمعنى المتعارف عليه. كان واحداً من تابعيه الأوفياء، بمعنى أن التكافؤ بينهما معدوم، فلا ندية ولا سواسية. وإذا كان فاتح هو الأستاذ، فحسين هو التلميذ. وكلمة

صداقة الدالة على التآلف والرفاقية، لا تفيها حقها، فالألفة السائدة بينهما، ألفة منقوصة غير صافية، من جراء خضوع الثاني للأول. أما الرفاقية، فلم تكن أكثر من مرافقة الأستاذ إلى المراكز الثقافية لضرورات تنظيم الندوات، من ترتيب للكراسي، واختبار صلاحية عمل الميكروفونات، وإحلال للهدوء، وسيطرة على الشغب، والتصدي لكل من تسول له نفسه الاعتداء على المحاضر.

كان احترام حسين للأستاذ كاملاً، بينما لم يُكِنَّ الأستاذ لتلميذه الحجم نفسه من الاحترام، وإنما أقل، وإن كان وبشكل خاص يعتز به، كواحد من مريديه الكثيرين، الأقرب إليه. اكتسب هذه المنحة لإخلاصه له وإيمانه بمقولاته حتى دون أن يستوعبها.

مذ التحق به، كان حسين على ثقة بأنه اختار الحقيقة نفسها. فإذا كان الأستاذ على حق، فهو على حق، ويمكنه السير وراءه مغمض العينين، كان الهادي إلى الصواب. وبما أن الأستاذ يعمل دون هوادة على نشر الحقيقة، ويتحرش بأعدائها وينال منهم، بات وكأنه مكلف بالذود عنه وعن أفكاره. فاستبسل في حمايته، واضطر إلى استعمال يديه وأحياناً قدميه سواء في الدفاع أو الهجوم، إذا استدعى الأمر.

كان من مريديه الأشداء، وكأنه من سنن الطبيعة أن يكون التابع قوي المراس، طويلاً جسيماً مفتول العضلات. كان تميزه بهذه المواصفات فعالاً، خاصة مع قابليتها للانتقال إلى العمل فوراً بكامل كفاءتها القتالية. ومن المفارقة، أن إحدى صورها الأكثر جلاء، كانت خانعة، تتبدى عندما ينحني على الأستاذ وهو في طريقه لاعتلاء المنصة، ويهمس في أذنه بشيء ما. حينئذ يمثل

الرجل الطويل القامة الممتلئ الجسم والعريض الكتفين، وهو يتصاغر أمام رجل، يبدو بالمقارنة معه، قصير القامة وضيق الكتفين، أرفع تعبير عن مدى سطوة الفكر رغم ضعفه وهشاشته، على القوة رغم جبروتها وفتكها.

في الموعد الذي ضربه له في حديقة السبكي، اختص الأستاذ بدرسه شخص تلميذه الذي يحسن الإصغاء والتلقي، ولا يُشغّل عقله. وكان ملائماً بإلقائه في الهواء الطلق، بصوت منخفض، وكأنه يتحدث مع نفسه. شجعه تلميذه الوفي المتحفز على إرساله وسط أجواء أسبغ الأثير عليها لمسة شفافة من السكون مستمدة من صمت الطبيعة الملاصقة والمحيطة بهما. كانا في قلبها الأخضر، أي ما يدعى بأحضان الطبيعة، بغض النظر عن فقرها، اجتمعت فيها العناصر الأساسية التي لا يستغنى عنها من ورود وأزهار وأشواك وحشائش وخمائل وحصى ودروب متعرجة، ومقاعد خشبية مُقرْفصة طولانية وبركة مياه آسنة، وأربع بطات، مع عدد من الأشجار الشخينة والسامقة تبعثرت في الأرجاء الدانية والقصية، وامتدت إلى ما وراء سور الحديقة، بأشجار غير سامقة وأقل ثخانة، انتصبت على الرصيف، خلفها أبنية غير عالية من عدة طوابق من حجر، ليست واضحة للعيان، أشبه بسد باهت بلا معالم، فاقتصر مدُّ النظر على العناصر السابقة.

على الرغم من المنظر الطبيعي الثابت، انصرف الأستاذ إلى تأمل منظر متحرك آخر غير طبيعي يدور في قلب هذا المنظر الواسع، كان بشرياً، تمخترت فيه أسراب الصبايا الصغيرات متباهيات بأنوثتهن البازغة من تحت بلوزاتهن، لا يخفين ابتساماتهن من هذر الشبان اليافعين، ولا ضيقهن من شغب الأولاد المراهقين، ينصتن

دون خجل إلى همسات العشاق الجالسين بحياء على الكراسي يتبادلون الغرام بالنظرات أكثر من الكلمات، إلى جوارهم موظفون متقاعدون انحنت ظهورهم، لا يحولون بصرهم الكليل عن بقعة قصية من الحديقة لا يرونها، وآباء متذمرون، وأمهات انشغلن بلف السندويشات وإرسالها مع علب الكولا إلى أطفالهن المتشبثين بالمراجيح والزحيطات، مع تنبيهات حازمة، لا تراشق بالرمال ولا شتائم بذيئة.

جميعهم استغلّوا هذا اليوم المعتدل الحرارة من أيام الشتاء. يوم هارب من فصل محير لا هو بالصيف ولا بالخريف أو الربيع، أفسح تسامح الطقس بالرغم من قرصة البرد الخفيفة، بتحقيق انفراج ترويحي عن النفس للجالسين واللاعبين والخاملين والراكضين على السواء، وبعضهم تمتع بالنوم والتنزه في الأحلام.

فحسدهم في سره.

عندما تلقى حسين اتصال الأستاذ الهاتفي تعجب، حديقة السبكي!! لماذا يروق له مواعدته في الحدائق مثل المشردين، والجلوس في زاوية منعزلة؟ ارتياد الحدائق يقلل من مهابته الفكرية. لا ينبغي أن يكون بمتناول الأبصار، في مكان مفتوح لمن هب ودب. بعد حادثة الاعتداء عليه، الحديقة ستجعله مكشوفاً في العراء... بمتناول الأيدي. وفي هذا خطر كبير لا يؤمن منه على حياته.

تبنّى حسين التفسير الإرهابي للحادثة. من سيعمد إلى إيذاء الأستاذ غير الرجعيين الأصوليين؟ لا أعداء له سواهم، نضاله الفكري مشهود به ضدهم، لم يوفرهم على الدوام من انتقاداته

الشديدة وسخرياته الأشد. وعلى هذا الحرص واجب.

لم يختر الأستاذ الحديقة اعتباطاً، ولا امتثالاً لمزاجه الميال إلى الأجواء الرحبة المساعدة على سرحان أفكاره في الفضاء ومنه يعرج نازلاً إلى الأشجار والخمائل، يسكن إليها، ما يمنحه حيوية، تسري في شرايين ذهنه. اليوم، لم تكن مسألة مزاج، بقدر الحاجة إلى دفقة من اللون المريح لروحه المرهقة. فقد كان في حالة انقباض، يعاني عسراً في التفكير.

لم يتمتع باللون الأخضر، ولم يفلح معه شم الهواء. كان منقاداً لحدس آخر طغى عليه، بأن هذا المنظر الجميل، لا حدود لروعته، ووجوده القريب منه فرصة قد لا تتكرر ثانية، وإذا تكررت فبعد زمن طويل؛ الظهور في مكان عام، بلا سقف ولا جدران.

بدأ الأستاذ بالكلام، ومن جملة ما قاله كاستهلال، أنه مهما بلغ المرء من رشد، وكان العقل وسيلته إلى المعرفة، قد تزل به العاطفة زلة لا يغتفرها لنفسه، ناجمة عن بقايا رخوة مترسبة من الماضي في داخله، زلة لا تستثني الناضجين عقلياً، ولا الذين قطعوا شوطاً لا بأس به في الحياة، ومعهم هؤلاء الذين يكادون أن يغادروها. نسبياً، لا تستمر تأثيراتها السلبية طويلاً. توقف الأستاذ، ما علاقة هذا بما يريد قوله؟! كانت الآنسة المحجبة قد برزت فجأة، وزجت به في سياق، لا صلة له بما يريد قوله.

ظن حسين أنه المقصود بهذا الكلام، والأستاذ يريد توجيهه نحو طريق خال من البقايا الرخوة المترسبة في أعماقه، لئلا يرتكب خطأ سببه مخلفات من الماضي. وهي حسب أسطواناته المعهودة، ترتد إلى حكايات الطفولة التي تحض على طاعة الوالدين العمياء

والامتثال لهما، وما ترسخ من دروس الديانة في المرحلة الابتدائية، وما يسمعه من عظات تخويفية يلقيها الدعاة في الراديو والتلفزيون، ولا تنتهي بخطابات المشايخ في المساجد يوم الجمعة. فوافقه، وظن أن الدرس الخصوصي انتهى.

لم يكن يود الأستاذ انتقاد مظاهر التدين، لكنها لازمة لا يستطيع تجنبها، يتطرق إليها بمناسبة ومن غير مناسبة. ثمة ظرف الآن لا يساعد على الالتزام بها، هناك تهديد لحياته، وإجراءات ينبغي مناقشة كيفية وضعها موضع التنفيذ.

التفت صوبه، وأحس بالحرج منه، حسين يحمل نحوه تقديراً، يُفقده الحرية في إطلاق مخاوفه. لا ينبغي أن تهتز صورته في عينيه، ولا مفر من التظاهر أمامه بالشجاعة، أو اللامبالاة.

«بالنسبة للمحاضرة غداً، وصلتني معلومة من مصدر أمني مطلع، تقول بأن جماعة من المشاغبين ينوون التسلل إلى القاعة. وقد نصحني المصدر بمراقبة الأشخاص الجدد».

عقب حسين بحماسة:

«نحن مستعدون لهم».

فنبهه فاتح:

«إنهم إرهابيون ومسلحون».

«ونحن مسلحون».

نبهه ثانية:

«أقصد، مسلحون بالمسدسات، وليس بالعصي والجنازير».

حتى الآن لم يقل ما يريد، بينما كان عليه أن يقول له مباشرة، إن ما سيحدث يتعدى المشاجرة وافتعال الفوضى إلى القضاء عليه.

«يريدون اغتيالي».

تعمد وصف العملية المستهدف بها بالاغتيال، وليس بجريمة نكراء. الفرق كبير، الجريمة تصيب أي شخص، سواء كانت قدراته متميزة أو غير متميزة، في حين يتناول الاغتيال الشخصيات السياسية المرموقة والمفكرين المناضلين حصراً. أحس بالارتياح بعد أن رفع مستوى العملية من جريمة شائعة، إلى إسكات صوت الحقيقة بالرصاص.

ولقد عبّر التحدي الذي بدا على وجهه عن صلابته، واعتياده على مواجهة الأخطار، وعدم اهتمامه بالموت الذي يترصده. حسين بادله بصلابة مماثلة، بالنسبة إليه لم تعد الإجراءات المطلوب اتخاذها أكثر من دعوة طال انتظارها للاشتباك المسلح مع الإرهابيين.

18

مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس

اتخذ مكانه فوق المنصة، وأجال بصره بين الحضور، لم ينظر إلى الصف الأمامي، كانوا كالمعتاد من معارفه ومؤيديه. شمل بنظراته الصفوف الخلفية، لم يلمح وجهاً غير مألوف، أو تسللت نظره حركة غريبة، أغلبهم من رواد المحاضرات الثقافية من الصحافيين ومحترفي الأدب والناشطين في جمعيات مدنية وطلاب الجامعة وبعض الفتيات والنساء... القاعة على غير المعتاد، تكاد أن تكون ممتلئة، ربما بسبب ما نشر عن الحادثة، وما دار حول شخصه من أقاويل.

وقف حسين عند المدخل، يتفحص الداخلين تارة، وتارة أخرى يعيد تفحص الجالسين، يعاونه عدة شبان من رفاقه اصطحبهم معه من حارته، ينتظرون إشارة منه كي ينقضوا على أي شخص غير مرغوب فيه. لم يلمح حسين ما يريبه مظهره أو ملامحه.

الأشخاص عاديون، حتى أن اثنين أو ثلاثة منهم أغفوا غفوة، ربما تبدأ المحاضرة.

عادة يقرأ فاتح محاضراته بتؤدة، واليوم بالتؤدة نفسها؛ بصوت خافت كأنه قادم من مكان بعيد، يتسلل منخفضاً، يعلو على مهل، قليلاً فقليلاً، يشتد، فيشد الأسماع إليه، وإذ يلمع، يأخذ طابع مارش عسكري، يصعد إلى الطبقات العليا، ويهبط فجأة إلى الطبقات الدنيا، يتناوب بينها حسب ضرورات التنبيه والإثارة. عندما يصل إلى فكرة هامة، ويرغب في التركيز عليها، يتريث، يأخذ نفساً، ينتصب برأسه ويقرأ من الذاكرة، ينتقل بعينيه في أنحاء القاعة محدقاً إليهم، يبغي أن يطبع ما يقوله في عقولهم؛ هذا ما يجب أن يعوه، وكأن المحاضرة لن تبلغ مراميها من دونه. ولا ينسى بين الفينة والفينة، أن يلقي بنظراته الثاقبة إليهم، ليطمئن على حسن متابعتهم، فيضبطهم مبهوري الأنفاس، مما يعطيه دفعة من الرضا ونفحة من الزهو؛ كما حاله وحالهم الآن.

«الله لم يخول أحداً الكلام عنه».

استنتاج سبقته تلميحات غير مهادنة نالت ممن يزعمون بأنهم يتكلمون نيابة عن الله والأنبياء والأمة والبشر. كان فرصة ليفضح أساليبهم في تأويل الغايات الربانية، لتحقيق مصالح دنيوية.

اختطف نظرة إلى الصف الأمامي، فبرز قبالته صديق المدرسة الذي زاره في المستشفى، جالساً يصغي إليه، بملامح طفولية واجمة، تدل على أنه لا يوافقه على كل حرف يتلفظ به، فأحس كمن ضبط بالجرم المشهود. لن يراعي وجوده، ما هو في سبيله، أمر يتجاوز الصداقة، صداقة قديمة، لا تعني الكثير بعد زمن تغير

فيه العالم، وتغير معه. لا شيء يجمع بينهما، وما أكثر ما يفرقهما.

لحظة، كانت كافية لتشويشه وتعطيله. كان قد قرر أن يرتجل سؤالاً مفحماً. ولكي لا يبقي الجمهور بانتظار ما لمّح إليه بفاصل من الصمت ثم أضاعه، انتقل دون تمهيد إلى الفقرة التالية، لم يقرأ من أوراقه، الفكرة الأساسية جاهزة في ذهنه، لا يكتمل التمهيد إليها إلا بالإشارة إلى المد الأصولي المطلوب التصدي له في العالم والمنطقة والبلد، وقد يكون على بعد خطوات من المركز الثقافي، وربما داخل هذه القاعة، حيث هو جالس يقرأ أمام جمهور صامت ومنصت.

لم يلتفّ حول الفكرة كما يروق له أحياناً، دخل في صلبها مباشرة. بعد قليل، شرد ببصره إلى الزاوية القصية من القاعة؛ استلفته شكلٌ بغوص ويطفو، متوتر غير واضح التقاطيع، يهتز فوق مقعد في الجانب الأيمن من الصف الأخير، أثار في داخله صورة لشيء يتحفز للقفز، أو يتهيأ للهرب... لم يستطع تحديد معالمه، إن كان لرجل أو امرأة. كانت الإضاءة هناك معطلة أو خافتة جداً. لم يسبب له قلقاً، ثمة ما هو أهم من شيء غارق في العتمة ولا معالم له.

اطمأن، الحضور منصاتون إليه، حان أوان طرح القضية التعليمية التربوية التي سيستند إليها في محاضرته؛ معركة القوانين المدرسية التي احتدمت في فرنسا القرن التاسع عشر:

... بعد حروب دينية دموية أغرقت البلاد بالمجازر زمناً طويلاً، قررت الجمهورية الفرنسية إنشاء مدرسة ابتدائية مجانية، مفتوحة للجميع. الهدف من تعميمها في أرجاء الجمهورية، أن يجلس

جنباً إلى جنب على مقعد واحد، أحفاد أولئك الذين أشعلوا الحرائق، وجرّوا بعضهم بعضاً إلى المقاصل والمشانق، وتقاتلوا في الشوارع وأمام المتاريس، أسالوا الدماء ودحرجوا الرؤوس وعلقوها في الساحات وبوابات الكنائس.

مدرسة لن يُعنى المعلمون فيها بمعرفة ما إذا كان آباء الطلبة هم كاثوليك أو بروتستانت، يهود أو مسلمون، عقلانيون أو ملاحدة، أو يؤمنون بكائن أسمى، ولا الإساءة إلى معتقداتهم. إنهم كلهم مهما كانت انتماءاتهم طلبة علم متساوون، يتلقون على المقاعد نفسها دون تمييز، احترام حرية التفكير والتسامح وحب القريب؛ هذا ما ينبغي أن تقوم عليه الأخوة المدرسية، وما سوف يهيئ للأخوة الكبرى للأمة.

عندئذٍ، باغت جمهوره بصوته العميق الذي لا يخلو من تمثيل مؤثر، وهي حركة يتقنها، إذ قفز إلى الطبقة الأعلى قليلاً، وقد تهدج صوته، لاح كأنه يلفهم بهجوم بدأ على حين غرة:

استقبل أنصار الفكر الحر مشروع المدرسة المفتوحة بحماسة، لكنه حورب بضراوة من قبل اليمين الذي أشعل معركة عنيفة، فالبابوات والأساقفة وأصحاب المذاهب ورجال السياسة والصحافيون الرجعيون، اتهموا الجمهورية بأنها تريد اقتلاع المسيحية من فرنسا. عدا ما سوف تلحقه بالوطن من كوارث اجتماعية، إذ «مدرسة بدون رب» ليست سوى مدرسة للجريمة والكفر، يتخرج منها عصابات من الأفاقين واللصوص والبغايا والخارجين على القانون. لن يعود الطلبة، شباب المستقبل، مدافعين عن الوطن، بل طاعوناً ووباء ولعنة على البلاد.

«وأعطى القساوسة لأنفسهم الحق بالتكلم باسم الله!!».

هذا ما أراد التأكيد عليه، استعان به كمقدمة تعني المسيحية وحدها، معركة مضى عليها الزمن، يُضرب بها المثل فقط، بعد قليل ستعني غيرها من الأديان. لم تخف على الحاضرين، لا سيما صديقه الذي اعتصرت وجهه الطفولي أمارات الحنق والتبرم. فتجاوز فاتح ما أراد قوله على أن يعود إليه، واستعاض عنه مؤقتاً بإشارة لا تعفي الدولة من التقصير:

«... لن يفيد كون حرية الفكر مادة أساسية في الدستور، إذا عزمنا فعلاً دون تراجع على تلقينها للصغار وتنشئتهم عليها من المدرسة الابتدائية، فسوف نحصد نتائجها الفعلية في المنزل والعمل والشارع».

أثارت استحسان أغلبية الجالسين. فعزم على التوغل قليلاً في الموضوع الشائك، ما ينطبق على المسيحية ينطبق على الإسلام، فرصة حان وقتها، الجمهور ينتظرها، ولم يكن غافلاً عما يمكن أن ينجم عنها من إثارة، وإن كان سيخفف من حدتها.

غير أن الشكل المتوتر الذي اتخذ مكانه في أقصى القاعة، ارتد ليستأثر باهتمامه، فهو لم يكف عن التأرجح، ويغيظه بساجة ووقاحة، فوجد نفسه يتوه عن الفرصة والفكرة. وختم القسم الأول من المحاضرة بسؤال:

«هل أعطى الله سره لأحد؟!».

أحس بنفسه مضطرباً، لم يفعل سوى أنه حاص حول الفكرة نفسها، بسؤال سيبقى دون جواب، إن لم يتقدم تلك الخطوة التي

ستير بلا ريب نقمة من ستصلهم غداً، إن لم يكن اليوم ليلاً.

فاجأه أن اضطرابه أثر في بصره، تبين له أن الشكل المتوتر لم يكن متوتراً، ولا يتأرجح أو يتحرك بمنة ولا يسرة، وإنما نظره هو الذي يهتز. لم يستطع كتمان انزعاجه الذي تفاقم مما كان يتراءى له وحده، الشكل رابض هناك لا يتزحزح من مكانه ولا عن مرمى عينيه، فحول بصره عنه، وجهد مستعجلاً ما يريد قوله، وكان يفضل أن يكون تلميحاً، لكنه جاء صريحاً.

.. ثمة محاولات لا تفتر لإعادة المجتمع إلى الوراء، محاولات تجري على قدم وساق سراً وجهراً، حلقات من الأخوات الداعيات الإسلاميات، ينتشرن في البيوت والمساجد والمدارس، يعملن بالعلن على هداية بنات جنسهن، أما خفية، فلا يُعلم على ماذا؟!

تلكأ قليلاً عن المتابعة، لاحظ أن المتواري في العتمة، قد تصلب نصفه الأعلى، واشرأبت هامته، ولمعت في داخله فجوتان، المفترض أن تكونا عينين لهذا الشكل. كانتا رغم بريقهما عميقتين ومظلمتين.

... تنظيم في حقيقته سري، يقتصر على النساء، بحجة أنهن لا يحبذن الاختلاط. اقتحمن معاقل المرأة في بيتها وشاركنها في تربية أولادها، وتسللن إلى غرفة نومها، وتطفلن على أدق خصوصياتها.

كان الشكل الآخذ بالتشكل ثانية، في عتمة لم تعد كثيفة، ينحو إلى أن يكون رجلاً، لا امرأة، متخندقاً إلى جوار الحائط، يعكر الترابط بين أفكاره ويشتت انتباهه بارتعاشات وارتجافات. هل ما

زال بصره يهتز، فارتعش في عينيه الرجل وارتجف؟!

... داعيات اعتمدن لباساً موحداً: المعطف الكحلي، والمنديل الكحلي، الجوارب السميكة، والحذاء الأسود من دون كعب. الوجه دونما تبرج، لا حمرة لا بودرة ولا تشذيب حواجب.. هل نحن إزاء أخوية، أعضاؤها يتعرف بعضهم إلى بعض بواسطة اللباس، أشبه بماسونية محلية، لا يعدمن إشارات ومواثيق ومخططات سرية!!

لم يعد واثقاً مما يراه. وكأنه يرشقه بشعاع مظلم، صادر من عينيه المثبتين عليه، أشبه بأنه يتوعده، كان يتحسس صدره، ثم يدس يده داخل... ما الذي يلبسه؟ سترة... جاكيت؟ ويُخرج شيئاً يلمع، خنجر معقوف، أم مسدس كاتم للصوت!! توفزت أعصابه من هذا التهديد السافر، لا لن يتراجع أو يتردد، سيُدي صلاة أكبر:

...أليس في هذا عبودية للمرأة، بحجبها مرتين، الأولى في بيتها والثانية خلف الحجاب؟ يقولون إنهم يعلمون الأطفال الأخلاق الحسنة والصدق، والأمانة، والأدب، واحترام الوالدين. في الواقع يعلمونهم الخضوع والانصياع والتقليد.

وإذ وقف الشكل أصبح رجلاً تام الخلقة، برأس ورقبة وجذع ويدين وقدمين؛ تطاول كي يكون مرئياً، ثم استرخى قاعداً بعد أن استوى واقفاً. لعله الرجل الذي هاجمه على الدرج، وفرَّ هارباً!! لا، لن تبلغ به الجرأة الظهور في مكان عام، إذا لم يكن مخططاً، فهو أحد الشبان المتدينين المتعصبين، يبغي تخويفه ملوحاً بالسلاح. تعثرت الكلمات في فمه، ومع هذا رفع ونبرة صوته المرتعش.

... ويقوم التفقه لديهم على الاستهانة بالعقل والمنطق، والإيمان الأعمى بالخرافات، وتقديس الكتب الصفراء والماضي والسلف الصالح والطالح...

غير أن المفاجأة دهمته من الصف الأمامي، عندما نهض رفيق المدرسة من مقعده، محدثاً جلبة خفيفة، وغادر القاعة احتجاجاً وهو يهز رأسه. أعاده منظره بلحظة واحدة، بضعة عقود إلى الوراء، ولم يكن لأحد سواه أن يدرك ما كانت تعنيه ملامحه الآن، كانت تنطق بالجملة التي يحلو له تكرارها: أنا أعرف الكثير. ما أراد التعبير عنه وبالضبط، هو توجيه اللوم إليه على تنطعه لموضوع يجهله. تماسك وتابع بهدوء ورباطة جأش. كان صديقه قد ترك في نفسه أثراً مقبضاً.

ارتد ببصره إلى الرجل في مؤخرة القاعة. مد يده، ودون أن ينتبه أحد، سحب بخفة ورقة أمامه وكتب عليها بضع كلمات. التفت إلى حسين الواقف خلفه، على بعد خطوات، وأشار له، فجلب له كأس ماء، وبسرعة خاطفة، حصل التبادل بين الورقة والماء، وتابع الكلام بصوت بات أكثر قوة وحدة:

... أما فقههم الأكثر باطنية، فلن ندركه إلا عندما نُواجَه في يوم غير بعيد، بالأحزمة الناسفة والانتحاريات المزهوات والقاتلات اليائسات، والمجنونات كارهات الحياة.

وكردٍّ عليه، أرسل الرجل إليه بحركة، دلالتها لا تخطئ، عندما دس يده ثانية داخل جاكته، وأخرج شيئاً. فاستطرد حانقاً:

هذا هو المجتمع الذي يريدونه ويعملون على بنائه، مجتمع تتقاتل فئاته، ومحجوبة أجناسه وأديانه ومذاهبه وطوائفه بعضها عن بعض.

توجه حسين نحو الرجل وبرفقته اثنان من الرجال، اقتربوا منه وشكلوا حاجزاً مواجهته. سيتبادلون معه بضع كلمات، ثم يفتشونه، وينتزعون منه سلاحه بالقوة لو حاول مقاومتهم. استعاد هدوءه، بعد أن شتت الرجل انتباهه وأفكاره وانحرف به عن الموضوع والهدف منه، واسترجع سياق المحاضرة، قبل أن يفقد الرابط بين ما قاله وما سيقوله.

... كما علينا ألا ننسى تجربة في التعليم المختلط أثبتت نجاحها في سورية، ينبغي أن تعمل الدولة على انتشارها، بتعميمها على جميع مدارس القطر، إذ لا معنى لأن يكون للمدارس جنس، مدارس للإناث ومدارس للذكور!! مثلما لا معنى لأن يكون للمدارس دين!!

سرعان ما رأى حسين مع رجاله يفضون حصارهم بهدوء!! فاستغرب ليس لأنهم لم ينقضّوا على الرجل، أو يجرّوه من مقعده إلى خارج القاعة، بل لأن حسين انحنى له باحترام قبل أن ينسحب من أمامه، وكأنه يعتذر منه!! فعلا بصوته، والغضب يغلي على ملامحه:

من هنا، من هذا المكان، ننادي بكل وضوح، بمدرسة حرة، مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس.

وأدهشه النداء الذي ارتجله، جاء عفو اللحظة!!

□□□

اختصر الأستاذ فاتح المناقشات بعد انتهاء المحاضرة، وتفادى الأسئلة المطروحة، وسارع إلى النزول من المنصة، اندس بين

زحام الحاضرين، وهو يتمتم معتذراً بمشاغله ويؤجل إجاباته إلى اللقاء القادم. التفت صوب مكان الرجل فلم يجد له أثراً، لكنه رأى حسين يتقدم نحوه، وينتحي به.

«كدنا أن نعلق معه، من حسن الحظ أنني عرفته!».

«من كان؟».

«الخبير الذي حقق معك في المستشفى».

التفت فرأى سليم يتقدم نحوه مبتسماً.

19

تعقيب على المحاضرة

أبدى سليم إعجابه بالمحاضرة، كانت حاذقة وشجاعة.

«لكن مفككة قليلاً».

ولم يتوقف بعدها عن إيراد ملاحظاته عليها؛ المقدمة كانت طويلة، لم تراع التسلسل، الفكرة لا تقود إلى الفكرة التي تليها، تحتاج إلى بعض السلاسة، والكثير من التأني والقليل من الحماسة.... مع ذلك كانت موفقة.

«لقد انتزعتَ عن جدارة تصفيق الحضور».

غض فاتح النظر عن انتقاداته، كانت في محلها، لم يقل له بأنه سبب ما أصاب المحاضرة من خلل وتعثر، والأهم غياب الثقل الجدلي، حتى أصبحت تصلح للتهييج، أكثر منها دعوة إلى

التفكير. لكنه أفصح عما شوشه خلالها:

«ما الذي كنت تخرجه من جيبك؟».

«قلم، أردت تسجيل بعض الأفكار، لكنني لم ألحق».

«ولوحت لي بيدك».

«كي تخفف من حماستك».

خرجا من المركز الثقافي، يتمشيان على الرصيف، لاح في نهايته الجسر المؤدي إلى الجامعة. لم يرافقهما حسين، ما دام الأستاذ برفقة رجل الأمن فهو بأمان. الجو صاف والقمر طالع، لا ينذران بأعداء ولا أشرار، حركة الناس في الشارع، لا يعيقها تزاحم مرور السيارات. الرصيف يمور بالشبان والصبايا سافرات ومتحجبات يتمشين معاً ومتفرقات، المنديل والمعطف جنباً إلى جنب مع الزنود والصدور العارية والسرر المكشوفة. هرج ملون بأضواء الإعلانات وواجهات المحلات المضيئة على الرصيف المقابل.

أحس بالإحباط والتوتر، المشهد الشبابي وإن كان مختلطاً، ينفي الدعوة التي رفعها قبل قليل. ماذا لو كان يختلق حرباً لا مبرر لها؟! تذكر صديقه ذا الوجه الطفولي، فتوتر ثانية، لام نفسه، لم يراع مشاعره المرهفة، ما الذي جاء به اليوم، هل ليعيده إلى طفولة بريئة، تسكن إلى الدين وخالية من النزاع؟ ما أجمله من زمن، لكنه ذهب إلى غير ما عودة.

دعاه إلى كافتيريا قريبة، فاعتذر سليم بأنه لا يظهر في هذا النوع من الأمكنة العامة لأسباب أمنية؛ عمله لا يسمح له أن يكون معروفاً. فاقترح فاتح الجلوس في حديقة ساحة المدفع، وكانا قد اقتربا منها، جذبه إليها الاخضرار الغامق المتطاول من خلف

السور، المشرئب بكل عنفوان، موحياً بليل بطيء الحركة، يختلف عن الليل سريع الحركة في الشارع. قد يتيح له البرد الخفيف المنعش، تبريد روحه الهائجة، وإراحة أعصابه المتوفزة.

وافق سليم، لكنه تردد قليلاً، كانت الحدائق رغم رحابتها واتصالها بالفضاء وتماسها المباشر مع الطبيعة، جحراً مواتياً للجواسيس، يضربون فيها مواعيدهم ويتبادلون الحقائب والأسرار. مكان من الصعوبة ضبطه، فلا أجهزة تنصت ولا مراقبة عن كثب، وإن كانت تؤمن الرصد الجيد من بعيد، والتسديد نحو الهدف تماماً دون خسائر بشرية جانبية، مع إمكانية الهرب السريع. وعلى الرغم من مساوئه، يتميز عن الكافتيريات بالهدوء والهواء النقي، فلا ضجيج ولا دخان، أو موسيقى صاخبة وأغانٍ هابطة.

لم تنكشف لهم الحديقة كلها. كانت جنباتها القصية ساقطة في العتمة، والرواد الظاهرون للعيان قلائل، بينما الآخرون تجنبوا الجلوس بمرمى من الأضواء العالية، وبانوا مثل خيالات، فلم تتوضح أشكالهم ولا ملامحهم، فيما إذا كانوا واقفين أو جالسين أو مستلقين على العشب بأوضاع لائقة، أو غير لائقة.

تقدما في الممشى المستقيم، واختارا مقعداً تحت عمود النور. جلس فاتح بكل اتزان، وتوجه بنظراته إلى خارج الحديقة وأعلى قليلاً، نحو النجوم. وأجال سليم بصره بين الظلال، لم يفته تماثيل الخمائل، وإطلالة المتوارين من بينها الذين تفحصوا القادمين الجدد، ثم تراجعوا برؤوسهم. كانوا في شغل عنهم.

بعد قليل، رمقه سليم بنظرات متشككة وغير ودودة. لم يكن

يخصه وحده بهذه النظرة، كان يستعين بها ليعبر عن استنكاره، الآن تعبر عن استهانته بالأصناف المفكرة، فهو لا يثق بهم، دونما تمييز بينهم، مع أنه كان يفكر مثلهم وأكثر، لكن الموضوعات مختلفة، والأهداف أكثر اختلافاً، أما الوسائل فمختلفة جداً، فبينما يعمدون إلى تحطيم الطمأنينة الداخلية للشعب، يعمل على إعادتها إليهم وبثها من جديد. ولم يكن بالأمر السهل.

خفض فاتح بصره، لم ينصرف إلى التأمل، اللون الأخضر لم يشجعه، لاح زيتياً كامداً. لكن وعلى الرغم من عدم تجاوب الطبيعة معه، أحس بالفخر إذ أنجز خطوة مهمة في هذه المحاضرة، كان النداء المرتجل الذي أطلقه عين الصواب، ويصح أن يكون شعاراً يُرفع ويتداول في وسائل الإعلام.

سليم فكر في الشعار نفسه، مدرسة حرة!! مدرسة بلا دين ولا جنس!! لماذا ينحو هذا الحريص على الحياة إلى أن يبدو مناضلاً انتحارياً؟! سواء كانت معركة أم لعبة، فهي تفوق قدراته، قد يحقق بعض النجاح، ويحصد بعضاً من الشهرة، بينما يقع على الآخرين، وهو منهم، إطفاء ما ينجم عنها من حرائق. أما دفع الثمن، فعلى الشعب الغافل، مجازر وضحايا. وهو أمر لا يعترض عليه، وليس ضده، ما دام يصب في الصالح العام. إذا كان يعمل بهذا الهدف، فقد أصاب رغم أنه أخطأ.

«لقد بالغتَ باستفزازك مشاعر الناس العاديين».

«لم أقصد هذا، إلا إذا كان إيقاظ الإنسان في داخلهم يعني استفزازهم. ينبغي أن يعوا العالم بلا أكاذيب، أريد دفعهم إلى التفكير في خياراتهم بعيداً عن امتثالهم للدين والتقاليد ومفاهيم

المجتمع البالية».

يدفعهم إلى التفكير؟! خياراتهم معروفة؛ الله وجماعته على الأرض. هل الشجاعة التي أبداها تغطية جديدة أم تمويه إضافي لمآرب محض شخصية؟ أيهم هو، طالب الشهرة الوقح، أم المفكر قصير النظر، والمحرض الغبي؟

لم يعلق، خشي أن يعيده إلى تلك الدراما المتقلبة. تركه يتابع الكلام:

«الهدف هو التصالح بين العقل والدين، وهي عملية سيخسر الدين فيها مواقعه لحساب العقل. هذا على المدى الطويل. لكن حالياً ينبغي إيجاد صيغة للتفاهم معهم».

لم يرتح سليم لهذا التبدل السريع المائل نحو التراخي، على المنبر صعّد الأستاذ مواقفه بدعوة صارمة، وتصلب إلى حد التعنت. هل هذا ما يدعونه بنشوة المنابر؟ وهنا في الحديقة، بعد مرور أقل من نصف ساعة، تنكر لما أبداه من جرأة، وميعها بطرح آراء استسلامية، وتساهل إلى حد الانبطاح بالدعوة لتفاهم لا جدوى منه، لن يقبل به الطرف الآخر، هؤلاء لا يتراجعون خطوة واحدة.

«عملية لا بد منها، ستشكل تعاقداً جديداً بين الدولة والأمة».

«هؤلاء لا ينفع معهم إلا الحسم».

«لا بأس بالشدة، لكن مع الحوار».

«ثمة خيار واحد، أكثر فاعلية مما تلف وتدور من حوله، هناك إجراءات قاسية قد نقول عنها إنها إجرامية بحق، لكنها على

مستوى أعمالهم الإرهابية، أنا أحبذها، جُربت من قبل، ولا بديل لها».

وكانت الإجراءات المُجربة والمُحبذة بحاجة إلى توضيح.

«لنفترض أن إخبارية وصلتنا عن وجود خلية إرهابية في حي غاصّ بالسكان. ما الذي سيحدث؟! حسب اقتراحك، علينا السعي للتفاهم معهم، أي مناشدتهم بمكبرات الصوت بالاستسلام والخروج رافعي الأيدي. هم لن يقبلوا. إذاً فلنتفاوض معهم، وهي عملية طويلة وشاقة، ومساومة مهما حاولنا تسريعها، ستكون بطيئة جداً، لا تحسب بالأيام وإنما بالساعات والدقائق، مع الحرص الشديد على أنه ليس بوسعنا إغفال أنهم كالمعتاد قاموا باختطاف بعض الرهائن المدنيين، ويهددوننا بقتلهم، ويستغلون جهودنا لإنقاذهم، فنخضع لابتزازهم، تقوم الدنيا ولا تقعد، يحبس العالم أنفاسه، يؤيد ويشجب ويستنكر، ليس رأفة بنا ولا بهم. قد يعرض المساعدة، أو ينصح بالتحلي بالصبر، أو الضرب بيد من حديد. أخيراً كل ما سوف يفعله أنه سيحصي تنازلاتنا، ومن ثم قتلانا وقتلاهم... ما رأيك؟!».

لم يدل فاتح برأيه، لم يكن من هؤلاء، ولا يقبل أن يكون من أولئك. حافظ على صمته، مؤثراً إبقاء كلماته نظيفة من القتل والدم.

«سأقول لك، لو كان الأمر عائداً إليّ، فسوف أتفادى عملية مرهقة نتائجها معروفة، إلى عملية مختصرة وناجعة. لن أستعين بقوات خاصة مدربة على المداهمات والاقتحامات، سأطوق الحي بقوات كبيرة من الجيش، وأزرع الأرض المحيطة بالأسلاك

الشائكة والألغام، لن أستعطفهم، ولن أتبادل معهم إطلاق الرصاص، وإذا كان ثمة مفاوضات فمن أجل كسب الوقت، وإخلاء المكان من السكان. عندما أستكمل استعداداتي، سأبدأ على الفور بقصف الحي بالمدافع والدبابات، وإذا استدعى الأمر، بالطائرات، لا فرق إن كان عشوائياً أو ممنهجاً. لا تسألني عن الضحايا الأبرياء، أو غير الأبرياء. فلينقذ الله من يشاء منهم، هذا يقع على عاتقه وليس على عاتقي. أنا لن أوفر أحداً، من لم يقتل بفعل القصف، سيدفن تحت أنقاض الجحر المختبئ فيه، أو يقتل وهو يحاول الفرار، لن أقبل باستسلام أحد، لماذا؟! قل لي، هل تضمن عدم تحوله بلمح البصر إلى قنبلة بشرية؟ أحياناً ينجو بعضهم، لكن لوقت قصير، ليس لعرضهم على محكمة ميدانية، وإنما ربما يتم تجميع بضعة أشخاص ليعدموا معاً. وسأراعي ألا تخلف العملية جرحى ومشوهين أو مشردين. ولكي تختتم بشكل مثالي، البدء فوراً بتحويل الحي إلى صرح عبارة عن مقبرة جماعية، تُسوّى بالأرض، ويشاد فوقها شيء له علاقة بالحياة، سينما، مسرح، أو ملهى».

لم يتجرأ فاتح على فتح فمه بكلمة. كان يصغي إلى ما بدا أنه أنشودة رُتلت بجمالية قاسية، وسلكت طريقها إلى ليل بدأ يوغل في السواد. لم تنته الأنشودة، تابعت مجراها، وكأن لها مجرى في مسالك الرعب.

«سأحكي لك قصة عن حادثة حقيقية وقعت في مدينة لا بد أنك تعرفها، وقد تقع في أية مدينة أخرى. انطبعت في ذهن فتى في حوالي العاشرة من عمره، أبعدته المصادفة عن بيته في ذلك اليوم، كان يدرس عند صديق له في حارة مجاورة، فتأخر، لم تكن

الأحوال في المدينة آمنة، كانت تنذر بوقوع صدامات، خاف عليه أبوه، فأذن له بالبقاء لدى صديقه.

في الليل، أُطلق نفير الجهاد، أو الانتفاضة أو الثورة، أو الفتنة، سمها ما شئت. لعلعت النداءات من مكبرات الصوت في مآذن المساجد: اطردوا الكفرة، اقتلوا الملحدين. اقتحم المقاتلون مخافر الشرطة ونهبوا مخازن السلاح، وهاجموا منازل المسؤولين والقادة الحزبيين وأقربائهم ومعارفهم. خلال ليلة واحدة، قتل الإسلاميون كل من وقع بين أيديهم من الحزبيين، وبعضهم ذُبحوا في أسرتهم مع زوجاتهم وأطفالهم.

في الصباح حاول الفتى العودة إلى بيته، لم يتمكن، إطلاق النار لم يتوقف، لكنه شهد بأم عينيه عصابات المقاتلين يتجولون في الأزقة والشوارع، يهتفون الله أكبر، وهم يقيدون الجثث بالحبال ويربطونها بالسيارات والدواب، يجرونها على الأرض، يُمثلون بها ويبصقون عليها، ويعلقون ما تبقى منها على أعمدة الكهرباء.

بعد جهد، تمكن الفتى من التسلل إلى بيته المدمر، وجد أمه وأخوته مذبوحين، أما أبوه فقد أُتخم من الفراش بملابسه الداخلية، كان أحد الذين رآهم قبل قليل من بعيد يسحلون، عرفه فيما بعد من بقايا البيجامة التي كان يرتديها، اختلطت مُزقها بالتراب وامتزجت بالدم. لم يبق منه سوى عظمتي الساقين والترقوة والرسغين. عند الدفن، أضيف إليه في التابوت رأس مهشم بلا ملامح وبضع عظام؛ عدة أصابع وعمود فقري.

هونوا على الفتى مصيبته، وأعلموه بأنهم انتقموا لأبيه، وأن ما أصابه أصاب الفاعلين؛ السحل بالسحل وأزود.

عندما كبر، حرّم على نفسه زيارة قبر أبيه بعدما عرف بأن العظام قد انتزعت من هياكل أخرى، كانت لجثث مسحولة مجهولة الهوية، ترى لمن؟! هل كانت لهؤلاء الذين سحلوه ثم سُحلوا، أم للمسحولين من أمثاله؟ كانت للذين لم يطالب بهم أحد.

لم يشف غليله، هم انتقموا، أما هو فلم ينتقم».

الأضواء في العالي، حجزتها طبقة كثيفة من الغبار الصلد، يسرح فيها الهوام، وما تحتها يسبح في سواد حالك، لا يترك للضوء منفذاً، الأخضر الزيتي أصبح قاتماً، وأسبغ لوناً دامياً على الأرض والحشائش والأشجار والخمائل والمقاعد والرجال والنساء والعشاق والنجوم والقمر في السماء.

«ألا تريد معرفة من كان هذا الفتى؟».

فاتح لم يرغب في أن يعرف.

«إنه أنا».

نهض، وتمشى على مقربة منه. وسرعان ما ارتد إليه قائلاً:

«أخال أن رسالتي وصلت إليك».

رد فاتح بحصافة مهوناً عليه:

«كانت مصيبة وطن بأكمله».

لم يجلس، غادره وتركه وحيداً في ظلام، أخذ يشتد في ليل تفحم.

20

اشبه باختطاف

هل كان سليم مكلفاً بإبلاغه رسالة من الدولة، اتخذت طابعاً شخصياً مفجعاً؟ حسناً لقد أجابه عنها بعمومية وطنية تُرضي رؤساءه. أم هي رسالة بوح ذاتي، عبّر عنها بمونولوج مأساوي سرد فيه فصلاً من طفولة ضُرّجت بالدماء وشوهت بأشلاء الجثث؟ المؤلم أن المحاضرة والليل أثارا مواجعه، وأطلقا ما اعتمل في داخله من حقد على الذين ذبحوا عائلته ومثلوا بأبيه. أكثر من عشرين عاماً لم تفلح في محو هذه الجريمة النكراء، لا على نحو مماثل؛ السحل بالسحل، أو بالتسامح والنسيان.

غير أن الهدف من الرسالة، لم يتطابق مع ما تهيأ له.

بعد الظهر من اليوم التالي، وكان نازلاً من بيته ليستقل سيارة تاكسي من الشارع، اعترضه رجلان خرجا من سيارة واقفة على الرصيف، وطلبا منه مرافقتهما. رفض الصعود قبل أن يعرف إلى

أين سيذهبان به. قال الأول وهو يضع يده على كتفه، بأنهما غير مخولين بالإجابة عن أي سؤال. توقع لو امتنع، أنه سيجره إلى السيارة رغماً عنه، ما دام الثاني تحفز لمهاجمته. فدخل صاغراً وجلس في المقعد الخلفي. وبينما جلس الأول إلى جواره، اتخذ الثاني مكانه وراء المقود.

بعد أن انتزع من الشارع، أدرك أنه سيقاد إلى مكان مجهول، ليعاني عدة أيام من حالة اختطاف سخيفة ومضجرة، فالرجلان حسب هيئتهما لم يكونا من الأصوليين، لا لحى وخناجر، ولا مسدسات وقنابل. كما أنهما حسبما لاحظ، لم يسميا بالرحمن ولم يتوكلا على الله عندما انطلقت بهم السيارة. لو كانا من رجال المخابرات، لأعلنا صفتهما حسب الأوامر الجديدة، أو لصفعه الأول ورفسه الثاني، حسب التقليد القديم. لكنهما أبديا لامبالاة طبيعية، ولم يجربا أي تمويه على العملية، أو يضرباه على أم رأسه ليغمى عليه، أو على الأقل لم تُعصب عيناه، كأنهما من هواة الإجرام. لا بد في نهاية المشوار، سيواجهان حماقة اختطافهم لموظف فدينه راتبه الشهري.

السيارة بعد أن اخترقت سوق المزة، تابعت طريقها إلى ساحة مستشفى المواساة. أحس بالقلق إلى أين سيمضيان به، إلى جبل المهاجرين؟! وتخيل مأواه، مغارة مظلمة وخفافيش وعناكب. لكنها تابعت صوب ساحة الجمارك، دارت حولها، ثم إلى ساحة الأمويين، فتبخر شعوره بالقلق، لو كان مختطفاً، لما اتجهت السيارة إلى وسط المدينة، لترضخ مرغمة للشرطة والإشارات الحمراء والاختناقات المرورية.

كان في حالة أشبه بالاختطاف، ستنجلي على خير، لكنه لم

يتوقع، بعد أن قطعت على مهل جسر الرئيس، واجتازت موقف فكتوريا في شارع بورسعيد، أن تنعطف إلى اليسار وتلف ساحة السبع بحرات، لتنهي رحلتها في شارع ٢٩ أيار عند مطعم أبو كمال. ثم أن يقوده الرجلان إلى داخل المطعم!!

صعد معهما إلى الطابق العلوي، وإذ وقع نظره على شخص يجلس وحيداً، خرج من شبه حالة اختطاف، إلى شبه حالة صدمة. كان الخبير سليم قد أنهى لتوه طعام غدائه. تجشأ بصوت مرتفع، على أثرها احتقنت ملامح وجهه.

بدا خبير اليوم المتجهم مختلفاً عن خبير البارحة الحزين. استقبله برسمية ولؤم، واعتذر عن مصافحته، لم يغسل يديه بعد. وطلب من النادل الشاي لشخصين. بينما عاد الرجلان إلى السيارة في الخارج.

لم يحتج على طريقة استدعائه المستهجنة. خمن أن هذا الأسلوب كان مقصوداً، ليشعره السيد الخبير بأنه ليس كما بدا له في الأمس مكسور الفؤاد، وإنما شخص آخر قوي الشكيمة، لديه من السلطة ما يمكّنه من جلبه إليه ساعة يشاء، وإلى أي مكان، ولو كان إلى مطعم، ليس مدعواً إلى الغداء، وإنما إلى كأس شاي فقط. الحركة التالية، أخذ الخبير دون لباقة ولا ذوق، ينكش أسنانه بعود خشبي صغير، ويتف بقايا الطعام بوقاحة لا مبرر لها سوى إفهامه بأنه يمثل جهة مباح لها تجاوز آداب المائدة، والاستخفاف بالناس.

علل الخبير، ولم يكن بحاجة إلى تعليل، أن تقلص عضلات وجهه كان من تشنج القولون. فبعد تناوله الباسماشكات، اشتهى

قرصاً من الكبة المشوية، لم يحرم نفسه منه، رغم أنه كان ثقيلاً على معدته. أخرج من جيبه ظرفي دواء، الأول خمائر تساعد على الهضم، والثاني مضاد للتشنج. ابتلع حبتين، ورمقه بنظرة حادة. فجابهه فاتح بعد تأكده بأنه لم يكن سبب آلامه، وسأله عن سبب استدعائه. فأجابه بقرف:

«لإجراء بعض التصحيحات».

«لو سألتني الحضور لكان أفضل».

«ثمة ما تطلب السرعة. أولاً، لئلا تُقرأ رسالتي البارحة على غير ما يُراد منها. ثانياً، التركيز على مضمونها بعيداً عن ذكرياتي المشحونة بالبغضاء، لا أرغب في أن تكون الضغينة فحواها الوحيد، فتحرفها عن غايتها».

رفع إصبعه نحوه متكاسلاً، وكان قد وصل إلى غايتها:

«بالنسبة إلى المتطرفين الإسلاميين، يجب عليك دون مراوغة، تحديد موقفك منهم بشكل قاطع، هل أنت مع المصالحة، أم الاستئصال؟».

قبل أن يجيب أو حتى يفكر بالإجابة، تابع السيد الخبير:

«لا مجال للعب على الحبلين. ولن يُسمح لك ولا لغيرك بزج الدولة في معركة تعود عليك بالشهرة، وعلى البلد بالقلاقل».

كانت الرسالة بعد التصحيح صارمة ومقلقة، عدا أنها مصحوبة بتهديد خفي. لم يعن بالإجابة عنه. من هو حتى يطالبه بتحديد موقفه... الدولة؟ ما هو إلا أحد العاملين في أجهزتها، حتى لو

كان خبيراً في الإرهاب، لا يجوز له الاطلاع على ما يجيش في داخله من أفكار، متعمداً الأسلوب نفسه، الإرهاب. البارحة تأثر لما أصابه في طفولته، أما اليوم فلن يغفر له تصرفه الطائش، فجيعته القديمة لا تبرر له إهانة الآخرين.

بكل هدوء أعصاب رد على اتهام غير لائق به، فهو ليس انتهازياً ليلعب على الحبلين، ويعرف الجميع بأنه كان ينأى بنفسه عن الأطراف جميعاً، فلم يتزلف للدولة أو يتقرب لجهة، تحت أي ظرف. عبر عن موقفه باختصار:

«أؤيد المصالحة، تحت مبدأ عدم استخدام السياسة تحت غطاء الدين. أما الاستئصال، فهو القتل والاجتثاث والإبادة، ولهذا أنا ...».

لاحظ ما ظهر من استكار على وجه الخبير. فاستدرك:

«بصراحة لست الآن في وارد اتخاذ قرار قاطع بشأنهما».

لم يقل له بأن الجدل سيفتح سجلات قديمة، كلاهما يعرفانها، ولا يستحسن إثارتها في مطعم تفوح فيه روائح السمن والدهن، وعلى مرمى البصر صحون الفاصولياء والباميا، والرز المفلفل... وجاطات الفواكه الريانة.

«المكان غير ملائم».

«من الضروري معرفة رأيك».

فحاول أن يكون متوازناً في إجابته:

«حالياً، لا أعتقد بإمكانية المصالحة، الأوضاع غير ناضجة، كما لا أحبذ نهائياً فكرة الاستقصال. وأي قرار يجزم بأحدهما، يحتاج إلى مراجعة جريئة، ومناقشات طويلة...».

قاطعه سليم محذراً:

«انتبه، هذه خطوط حمراء، لا تُراجع ولا تُناقش».

فلجمه على التو، وأحس بالخطر، ربما مسَّ خطاً أحمر دون أن يدري. ما هو؟ ما هي حدوده؟ هل اقترب منه أم تجاوزه؟!

كانت لديه أكثر من تجربة مع الخطوط الحمراء، في تلك التنبيهات التي يتلقاها من فروع الأمن المختلفة، عن ملامسته لها، وكانت ترده تعقيباً على تناوله أحياناً للأحداث الجارية، لكي يتلاءم معها، وألا يسير عكسها. لم يكن يتمرد عليها، يتجاهلها فقط. كانت غير مقننة ولا مُجدولة، أو حتى مكتوبة، مجرد عناوين عريضة، تتنازع تحتها التكهنات مع الحقائق، ويتعرض من يخالفها إلى غضب السلطة.

«لن أناقشها، الأمر محسوم بالنسبة إلي، أنا لا أتدخل في سياسة الدولة».

«هذه ليست سياسة، ولا تعني الدولة فقط، إنها مصلحة الناس والبلد».

«عند اللزوم، لن أتنصل من واجباتي».

هو أيضاً، وضع له حداً، ما دام سيقوم بواجباته.

«عليك أن تثبت حسن نواياك دونما لف أو دوران، ومن غير تحايلات فكرية، وإلا اضطررنا إلى التعامل معك بأسلوب مختلف».

لم يفته أنه باختطافه السمج هذا أعطاه فكرة مبسطة عن الأسلوب المختلف.

«لا أظن الدولة ستحتاج إلى ذلك. في الماضي، لم أكن على اتفاق تام معها، ولا مستقلاً عنها. علاقتنا تعرضت للمد والجزر، كنت إلى جانبها تارة ومواجهتها تارة أخرى. وكانت الأمور جيدة هكذا».

«هذا المنوال لن يكون، لقد استغل البعض مواقف شبيهة لإطلاق آراء معادية للدولة، بدعوى حرية التعبير».

«أريدك أن تعرف أنني كمفكر علماني، وجدت نفسي غالباً واقفاً إلى جانبها أرد عنها سهام مفكري قرون الانحطاط الظلامية. وهذا ما جعلني محسوباً عليها من طرف، وغير محسوب عليها من طرف آخر. ولم يضرهم هذا الأمر. بالنسبة للمستقبل سأتحمل مسؤولياتي الفكرية، رغم عدم تطابق توجهاتنا تماماً».

«بوسعنا إيجاد صيغة نعمل بها معاً، نراعي فيها مصلحة البلد».

وافقه فاتح، مع أنه كان متيقناً من أن مصلحة البلد شيء غائم جداً، باستطاعة الخبير التلويح به لسحق أي خلاف مع الآخرين. لكن لا بد من تهدئة الموقف بينهما، الواضح أنه حتى لو كانا على وفاق كامل، فإن ما يريده فرع مكافحة الإرهاب، على تضاد مع علمانيته التي مهما رغت وأزبدت، لا تؤمن بالاستئصال.

نجح بتفادي الاصطدام معه، واتخذ الحديث منحى أقل تصلباً وأكثر انفتاحاً، الدواء المضاد للتشنج أدى مفعوله، فاسترخت أعصاب الخبير، وأخذ يكشف أوراقه. لم يكن اللقاء لتحذيره أو تنبيهه، كان بخصوص مفاوضات مع الجماعات الإسلامية، كانت جارية ثم توقفت، وقد تُستأنف قريباً.

«مفاوضات!! ما علاقتي بها؟!».

«المشاركة فيها بجهد وطني إيجابي».

أي أن يبذل جهده مستقبلاً، عندما يحين الوقت، بواسطة المقالات والمحاضرات بالتحذير من الثقة بالإسلاميين، باستعادة أفعالهم الإجرامية في العقود السابقة، طبعاً بأساليب متعددة غير مباشرة، سيتفقان على خطوطها العامة؛ الهدف منها دفع المفاوضات إلى الأمام أو إلى الخلف.

«حسبما يرتئي وفدنا المفاوض».

«سأتعاون مع الدولة ضد كل ما يهدد البلد».

كان تعهده مؤقتاً ريثما ينتهي اجتماعه معه، ومن ثم يستفهم عن فحوى المفاوضات التي برزت فجأة على أنها محور التطورات الأخيرة، وأن هناك إجراءات معلقة عليها، ومطلوب منه المساهمة فيها. لم يكن على جهل تام بها، فهي لم تكن سرية للغاية، وحسب علمه لم تتوقف كي تستأنف، الكثيرون نظروا إليها على أنها أقرب إلى الشائعة منها إلى الحقيقة. كانت لديه معلومات ترجح أنها أكثر من شائعة، والدولة لم تحدد بعد غايتها النهائية منها. حالياً وكما يبدو، تهدف وبشكل مرحلي إلى استغلال

الإسلاميين بالتدريج عن طريق إرساء مصالحة معهم. ولن تتورع عن الانقلاب عليهم إذا لم تسر الأمور كما ترغب.

مؤقتاً، لن يأخذ بتعليمات مبنية على تقديرات، تبدو شخصية، ولن يندفع مع الخبير في أي اتجاه، ويزاود على الدولة ويتعنت في أمر خاضع لتوقيت لا يحدده سواها. إذا كان لدى الخبير معطيات يعمل بموجبها، فهو بحكم إدارته لمركز المعلومات يستطيع الحصول عليها نفسها بسهولة، ويتفوق عليه، بالمقدرة على تحليلها وتوقع المراد منها. لذلك من الغباء أن ينشبث السيد الخبير بما يعتقده صواباً، ويملي عليه ما يفعله، لمجرد أن نبوغه يعزز اجتهاداته الدموية.

تابع الاستماع إليه على مضض، غير أن الخبير غير الحديث وأخذ يمتدح ما يقدمه المطعم من وجبات تحتوي على تشكيلة كبيرة من الطبيخ المنزلي.

«تعجز أي ست بيت عن منافستها».

والأوجاع المرافقة لكل صنف. ثم وكأن بخارَ ما أتخم به معدته ضرب وتراً في رأسه، أقعده عن التركيز، وجعله يتثاءب، حتى أن الملاحظة التي أنهى بها حديثه، بدت خارجة من شطط البخار وكثافته. ومع هذا لفتت انتباهه:

«من حسن حظك أن جرائد اليوم لم تنشر شيئاً عن محاضرتك».

وبشيء أشبه بالحدس، لم يستطع إلا أن يربط بين هذه الملاحظة العابرة، والرسالة شديدة اللهجة، والتعاون القادم!!

21

الصديق يتظاهر بانه ياكل

ومع أنه انشغل بما سمعه، وهو يغادر المطعم برفقة الخبير؛ لم يحجب عنه وجه رجل لم تبن ملامحه، لمحه جالساً، رأسه غاطس في زبدية سلطة الخضار، تميزه من مؤخرة رأسه، ثم من خصلة شعره الشائب قليلاً، فتصور على الفور ملامحه الطفولية.

عند الرصيف، عرض عليه السيد الخبير أن يوصله إلى بيته. اعتذر منه بأنه سيغتنم فرصة وجوده على مقربة من شارع الصالحية ليزور صديقاً. وارتد راجعاً إلى المطعم.

«ما هذه المصادفة؟!».

قالها متعجباً لصديقه الذي كان قبل قليل يتظاهر بأنه يأكل، لا بد أنه رآه وتجاهله، لا يلومه على ذلك، ما زال غير راض عن المحاضرة، وما سمعه فيها من آراء أطارت صوابه، فاحتج عليها، بإعلان حرده.

«لا، ليست مصادفة».

تعقَّبَ صديقه، بأن اللقاء متعمد من جهته. لم يكن يكذب، ملامحه الطفولية تؤكد صدقه!! فقد حصل على عنوانه، وقصد زيارته في بيته، ليقول له رأيه في ما أعلنه من أفكار طائشة. في الطلعة المؤدية إلى بنايته، رآه مع رجلين منفرين مظهرهما يدعو للريبة، اقتاداه إلى سيارة، فلحق بهم إلى المطعم. اضطر أن يطلب وجبة طعام، ويتباطأ في تناولها، لكي يطمئن عليه.

«لم أشعر بالراحة إلا عندما لاحظت بأن حديثك الذي احتد معه، قد عاد إلى مجراه الطبيعي».

أكبر فاتح في صديقه خوفه عليه، وعزم، ما دام الأمر بينهما، أن يصلح ما أفسدته المحاضرة ويعتذر عما أبداه من آراء سواء كانت طائشة أو فاسدة أو متحررة. الصداقة الآن هي الأهم، لو تمكن من الفصل بينها وبين آرائه، لحافظت صداقتهما على براءتها القديمة خالية من الدين والعلم معاً.

صديقه لم يكن مستعجلاً على الاعتذار، ولا تصفية الحساب بينهما، كان اهتمامه منصباً على أمر آخر. اقترب بكرسيه منه قائلاً:

«ما جعلني غير مطمئن، هو معرفتي بما كان يدور حديثكما حوله».

فأطلق فاتح ضحكة عالية:

«لا تكهن، أنا نفسي لم أتوقعه».

رد عليه صديقه بابتسامته المعهودة، وقال بثقة:

«أنا أعرف الكثير».

فاستعاد فاتح شخصية صديقه عندما كان طفلاً عليماً في المدرسة الابتدائية، لا يباريه أحد بما في جعبته من أسرار طريفة. وكانت لا تزيد على معرفته بمعالم اندثرت أو مجهولة لرفاقه الصبيان، كسوق الخيل والزيت والعونطة... وخانات كخان الجمرك والبطيخ والزعفرجية، ونهر قويق... ومطرح ما ضيع القرد ابنه!! هذا كان في الماضي. أما اليوم ففي ما يدعيه، امتحان لن ينجح فيه:

«ما الذي تعرفه؟».

«ما يجري من اتصالات بين الدولة والإسلاميين».

لم يسقط في الامتحان، ولم تدهشه معرفته، المفاوضات السرية غير سرية. فتظاهر بأن الخبر عادي:

«حبذا لو تثمر مصالحة».

«لكن الدولة تتصرف كأن الحرب لم تتوقف».

كان صديقه على حق، رغم الهدنة الطويلة، التي قاربت عقوداً ثلاثة، ما زال الكثيرون منهم في السجون، والفارون ملاحقون وممنوعون من العودة، ومن ينكشف انتسابه إلى جماعة إسلامية مشبوهة يتعرض للمحاكمة، وقد تصل عقوبته إلى الإعدام. وافقه:

«هذا ما يجعلها شائكة».

«ولا يبدي الطرفان مرونة».

«لا أتوقع خيراً منها، ما دام الإسلاميون يرفعون شعارات: الإسلام دين ودولة، والإسلام هو الحل، والسلطة تصر على إبقاء الدين تحت الرقابة وداخل جدران المسجد، لا يتخطاه إلى خارجه. بصراحة لا حل في الأفق».

كانت معلوماتهما عنها متقاربة وآراؤهما حولها غير متوافقة تماماً. كان ما يجعل المفاوضات عسيرة، أن من يديرها حلقة ضيقة جداً لا تتعدى بضعة مسؤولين أمنيين، ينظرون إليها من الناحية الأمنية فقط، ويتحفظون حيالها، إن لم يكونوا ضدها، دون أن يُطلعوا عليها أحداً، تبدأ وتنتهي وتتوقف في الكواليس، وإذا ظهرت فلكي تُنفى جملة وتفصيلاً.

علق فاتح قائلاً:

«حال المفاوضات هذه أفضل من سابقاتها، على الأقل لم تفشل بعد، ورغم تعثرها تحقق بعض التقدم».

«الدولة تبغي شق صفوفهم، بحصر نشاطهم ضمن إطار لا يتعدونه، الاقتصار على العبادات، وممارسة سياسة دون فقه وشريعة. يعدون لهم مشروع اتفاق سيعقد مع بعض قادتهم وليس كلهم».

«هل أنت متأكد أن الاتصالات تجري مع بعضهم؟!».

«نعم، وعلى أن يتقيد كل من يريد العودة إلى البلد، بأنموذج آمن، مشلول الفعل والرأي».

«وما أدراك؟!».

«من يعرف الدولة لا يجهل كيف تفكر وتعمل».

ربما كان على صلة بالطرف الآخر، أو ... ووجد نفسه يسأله:

«هل أنت منهم؟».

«لا، وإنما أعرف بعض الأشياء عما يجري».

«أنت تعرف الكثير».

قالها صاغراً، ومعترفاً بينه وبين نفسه بأن ما يعرفه صديقه كان أكثر من الكثير.

خرجا من المطعم، طالعتهما الأضواء على الرصيف المقابل ورياح باردة. أحكم فاتح اللفحة حول عنقه، بينما زرّر صديقه معطفه ورفع ياقته. فكر قبل أن يصافحه مودعاً أن يعتذر له عن المحاضرة، لكن صديقه سبقه:

«يا أخي، تُخرج الله من المدرسة كي تُدخل الفحشاء إليها!!».

فوجئ بهجومه الحاد، فلم يسكت:

«يا صديقي، الإيمان ليس علماً ليتعلمه الأولاد في المدرسة، إنه شعور وإحساس وتسليم في داخل النفس».

«الدين يهدي البشر إلى الأخلاق ويحميهم من الفساد. ما الذي يضايقكم في الدعوة إلى تهذيب النفس، والحث على الخير، والتعاون على البر والتقوى، وأداء الأمانة، وتحريم الظلم ورد المظالم...؟».

«نريد أن يبقى الدين ديناً والسياسة سياسة».

«وما يضيركم في النهي عن المنكرات، أو يؤذيكم في ستر العورات؟».

«الفضائل والأخلاق لا تعزى إلى الله وحده».

«وهل تعزى إلى البشر؟».

«مثلما يسعى الإنسان إلى الشر، يسعى إلى الخير. والمعتقدات، جميع المعتقدات، ينبغي إيقافها عند باب المدرسة، وعدم السماح لها بالدخول. قد يكره الطالب زميله لأنه يحمل معتقداً مختلفاً».

«جعلتم الوطن بلا رب، واليوم جاء دور المدرسة!!».

«لا تستغرب، الكون كله بلا رب».

«تريدون قتل الله؟».

«بل نريد ألا يدفعنا إلى التقاتل».

«هل تدركون ما تفعلونه، إنكم تنتزعون الله من ضمائر الناس».

«هذا عالم بلا إله».

كان من العبث أن يقول له بأن خالق الكون لم يخلق الكون ومن العبث الخضوع له، إذ لا سلطة فوق سلطة البشر، ومن يدعون إلى سلطة الله المطلقة، فلكي يجيّروها لأنفسهم.

«الله فكرة، ليست حكراً عليكم وحدكم».

احتقنت ملامحة الطفولية، ورمقه بنظرة آسفة، راثياً له، وهو يكاد أن يبكي. فتح فمه يريد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقله. أدار ظهره إليه، ومضى في الشارع.

22

العلماني يتخيل

خطرت لفاتح عدة أفكار، كانت متناقضة، ليست حول الله، وإنما حول صديقه، زعزعت ما توصل إليه وحيّرته من جديد. ما الذي يمنع صديق الطفولة من أن يكون مرسال الجماعات الإسلامية المتشددة إليه، مثلما كان الخبير مبعوث الدولة، كلاهما أبلغاه بما يريدونه منه. لم يطمئن إلى هذه الفكرة من ناحية صديقه، وإن كان تداعي نقاشهما حول الله، امتحاناً سقط فيه، وبناء عليه، سيُصنف في خانة من لا يرجى هدايتهم ولا رجاء منهم. نقاش استدعته المحاضرة فقط، في الوقت الذي أراد صديقه تحذيره بحسن نية من عدم التورط مع الدولة. لكنه أفسد النصيحة والموقف.

راح يتمشى دونما هدف، الليل يهبط، والظلام ينتشر، المحلات تغلق أبوابها، لسعه البرد، وجد نفسه يتخذ طريقه تلقائياً إلى بيت هيفاء.

هيفاء لم تكن في البيت. الأنوار مطفأة في غرفة القعود المطلة على الشارع. وقف في العتمة، ينتظرها على الرصيف. لاحظ بضع شجيرات جرداء، تجاهلها سابقاً، فاستأنس بها، اهتمامه ينصب غالباً على مجموعات أكبر، أطول وأثخن من الأشجار، كانت أقدر على لفت نظره بظلالها الوارفة. استند إلى جذع واحدة منها، وراق له أن يعبر عن هذا الموقف الشجي بتعبير وجداني، بأنه تحس روحها الصامتة مثلما تحست مشاعره الشاحبة. أما لماذا بلغت مشاعره هذه الدرجة من الحساسية المؤلمة والمخفقة؟ فلأنه قبل قليل فقد صديقاً، بعد أن استرجعه من زمن كان الأنقى في حياته.

لمحها قادمة من المنعطف تحمل أكياساً منتفخة. سارع وأخذها عنها:

ولا مكان أذهب إليه».

أجابها عن سؤال لم تسأله إياه.

لم تخل عودته صاغراً من اعتذار، كان على النمط نفسه دائماً. يزعل ثم يعود وعلى ملامحه أمارات مشكلة تقلقه. هذه المرة، المشكلة عويصة، لم تطل غيبته أكثر من يومين، عادة تطول أسبوعاً وأسبوعين.

انبرى يساعدها بتفريغ الأكياس من الخضار والأغراض، وتحضير مائدة العشاء فيما كان يسرد عليها بإيجاز ما فاتها من أحداث اليومين الفائتين؛ المحاضرة، شعار المدرسة الحرة، الاختطاف أو ما يشبهه، الخبر النابغة، مطالبته بتحديد موقفه، خلافه مع صديقه ذي الوجه الطفولي حول عالم بلا إله.

لم يسكت، إلا بسبب ما أخذ يدور في رأسه حول الخطوط الحمراء ومحاضرات فكرية تدعو إلى الاستقصال لا المصالحة، كلها على صلة بمفاوضات حقيقية متكتم عليها تجري بين أجهزة الأمن والقيادات الإسلامية من خلال قنوات سرية.

«برأيك، ما الذي فلته حتى اعتبروه خطأ أحمر؟!».

«هذا أسلوبهم في الكلام».

أثارت المفاوضات استغرابها، حدث كبير بهذا الحجم، أضفى الحرارة على مساء بارد، وبث الحيوية في مشهد كبير، لم يكن على مقاس العلماني، فبدا فيه ضئيلاً، رغم ما اختص نفسه به من أهمية، لمجرد كونه تلقى تنبيهاً روتينياً.

لم يستطرد، الربط بينه وبين المفاوضات كان ملتوياً، لا يعتمد الخط المستقيم. من هو حتى تعقد الصلة بينهما؟! في حينها لم يتجرأ على مناقشة الخبير، لكن ما امتنع معه، لا مانع من إثارته مع هيفاء، بعد أن زوده صديقه بمعلومات إضافية عن مفاوضات مع بعض، وليس جميع القيادات الإسلامية بغية شق صفوفها. فأطلق لأفكاره العنان مخترقاً الخطوط الحمراء.

«إذا كان صحيحاً ما قيل عن تقارب في وجهات النظر بين الطرفين!! فالموقف الحالي برأيي، يملي عليهم عدم عرقلتها بدعوات مشاغبة، كالتي أطلقتُها في المحاضرة، قد يتخذها الإسلاميون حجة على أن الدولة تدفعهم نحو اختيارات صعبة لا طاقة لهم عليها».

لاحظ علامات الاستغراب على وجهها، ففسر لها:

«التلويح بمدرسة مختلطة وحظر دروس الديانة؛ لا يمكن السكوت عليه بالنسبة للإسلاميين، ومن شأنه إفشال المباحثات بينهما».

«لا تحشر نفسك بينهم».

لم يصغ إليها، تابع يقول:

«ولا يمكنهم الاعتراض عليها، إلا بانسحابهم من المفاوضات. إذا كانت الدولة تريد المصالحة فلا ينبغي إثارتها في هذا التوقيت. لكن...».

«لكن... ماذا؟».

«إذا كان الهدف هو الاستئصال، فالتصعيد مطلوب لإحراج الطرف الثاني، بدفعه إلى تنازلات غير قادر عليها، لو قبل بها، فسوف يخون رسالته».

وعلى هذا، آراؤه لا غبار عليها، ولا تتعارض مع مواقف الدولة، بل وأكثر واقعية منها.

«لستُ مخطئاً، أنا في المجال الآمن».

«لا تصطنع شيئاً من لا شيء، أنت لا تهمهم من قريب ولا من بعيد».

«الدولة تبغي توظيفي على هامش برنامجها التفاوضي، كي أقدم لهم مادة يختلفون عليها، سيسعون إلى تجنيدي، على أن أكون منسجماً معها خطوة بخطوة».

لم ترق لها مضاعفات أفكاره، بعد أن أضاف إليها قدراً عملياً لا

بأس به من الإثارة، وتخيل أنه سيلعب دوراً رئيساً في مفاوضات يكون سندهم فيها!! ترى إلى أي حد يجوز له أن يتخيل؟! قالت ساخرة:

«إذاً، اقعد بانتظار تعليماتهم».

«لا تتفاءلي، هذه المفاوضات كالتي سبقتها، ستصل إلى طريق مسدود».

«هذا مرهون بوصولهم إليه».

«على الدوام يصلون، فهم يسيرون على الطريق المسدود نفسه، لن تتوفر لهم صيغة يقنعون بها الإسلاميين، كما أن الإسلاميين، لن يجدوا مسوغاً ليقبلوا بها».

كانت النهاية التي أوصل نفسه إليها معقولة. وإذا كانت سايرته، فلكي يحس أنها استمعت إليه وشاركته الرأي.

«ما الذي ستفعله بأفكارك الجريئة؟».

«سأطرح غيرها أقل جرأة، وأكثر واقعية، لدي الكثير».

«أليس في هذا تراجع؟».

«لن أعمل لحسابهم».

أدركت أنها أخطأت بتحرشها به، لا ينبغي أن تستدرجه إلى أوهام النضال، يكفي. فاستدركت:

«لماذا لا تريح نفسك... وتأكل؟».

ظنت أنها وضعت نقطة النهاية الثانية. لكنه تابع التحليل وباشر بالطعام معاً:

«ليس حرصاً على حياتي، بل حرصاً على صدقتي. لن أطرح اليوم شيئاً أتنصل منه غداً. التهدئة الآن هي الأفضل».

صمت كأنه تذكر شيئاً، ثم قال:

«ولا تنسي أنهم حذروني مرتين، الأولى على الدرج والثانية في المطعم. لماذا المعاندة؟».

لم توافقه، الذي حذره في المرة الأولى ليس الذي حذره في المرة الثانية.

«تعرف، لا علاقة بينهما».

«لكنهما تهديدان».

كانت تساؤلاتها مثل اعتراضاتها لا تعني له الكثير، وليس بودها أن تشاركه ظنونه. وإذ التفتت إليه، راعتها حمامته.

«وأنا مستهدف منهما».

استهوته فكرة كونه مطلوباً من الجماعات الإسلامية، ومحاصراً من السلطة.

«وأوعزوا إلى الجرائد عدم نشر شيء عن محاضرتي، التعمية كانت مقصودة».

غير أن ما استفزه هو السيد الخبير الذي كان بلا شك وراء منع

النشر، بل وبلغت به الوقاحة اعتبار ما فعله من حسن حظه!!

كادت أن تضحك، ليس بسبب المنع، بل بسبب الحظ. هل هذا الرجل محظوظ؟!

نظرت إليه بحنان، هذا الغافل الذي لم يفتر عن التحليل والتأويل والتأليف، لو كان محظوظاً، لانتبه إلى أن بيت القصيد، فيما جرى وما سيجري، ربما في مكان آخر. ومهما كان فقد شغل بالها. فبينما أسكت ظنونه، أشعل ظنونها.

لم يكن هناك طريقة لإسكاته سوى أن تُشغِّل التلفزيون، وتجلس إلى جواره على الصوفا. تميل عليه، فيميل عليها. يسند رأسه إلى صدرها، تمسد شعره الكثيف، الشيب يسري فيه، تحزن عليه. رجل وحيد مريض بالتفكير.

رأته كما رأته دوماً، رجلاً بلا امرأة، مثلما هي امرأة بلا رجل.

23

الدعوة تأخذ مجراها

لا، لم يكن محظوظاً، الحظ الذي حالفه، تخلى عنه بعد أقل من أسبوع. إذا كان هذا ما يقصده الخبير بالحظ.

طالعه خبر المحاضرة بالبنط العريض على الصفحات الأولى للجرائد اليومية. واحتل المقال حولها، القسم الفكري من الصفحات الداخلية، العنوان كان الشعار نفسه: «مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس». تضمن تلخيصاً مركزاً لها، وإلى جانبه صورته على طول الصفحة، واقفاً على المنبر، مشرئباً برأسه، رافعاً قبضته، ومطلقاً لحنجرته العنان. يبدو فيها وكأنه واحد من المسؤولين الحزبيين قبل عقدين من الزمن، في اجتماع جماهيري حاشد، يهدد الإمبرياليين بالموت الزؤام.

بالنسبة إليه، الحظ أتحفه بضربة موفقة، مع أنه لا يؤمن به!!

لقد انتصر، خطة الخبير فشلت، لا سبيل لمصادرة الأفكار، ولا إلى محاصرتها، حقائق التغيير لا محالة، ستجد طريقها إلى العلن والبشر.

عضده المنظر الذي أطل عليه من نافذة مكتبه، كان على مستوى المفاجأة، بهيجاً مشرقاً وواعداً؛ الحديقة مشبعة بالأخضر... ومزهرة أيضاً؛ الأيام المشمسة السابقة عجلت بإنضاج باقة من النباتات، تناثرت ألوانها برشاقة هيمن عليها اللون الأخضر المنعش والأكثر بعثاً للأمل، منحه إحساساً بالسرور مضاعفاً.

اتصل بهيفاء وأعلمها بالاهتمام الذي لاقته محاضرته في الصحف المحلية. لقد سجل فوزاً، لا بد له فيه؛ فوزاً حقيقياً، ولكي لا يلتبس بالحظ الذي تأتي به المصادفات العمياء، وإن كان كثير الشبه به، قال ضاحكاً:

«أما بالنسبة إلينا نحن العلمانيين فيأتينا من الصحافة، السلطة الرابعة».

للوهلة الأولى، وتحت تأثير فرحته، اعتقدت هيفاء بفعل تحليلاته السابقة، أن تحولات في المفاوضات، استدعت إبراز المحاضرة، والتأكيد على مضمونها، لكنها استخفت بما خطر لها، مستحيل خلال أيام أن يبلغ التأليف هذا القدر من الإحكام، فيصوغ الواقع، مثلما جرى تخيله تماماً. فتتكشف على حين غرة، اتصالات كانت جارية منذ زمن، أضيفت إليها معركة ستدور على الورق، على أساسها ستجري مساومات وتنازلات، أو تراجعات وإخفاقات... قد تؤدي إلى عقد اتفاقات أو فسخها. كيف يحرز فاتح مكاناً في داخلها؟! أو من ينتبه إلى ما قيل في محاضرة لا

يستمع إليها سوى بضع عشرات من الناس؟!

لم تشجعه، ما يأتي من الصحافة مشبوه، سواء كان الحظ أو غيره. لا يمكن الاطمئنان إليه، ولا التعويل عليه. الأفضل كي لا يستثمر الصحافيون المحاضرة على نحو استفزازي، أن يتصل بمديري التحرير، ويؤكد عليهم عدم التوسع بالأفكار المطروحة، وألا تعرض على النقاش، أو إجراء استطلاع في الرأي حولها.

استنكر اقتراحها، وقال بثقة:

«إذا ساعدتني الظروف، فسأقود حملة تنوير حقيقية».

امتنعت عن نقل هواجسها إليه، ما تخوفت منه بشكل غامض قبل أيام، بدأ بالتحرك على السطح اليوم. فلم تشأ إحباطه، أو تعكير فرحته.

راودته الفكرة نفسها، لكن دون مخاوف، وأخبرها بما يتوقعه:

«سيضعونني في حسبانهم».

لن يدعهم يفاجئونه. عدا أن تجنيده لن يضيره، إذا لم يتناقض مع أفكاره، على ألا يكون مطية لهم. بوسعه خلال أيام معرفة توجهاتهم، من خلال موقفهم من دعوته العلمانية، في حال لم تخدمهم، فسوف يعملون على التعتيم عليها وتطويق تداعياتها، بعدم تداولها وتعميمها، مع توقي طرح مواضيع على غرارها، أو على صلة بها. وقد يبادرون كخطوة سريعة ومعاكسة، إلى إعطاء الأوامر بألا تتخطى حدود الدولة السياسية، بمنع المراسلين الصحافيين من نقل فحواها إلى صحفهم تحت طائلة المسؤولية.

لكنها تخطت الحدود!!

في اليوم التالي نشرت بعض الجرائد الصادرة في بيروت والخليج خبراً عن مفكر سوري جريء يدعو في اجتماع عام إلى فرض الاختلاط عنوة في المدارس، وحظر تدريس مادة الديانة!! جرى التعقيب على الخبر بتحليلات مقتضبة، أسفطت عن المفكر جرأته؛ دعوة تقف وراءها أجهزة الدولة الأمنية والحزبية والتعليمية، ولا يمكن لمفكر مهما كانت قيمته الأكاديمية، التورط بطرح مثل هذه الفكرة المثيرة للخلاف والجدل والغضب الشعبي، إلا بعد أخذ موافقتها، وهو إن لم يكن ناطقاً باسم الدولة، فمدفوش منها.

وعلى الرغم من شبهة التنسيق مع الدولة، أحس بالفخر. فهو لم يُنَسّق معها، ولم يتلق منها أية إشارة تأييد أو استحسان، ولا يستبعد أن تطلب منه الكف عن دعوته، لأنه لم يستمزج رأيها، فهي وحدها تختار التوقيت المناسب. لن ينصاع إليها، وإذا احتاج الأمر، فسيخوض معركته على جبهتين، ضد الدولة، وضد القوى الرجعية بمختلف أنواعها، خاصة الإرهابيين، على التأكيد لن يفلت منهم خبر كهذا.

ومع أنه مفكر واقعي، سرح به الخيال والنضال، إلى توقعات قمعية، تضييق وحصار، دون أن تتاح له معركة متكافئة تقتصر على صفحات الجرائد، وقد لا يحظى باستعمال القلم، سيرمونه في السجن أو بالرصاص، ما دام هو الطرف الأضعف والأعزل. لكن مع الوقت سيؤازره الكثيرون ويلتحقون به. كانت معنوياته عالية.

سرعان ما هوى به الخيال إلى الواقع، وكان راكداً وسخيفاً لم يبلغ أدنى درجات تخيلاته النضالية؛ لم تحرك الدولة ساكناً، لا إيجاباً ولا سلباً. وهي الدولة نفسها القادرة على معالجة هذه

الإشكالات بسحقها قبل أن تطل الفتنة برأسها، أو بالنفخ فيها حتى لا تبقي ولا تذر. بعد أيام دلّ صمتها على تواطؤها مع دعوته التي بدأت تتفاعل ببطء، وتحصد اهتماماً ضئيلاً، على صفحات الجرائد المحلية، وإن كان على حياء، في أكثر من مقال، حبذ الاختلاط بالتوسع فيه بخطوات تدريجية في مدارس القطر، والتخفيف من حصص مادة الديانة في المناهج الدراسية، أو جعلها اختيارية.

وكان الواقع مربكاً أيضاً، ففي غياب أي تفاهم أو عدم تفاهم مع الدولة، لا يستطيع تبين طريقه، فهبطت معنوياته واعتصم بالصمت. خشي أن يكونوا حانقين عليه، بعد أن رمى لهم بقضية ليس هذا وقتها!! من يدري كيف يفكرون في مثل هذه الأزمات، هذا إذا كانت هناك أزمة؟ لكنه حدس بأنهم لو كانوا غير راضين عنه، فلن يترددوا في إبلاغه. ومهما يكن، أحس بالحيرة، هل كان تصرفه ضد توجهات الدولة؟ لو كان ضدها فسوف يبدو وكأنه يلعب من وراء ظهرها.

وإذ تذكر الخبير الشاب أحس بالحرج، فعدا أنه الجزء الظاهر من الدولة، سيبدو كمن خدعه، وتحداه على الرغم من تحذيره له، قد يظن أنه خلف انتشار الخبر، بينما هو بريء من نشره. فاتصل به وأطلعه على الخبر المعمم، ونفى أية علاقة له بنشره في الداخل أو بانتشاره في الخارج، وما أعقبهما من ذيول طفيفة، وأكد له أنه لا يتنكر لدعوته، ويتحمل مسؤوليتها كاملة، وعلى استعداد للدفاع عنها. ما أدهشه أن الخبير قاطعه، ورد عليه بلامبالاة، ويبدو من واقع خبرته:

«لا تهتم».

فلم يهتم، الدولة نفسها غير مهتمة. وإذا اهتم بها المتدينون من جماعات إسلامية وغيرها، فهذا شأنهم، ومحصور في المساجد لن يتعداها، وقد يمتد إلى الصحف الخاصة على أساس الرأي والرأي الآخر. أما الإرهابيون، فلا مكان لهم، فهم لا يعتقدون بالرأي الآخر، ولن يدخلوا مجالاً هم غير قادرين عليه، قدرتهم على المناقشة السليمة معدومة، وثقافتهم الدينية ضعيفة. وإذا فكروا بالاقتصاص منه، فسوف يكشفون أنفسهم.

حذرته هيفاء:

«لا تنس أنك مستهدف».

فقال لها مصححاً:

«لو كنتُ مستهدفاً، لذبحت على الدرج».

«لم يكن هذا رأيك».

«الإرهابيون لا يقاتلون بثياب السهرة، إنهم أعداء للأناقة الغربية، لديهم أزياؤهم التقليدية التي لا يتخلون عنها، حتى لو كانوا هم وراء حادثة الدرج، فلم يزد إرهابهم على صدام بسيط، فرَّ رجلهم على أثرها هارباً».

ارتفعت معنوياته ثانية، هذه المرة على أرض الواقع، بعد أن استكشف ساحة المعركة؛ كانت شبه خالية، وشبه آمنة، يستطيع أن يخطر فيها بكل ثقة. غير أنه كان من جهة أخرى في ظلام؛ إذ لا أخبار عن المفاوضات!!

هذه الثقة لم تعمر أكثر من يومين. لم يتوقع على الإطلاق، أن يتفاعل الأخذ والرد في الصحف ويتوسع خلال فترة قصيرة من

الزمن ويحتل مساحات واسعة بعدما تداعى مفكرون من الدرجة الثانية وسياسيون من الدرجتين الثالثة والرابعة، ومنهم حزبيون قدماء يجددون قواهم الفكرية، وحزبيون جدد ينشدون مكاناً على صفحات الجرائد المحلية إلى مناقشة دعوة أصبحت قضية شائكة، سواء بأخذ جانبها أو بدحضها. ويعلم أن أغلبهم لا يكتبون إلا بأوامر وحسب التعليمات، لم تستفزهم من قبل مقالات أشد جرأة، ما دامت الأوامر إهمالها. بينما التعليمات الآن بشأنه، كما يبدو، التركيز عليه!! حاول استعادة زمام المبادرة، بإرسال رد يتضمن تصحيحاً لبعض ما لحق بدعوته من تشويه، جرى تجاهله. اتصل بهم، فادعوا بأنهم لم يتسلموه، أرسله ثانية، فأهمل.

عندئذ تذكر متأخراً، أن دعوته لم تلق استجابة إلا بعد إلقاء المحاضرة بنحو أسبوع، هناك من أثارها في هذا التوقيت بالذات، وأعد لها الاستقبال المناسب!!

قال لهيفاء، قبل أن تبته مخاوفها:

وأخشى أنها ليست فرصة، بل كمين.

24

الدعوة تتفاقم إلى حرب مواقع

كمين... وربما ما هو أشد وأدهى، توالت بوادره بسرعة؛ فالمناقشات انتقلت إلى المواقع الإلكترونية بأنواعها الفكرية الليبرالية والمحافظة، وامتدت إلى مواقع الترفيه والمنوعات، وهيمنت على غرف الدردشة. حصدت إقبالاً بالغاً، دون أن تغفل اسمه من التداول، استعيدت معها مواقفه القديمة غير المهادنة، وألصقت به، إعلاء لشأنه وتقديراً لأهميته، مشاغبات فكرية وطروحات صدامية.

سجالات سبقته بأشواط، وخلفته ورامها، حتى أحس بأن أيادي خفية، ترشح دعوته، ليس إلى معركة فكرية خالصة، تتسع لآراء مختلفة، وإنما إلى نداء هائل الوقع والتأثير، الهدف من ترويجه إطلاق حرب شاملة شارك فيها علمانيون موتورون، وعقلانيون متهورون، وأنصاف عقلانيين، ولا دينيون خبثاء، وإباحيون أوغاد، ومعهم حاقدون على العرب والإسلام. أسهموا بفتح جبهات، لا

تكتفي بإبعاد الدين عن المدرسة، وإنما باستبدال مادة الديانة بمادة التربية الجنسية تحديداً، ما استفز المواقع الإلكترونية الدينية، ففتحت صفحاتها لهجوم معاكس على الملاحدة السفلة أذناب الطواغيت أعداء الإسلام! استهل بقصف ثقيل، كان فاتح على رأس من أصابتهم قذائفه التكفيرية.

الحملة والحملة المضادة، فاقتا توقعاته، فاتصل بسليم ثانية، ليستطلع رأيه، وليبرئ ذمته تجاه حرب المواقع، وما تشهده من إقبال شديد على رفع لواء دعوة أسيء فهمها، واستغلت بحيث أصبحت الدعوة دعوات لا طاقة له على تحملها، فكيف بالدفاع عنها؟! فكان جواب الخبير حاضراً، من واقع خبرته الإلكترونية:

«لقد اعتدنا على هذه الصرعات الإعلامية، سرعان ما تأخذ حدها وتقف عندها».

«لكنهم تجاوزوا الحدود المعقولة، هدفي ألا تكون العلمانية عامل فرقة».

«لا تشغل بالك بهم».

«وأريد تصويب مواقفي فحسب».

«لا تتدخل حالياً، ألم تر أن العلمانيين العاقلين ترفعوا عنها».

والأنكى أنهم اعتبروها إحدى ألاعيبه.

إلى أي حد أخطأ التفسير؟! بون شاسع بين ما فكر فيه، وما تداعى عنه، وما بات يلوح في الأفق. فالدولة التي تراقب وتسمع وتسمح وتعاقب، لم ترسل أية إشارة. إلا إذا كان الخبير النابغة بصفته ممثلاً لها أبلغه بالخبر اليقين، وجلُّ ما نصحه به اقتصر

على منعه من الرد، وكأن ما يدور لا يدور في الفضاء الذي يملؤهما، ولم يمتد إلى الأرض التي يقف عليها كلاهما.

على الأغلب، لم يخطئ التفسير، وإنما أخطأ الرقم الذي اتصل به، لماذا يستشير خبيراً في الإرهاب، بينما المطلوب خبير في القضايا الاجتماعية والفكرية، هناك أقسام في الفروع الأمنية، أو فروع بحالها، تهتم بهذه الأمور، كان على صلة معقولة بهم، تسمح له بالاستفسار منهم عن قضايا هي من اختصاصهم.

اتصل بأحد معارفه هناك، فحوله إلى آخر، والآخر إلى آخر، حتى وصل إلى الأخير المختص بالإرهاب والفكر والدين والمجتمع. أصغى إليه ثم قال له بأن قضيته بكامل تفرعاتها وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة عائدة إلى الخبير سليم.

فأعاده من حيث بدأ، إلى النابغة، الذي لا يعطي قضيته وقتاً كافياً، كان غائباً عنها كلية، لم يساعده برأي أو فعل، طوال مدة تصاعدها المتسارع، وانهيال الانتقادات والاتهامات والتجريحات عليه، ولم يلتفت إلى معاناته. بل طلب منه البقاء مكتوف اليدين مكمم الفم، يمثل دور الحاضر الغائب دوماً؛ الحاضر بتقويله ما لم يقله، والغائب بوصفه المتهم المتواري. حتى أنه عندما طلب منه التدخل لدى الجرائد لكي تسمح له بنشر ردوده، رفض بحجة فوات وقتها، مع أن المعركة ما زالت مستعرة، تضرم نيرانها وتطلق شررها وحممها، كيفما توجهت.

بلغت أقصاها لدى المواقع الإلكترونية التي أخذت على عاتقها تأجيج قضيته بمتابعتها من يوم إلى يوم، بإبقائها تتصدر واجهاتها، وتسخينها كلما بردت. فكانت خبر الأسبوع الحالي، مثلما كانت

خبر الأسبوع السابق، والأغلب خبر الأسبوع القادم! إلى أن باتت: الخبر الأكثر قراءة... والأكثر طباعة... والأكثر حفظاً... والأكثر إرسالاً بالبريد الإلكتروني. والأسوأ... الأكثر إثارة للتعليقات.

تعليقات كانت بالعشرات وفي بعض المواقع تجاوزت المائة بعدة مئات، أغلبها سباب وشتائم تكفيرية:

(قبح الله وجهك أيها الزنديق. كيف تتجرأ على الدين الحنيف؟).

(أبشر يا فاجر، مأواك جهنم وبئس المصير).

(لعنة الله عليك، فاسق وتدعو للإلحاد، انتظر برهان ربك).

وعلى هذا المنوال من النعوت المكفرة، تنوعت في غرف الدردشة، وشملت النعوت البذيئة في مواقع أخرى، بسلسلة تبدأ بابن الشرموطة ولا تنتهي بأخي القحبة. القائمة الملعونة الفاحشة التي يأنف منها المتدينون ولا يستخدمونها في تنفيس غضبهم، وهي من الأنواع التي تجري على ألسنة العوام الجهلة، وبعض العلمانيين بمختلف تدرجاتهم العلمانية، العقلانية وغير العقلانية، فهم لا يراعون التهذيب في شؤونهم كافة، يعتبرونه من المجاملات الاجتماعية، والتحايلات البرجوازية، فيستعملون العبارات النابية عندما يضيقون بخصومهم وأولادهم وزوجاتهم وأنفسهم، ويتباسطون بها فيما بينهم على سبيل رفع الكلفة بين الأصدقاء. هل يعقل أن يؤازر العلمانيون المتدينين؟!

جلبت هيفاء انتباهه إلى مصدرها:

«لا تظلمهم، إنها من فبركة رجال المخابرات».

«لكنهم ليسوا علمانيين».

«وهل هم متدينون؟».

لم يفكر بالتعليق ولو باسم مستعار، الدفاع السليم يفقد حججه في معمعة أقل ما يقال فيها، إنها مستنقع اختلط فيه الحابل بالنابل.

مستنقع كان ضجيجاً مرعباً، يراد له ألا ينتهي، إلا بانفجار... وكل ما يجري فيه انحرف عن سياقه، الدعوة التي خرجت عن نطاقها، طريقة تناولها في الصحف، تسريبها إلى الخارج، اتخاذها حجماً مريباً في الفضاء الإلكتروني، عناوينها اللافتة والمثيرة، الإقبال الشديد... والدولة سادرة في نومها، والخبير سادر في لامبالاته!!

هاتفَ سليم، والتمس منه منبراً يرفع مستوى المعركة، ويخلص ما أصاب قضيته من إسفاف. منبراً رافياً، يفضح من خلاله مكيدة مشبوهة، وينفي دعوة باتت عرضة للتهويل والتجريص والتشهير. علق سليم بسخرية:

«كل هذا معاً».

«شتائمهم طالت العرض والشرف».

حذره سليم من اعتبار شتائم طريفة متداولة في الشارع على سبيل المزاح، وكأنها تمت للحقيقة بصلة.

«من سيصدق ما ينعتونك به، هل أنت قواد؟!».

ونصحه بعدم الرد:

«لا أظنك ساذجاً، نفيها يعني تأكيدها. بينما هي بمجملها لا تزيد عن فقاعة صابون ستتلاشى خلال أيام قليلة».

«هناك من يستفيد منها».

«هذه القضايا مرشحة لتموت في أرضها، إن لم تتهيأ لها التربة المناسبة».

غير أنها لم تمت، وكأن التربة المناسبة قد هُيئت، وابتُكر لها التوقيت المناسب، والأنصار المغرر بهم، وعملاء يرفعون درجة حرارتها، لا يدعونها تخمد للحظة واحدة!! بينما الأحمق الذي أشعل فتيلها، قد فلت منه زمامها.

بعدما استنفدوا مئات الشتائم مئات المرات، وأصبح اسمه ناراً على علم، طرأ على التعليقات تصعيد، كان آخر المطاف؛ نداء موحد يستصرخ أصحابه أولي الأمر، أو رجال النخوة والمروءة (من يكونون غير الإرهابيين؟) الاقتصاص من المرتد الكافر:

(انصروا الإسلام بذبح هذا الزنديق المارق).

(أخرسوه وأجركم على الله).

(من لنا برأس هذا العلماني العاهر).

(لا تدعوا الشمس تشرق على الخنديع الماكر).

أجمعت الأغلبية العظمى من كُتاب التعليقات على قتله، دون تمييز بين المتدينين ومدعي التدين والمتدينين بالفطرة، ومعهم عابثون أنذال تنكروا بالدين المقاتل، ربما كانوا علمانيين مهذارين

وهم غير علمانيين، أو عقلانيين أوغاداً وهم لاعقلانيون.

فقال لسليم غاضباً:

«أما آن لك أن تدرك الخطر الذي سأتعرض له؟».

ومثلما اعتبر من قبل الشتائم طريفة، وجد التهديدات سخيفة.

«الجعجعة لا تقتل أحداً. كل ما في الأمر، أنهم يريدون إرهابك. هل أنت خائف؟».

«إنه تحريض سافر، قد يؤثر في أحد المهووسين المتدينين، ويدفعه إلى قتلي».

«لو كان هناك من يصدق هذا الهراء المبثوث في الكثير من المواقع، لامتلأت الشوارع بالجثث، ولسالت الدماء كالأنهار».

لكن التعليق الذي أطار صوابه كان:

(اسحلوا الكافر الملعون، ليكون عبرة لمن اعتبر).

فارتد إلى سليم غاضباً، يُشعره بقصر نظره، ومدى استهتاره بحياته:

«إنهم يريدون سحلي».

يستنهض بشكواه ذاكرة الخبير الذي سُحل أبوه، هل هناك أبلغ من هذا التحريض في تصوير ما بلغته الدعوة إلى قتله من هيجان مسعور، وما آل إليه التساهل مع فقاعة صابون تنضخم وتنتفخ وتأبى التلاشي؟

فرد سليم بانزعاج:

«التاريخ لا يعيد نفسه».

وأغلق الهاتف في وجهه، وكأنه لا يستحق شرف السحل والتمثيل بجثته، وتعليقها على عمود كهرباء.

25

عرض بالحماية

منذ أخذت التهديدات تنهال عليه، مرفقة بالشتائم واللعنات، أخذ حذره. ما دام أنهم لا يراعون الحد الأدنى من التهذيب والتعقل، فليتوقع الأسوأ، إن لم يتراجع جهاراً عن آرائه، ويتنكر لها. لا رادع سيوقف المعلقين المجهولين ذوي الأسماء المستعارة عن التعدي عليه، ولن يشفي غليلهم أن يرتد خاسئاً مذموماً مدحوراً. المآل واضح وقريب، سيجعلون منه أمثولة لغيره من المارقين السفلة.

لم يكن يبالغ في تخميناته ولا في أوهامه، التعليقات لا تكف عن التهييج، وآخذة في المزيد من الانحطاط، والدعوات الهستيرية تطنب في التمثيل به، فمن قطع يديه وقدميه ولسانه وخصيتيه، إلى تشويه وجهه وفقء عينيه.

وكان لهيفاء تأثير فعال مضاد للقلق، نصحته بتجاهل ما يكتب عنه:

«لا ترهق أعصابك، الحملة ضدك لن تتصاعد إلى أكثر مما وصلت إليه».

«إلى أي حد أنا قادر على تحملها؟».

«ستجتر نفسها لفترة من الزمن، حتى يتعبوا منها، أو تحل قضية أخرى محلها».

ومع هذا واجه ما قد يصيبه على نحو يائس وشجاع:

«ترى ما الأكثر من القتل؟!».

حاولت أن تقنعه بأن قصته بلغت ذروتها، خاصة بعد الدعوة إلى سحله.

«على الأقل، انج بحياتك من الوساوس».

نصيحة هيفاء، وجدت تجاوباً لديه، ما المبرر للموت كمداً بالوسواس القتال؟! إن كان ثمة داع للموت، فليس دون موقف مؤثر، يقدم فيه أنموذجاً مشرفاً للأجيال القادمة.

«لا تتهور، الأجيال القادمة محجوزة لهم».

غير أن مبعث ارتياحه الجزئي، كان لأسباب عملية، استقاها من أخبار ترده يومياً، لم يطّلع عليها فقط، وإنما أخضعها للتحليل: الخلاصة؛ ما يسعى إليه المحرضون لن يتحقق، لماذا؟! الإرهابيون الطّالبون بقتله، مشغولون عنه وعن غيره من المفكرين بقضايا ليست فكرية ولا تصفوية، وإنما لوجيستية، محددة بتجنيد المزيد من العناصر المقاتلة، وتدريبهم في مناطق نائية داخل البلد، أو في معسكرات خارجه بالبلدان المجاورة، وتأمين مخابئ احتياطية للخلايا النائمة، وما يلزمها من تموين،

وتدبير مصادر للتمويل والعتاد والسلاح والتموين... والمدد العقائدي التكفيري.

أين قضيته النافلة هذه، من طموحاتهم التي تتعدى البلد وتنتشر في العالم كله، مهمات يلزم لتحقيقها زمن وصبر واستمرارية، وإيمان لا يتطرق إليه الشك، وعناد لا يعتوره الملل، وعزيمة جبارة لا تعرف الكلل، والأهم التخفي، هل يفضحون تنظيماتهم بقضية بوسعها الانتظار؟ حالياً لا خوف عليه منهم. وحتى عندما يصبحون جاهزين للحرب والطعان، ستتجاوز قضيته على الأغلب، قضية أخرى، أهم بكثير وذات مردود أكبر.

«مثلاً، ستكون الدولة هدفهم، وليس أنا».

وإذا كان ثمة من خطر حقيقي، فهو قادم من هذه الكتلة الغامضة؛ الجماهير، أي الشعب الذي يحتوي على ما هبَّ ودبَّ من أنواع البشر؛ فاضلون، محتالون، طيبو القلب، لصوص، أشرار، فقراء... إلخ، يجمعهم شيء واحد، غيرتهم على عقائدهم، يخرج منهم رجل أو أكثر، يترصده من مكان إلى مكان، يراقب تحركاته، ثم يعترضه عند منعطف ما، أو يباغته من خلفه في الشارع، يصرخ «الله أكبر»، ويغمد خنجره في صدره أو ظهره.

«رجل استحوذت عليه فكرة قتلي تقرباً من الله، لا تربطه علاقة بأي جماعة أو تنظيم، لا يحتاج إلى تمويل ولا عتاد، تكفيه أداة معدنية بسيطة، سكين مطبخ مثلاً. في حال لم تتوفر فسوف يمزقني بأظافره وأسنانه».

هذا القاتل المرتقب، من المستحيل معرفته، رجل من ملايين، جاهل ومجهول، على الأغلب غير متوازن عقلياً، يُدرأ خطره بعدم

إثارة هواجسه الدينية، والحرص على عدم استفزازه بقول، أو فعل يتحدى معتقداته. لكن فات الأوان، ما دام هناك من يعمل على تحريضه ليل نهار.

قاتل وهمي!! كان هذا آخر اختراعاته، لكنه احتمال ممكن.

«قلل من ظهورك في الأماكن العامة».

«سينعتونني بالجبن».

«فليكن...».

إذا كانت الدولة نفسها لا تهتم لسمعتها، فلماذا يهتم بسمعته؟ ألا يشينها مقتل مفكر حر من رعاياها على أرضها؟!

وكإجراء أولي، لن يمارس نشاطاً ثقافياً علنياً في المستقبل، مستقبل لا يتعدى بضعة أشهر. أصبح للوقت في منظاره الخاص مقاسات مختلفة؛ المستقبل القريب يقاس بالأيام والساعات، والبعيد بالأشهر. أما السنوات ففي علم الغيب.

أقسى ما واجهه هو إلغاء محاضراته، كان إقدامه على هذه الخطوة مسيئاً إلى شخصه ومهيناً لكرامته كمفكر لا يهاب تعسف السلطة والإرهاب... ولا الموت. فلم يتجرأ على الذهاب إلى المركز الثقافي، اتصل بهم واعتذر عن ارتباطه بإلقاء محاضراته الشهرية لهذا الموسم، لأسباب قهرية طارئة.

اقتصرت احتياطاته الأمنية على عدم التقيد بمواعيد محددة لخروجه ودخوله إلى البيت، أو لذهابه وعودته من الوظيفة. ولم يسمح للزوار بدخول مكتبه إلا بعد مراجعة الحاجب وإعلامه بواسطة الهاتف عن شخص الزائر وغرضه من الزيارة. في البيت لا

يستقبل أحداً، ويقفل الأبواب والنوافذ بإحكام، لينام مهلوساً غير مطمئن البال. وامتنع عن التردد إلى مقهى الروضة، مع أنه كان يذهب إليه لماماً، للعب الشطرنج مع صديق، أو لتبادل حديث مع أحد المعارف. بينما لازمه صديقه حسين كحارس شخصي في غدواته وروحاته القليلة، عدا العاطفية منها، مع أنها لم تعد عاطفية، أصبحت فسحة ليبث هيفاء هواجسه، ويجتر أفكاره، ويتخفف مما يؤرقه، حتى التافه منها، دون مكابرة أو إحساس بالذنب. ما كان ينتابه من مشاعر، قد لا يصح وصفها بالجبن، لكنها لم تكن شجاعة.

بعدما ضبط حياته على الإيقاع الجديد، ضمن بقاءه نظرياً على قيد الحياة طوال فصل الصيف، مع أنه يعلم بأنه مهما كان يقظاً، لا شيء عملياً يمنحه حصانة نهائية أو مؤكدة ضد الموت غيلة، قد يغيرون رأيهم، ما دامت الاغتيالات والتفجيرات في العالم على قدم وساق، تحصد المئات يومياً في العراق وأفغانستان، وتنتشر إلى الدول المجاورة والبعيدة، بعدما نجحت بضرب عدة عواصم غربية كبرى، ما الذي يمنع من امتدادها إلى هنا، ما دام الإرهاب يسري في الدماء، والأوامر بالقتل تنتقل عبر الأثير؟! عدا أن المجانين كثر.

ترتيباته الأمنية، لم تكن منيعة، ولا تخلو من بعض الثغر، وبوسع مجرم متوسط الذكاء اختراقها؛ حتى الدولة بإمكاناتها الكبيرة، لن تستطيع توفير أفضل منها. كانت إنجازاً معتبراً، تمنى بعده، لو أن سليماً اتصل به، وعرض عليه الحماية. عندئذ لن يتردد، سوف يقول له، لقد تأخرت، لست بحاجة إليك.

وكأن أمنيته تحققت، سليم اتصل به، ولم يكن حسبما توقع

اتصالاً من أجل حماية عادية، لا تقدم ولا تؤخر. كان أكثر من هذا بكثير.

□□□

فاجأه بعرضه السخي على الهاتف؛ لم يكن رفع عتب، بل عرضاً كبيراً؛ سيوفر له حماية كاملة ومتكاملة!!

«لا يمكنك تخيلها، سأعلمك بتفاصيلها، ريثما أصل لعندك إلى المركز».

أخذته الدهشة، الموقف تجاهه انقلب رأساً على عقب. فنسي كلماته التي أعدها له، بدا ما سيعرضه عليه، يزيد على ما طالب به مراراً. حماية الواضح أنها غير مجزأة ولا ناقصة.ماذا تكون؟! بالأحرى، ما الذي طرأ؟!

في المكتب، بدا سليم هذا غير سليم ذاك، كان نادماً لأنه أهمل شكاواه، واعترف بأنه سيكون للتهديدات تداعيات ملموسة.

«يُخشى أنها ستعدى الفضاء الافتراضي إلى الواقع الحقيقي».

الأمارات البادية على وجهه دليل على ما تعرض إليه من توبيخ شديد من رؤسائه على تقصيره. فأراد فاتح بدوره أن يوبخه بأسلوب مترفع، لا تؤثر فيه إغراءات الحماية المفاجئة، فقال له قبل أن يفتح فمه بتفاصيل عرضه الكبير:

«إذا كان بشأن تنقلاتي الشخصية، فأنا كفيل بها. وإذا كان من أجل محاضراتي، فقد ألغيتها».

سليم أيضاً استغرب، فاتح هذا غير فاتح ذاك، فقد طالعته أيضاً إجراءات الحماية على مدخل المركز. فرغب في إحباطه، قال له كلمتين:

«لكنك تأخرت».

فوجئ فاتح، كانت الكلمتان التي تمنى أن يقولهما له!! ما الذي قصده سليم بتأخره. هل فات الأوان على إجراءاته الاحترازية، وعبثاً ما فعل، أم أنه يلومه على ما أقدم عليه؟ لم يحصل على جواب. فانتظره من سليم الذي قال بإصرار:

«لو ألغيت محاضرتك قبل أن تلقيها، لكنت في منتهى الصواب، ووفرت على نفسك حماية لا ريب أنك بحاجة إليها الآن».

لم تفته علامات الحيرة التي ظهرت على وجه فاتح، فأيقن أنه مهما اختلف هذا عن ذاك فهما الشخص نفسه. وكان فاتح قد استرد شخصيته على أثر ما سمعه، وأدرك أن الأمر جدي، والخبير في مأزق، لم يأته متطوعاً بل راضخاً، بناء على أوامر مشددة بإنقاذه، ولو تُرك الأمر له، لما حرك إصبعاً لنجدته.

سليم مثله، استرد شخصيته بلا أمارات ندم على وجهه.

«للأسف، الأمر تجاوز أية خطوة قمت أو ستقوم بها».

الأوامر التي جاءت بالخبير على عجل، كانت ترجمة لمعلومات خطيرة تملي عليه استدراك شيء ما. ماذا تكون غير خطة مرعبة لقتله والتمثيل به، تودي بسمعة فرع مكافحة الإرهاب إلى الحضيض؟!

فغر فمه مذهولاً مما توصل إليه، لكنه سرعان ما انزعج من أوهامه التي تتفاعل بسرعة وتبني فرضية ضخمة بلمح البصر. وعندما أراد إسقاطها من حسابه، كان سليم قد استغل ذهوله قائلاً:

«يستحسن أن تسمعني».

لم يخف بكلماته هذه، عقم ما تراكب في رأسه خلال هنيهات، كانت نظراته الهازئة تؤكدها، ومع هذا أظهر فاتح بعض الكبرياء.

«ما قمتُ به من احتياطات، رغم بساطته كافٍ جداً، فلا تستخفّ بها».

«أنا لا أستخف بها، بل أستخفها».

26

الجهاز الدولي

تكلم سليم بسرعة، الإجراءات لا تحتمل التأجيل، كما أن الوقت لا يسمح بالمطمطة أو المماحكة، ولا حتى بشرب القهوة. دفع الفنجان بعيداً عنه، مبرراً اعتذاره عنها. المهمة التي استدعت حضوره، كانت إبلاغ فاتح بأن حياته مهددة فعلاً، من قبل إرهابيين أصوليين من الجماعات المتأسلمة، أعدوا خطة لاغتياله. باتت على أهبة التنفيذ، لكن...

«ماذا تقول؟!».

تساءل مستغرباً، لا ليستفسر، بل ليوجه اللوم إلى فرع مكافحة الإرهاب الذي أهمله طويلاً، ولو أنه سيصلح خطأه. وهذا ما طمأنه لبرهة وجيزة من الزمن، سرعان ما انقضت، وخلّفت ورامها إحساساً بشيء سيهوي فوق رأسه، ثم هوى وما زال يهوي ويهوي، وعلى وشك أن يسقط فوقه ويشطره من قمة

رأسه إلى أسفل ظهره. لم يسيطر على ما اجتاحه من قلق عات، كان الذي لا يزال يهوي ولم يشطره بعد، قد أحدث خللاً في الرؤية لديه، جراء توقعه الاصطدام الوشيك برأسه. أصابه بارتجاج شديد، أثمر مشهداً أصبح أسيراً في داخله... إذ على بعد خطوات وقف شاب ملتح، كان متربصاً به، يتطاير الشرر من عينيه، سدد نحوه فوهة مسدسه، وعلى وشك أن يطلق عليه الرصاص.

المشهد راوده، من قبل، بين حين وآخر، على هذا النحو تقريباً. لم يشعر بالخوف، كان مشهداً يراه من مسافة بعيدة، وليس قريباً وخانقاً هكذا، عدا أن التهديد كان تخيلاً، أما الآن فتهديد الواقعية، هناك أشخاص تداولوا اسمه وأصبح على رأس قائمة المرشحين للموت، بعدما قرروا إنهاء حياته.

«لا داعي للتواري عن الأنظار، فقط إجراء بعض التغييرات على نمط عيشك، ربما تعود إلى حياتك الطبيعية».

ارتدّ فاتح من المشهد المرعب إلى واقع أشد رعباً، وإن كان بارداً، دون تهديد فوري، واحتمالات مفتوحة على السلامة. أنطقه بسؤال يصح وصفه بالجبن:

«أين سأجد مكاناً أختبئ فيه؟».

«بوسعي توفير ملجأ لك».

أحس بالخجل من فقدان توازنه وتهاويه السريع. تمالك أعصابه، واضطر حفاظاً على المظاهر إلى التماسك، ولام نفسه على لحظة ضعف دهمته على حين غرة.

«ليس لدي سوى بيتي، ولا أريد مغادرته».

«لا مشكلة، الحماية ستكون شاملة، حتى ولو كنت في العراء».

عاوده الشك، عادة تصدر وعود تبقى دون تنفيذ.

«هل بوسعي الاعتماد فعلاً على الدولة».

«الدولة لا علاقة لها بهذا الأمر».

توتر الموقف بينهما، ليس بسبب الخطر ولا الملجأ. وإنما بسبب الدولة، إذا لم تكن هي التي تحميه، فمن يكون؟! ألا يعمل سليم لديها، أو بالنيابة... أو بالوكالة... أو بديلاً... إن لم يكن عنها، فعن من؟!

«لا تقل لي إنك تعمل بمعزل عن الدولة».

«أعمل معها وبمعزل عنها، لكن لست وحدي، كن على ثقة».

«لم أفهم».

«افهم أمراً واحداً، هناك من يعمل على اغتيالك».

«من أين جئت بهذا الخبر؟!».

«لدي مصادري».

«هل مصدرك موثوق به؟!».

«موثوق جداً».

«من هو؟».

«لا تسألني أكثر».

تشبثُ سليم في إخفاء المصدر، زاد في إصرار فاتح على معرفته،

كيف يسلم أموره إلى جهة لا يعرف عنها شيئاً؟!

«لن أتلقى تعليمات تخص حياتي من جهة مجهولة. لن أتعامل مع أشباح».

«مصدري لديه الوسائل الفعالة الكفيلة بحمايتك أكثر من الدولة، عدا هذا لا يهمك شيء».

لم تكن مثابرة سليم على تمويه صلاته بالجهة المجهولة متشنجة، كانت رخوة، كان يماطله، وليس بوده التستر عليها، فهي أبعد ما تكون عن شبح. توقع هذا الإلحاح، فلم تكن ممانعته نهائية، كان تمنعه من الكشف عنها شكليات لازمة لا بد منها، كي تؤخذ على محمل الأهمية. من ناحية أن معرفتها ليس بالأمر السهل، مما يعطي تقديراً كبيراً لها، وهو أمر لا ينبغي أن يقتنع به شخص مطلع كفاتح فقط، وإنما أن ينبهر به أيضاً.

بعد أن حرك فضوله، قال بصوت مشحون بالإثارة:

«جهاز أمن دولي».

فانبهر فاتح. عندئذ تولى الخبير بخبرته توضيح لماذا هذا الجهاز:

لم يعد القضاء على الإرهاب معركة دولة أو منطقة واحدة، بل البشرية كلها. ما استدعى تعاوناً فعالاً بين الوكالات الاستخباراتية السرية في العالم، ينسق بينها جهاز تديره الدول الكبرى، وتشارك فيه الدول الأخرى بتزويده بما يتوفر لديها من معلومات عما يجري من نشاطات إرهابية داخل أراضيها. أصبح يُعرف بالجهاز الدولي لمكافحة الإرهاب، واختصاراً «الجهاز». يمتلك وسائل تكنولوجية متقدمة جداً، ويتحرك على مستوى الكرة الأرضية

لمكافحة الخطر الأصولي الإسلامي.

كان شرحه الموجز سريعاً وغامضاً في آن واحد، ما أضفى على الجهاز دفعة إضافية من الإبهار أعطت أثرها فوراً على وجه فاتح الذي أصابه الذعر. فتركه سليم بضع لحظات ليتخيل ضخامة هذا الجهاز وما يمتلكه من قوة ضاربة، تشارك فيه الدول الصغرى بالتجسس على مواطنيها. ثم بضع لحظات أخرى، ليقدر معنى تولّي جهاز دولي أمر قضية محلية، لا تزيد عن أمن شخص واحد. تلتها لحظات متوترة، ليستوعب تلك النقلة النوعية من حماية داخلية مشكوك فيها، إلى حماية دولية موثوقة!!

ولكي يكون على بينة، لن يخفي عليه أنه مرتبط بهذا الجهاز بعلاقة متينة، منذ قام بدوراته التدريبية في السنتين الماضيتين في أوروبا وأميركا. وفي حال أراد التأكد من فاعلية ما يعرضه عليه، يكفي أن يدرك بأن الجهاز عابر للقارات، لا تقف في وجهه حدود على الأرض ولا في الفضاء، قدراته غير محدودة، يعمل على كشف بؤر الإرهاب، والقضاء عليها بأساليب سرية، وتحت تغطيات متنوعة، عبر مسارب خلفية فاعلة، تصل دون مراء إلى صميم شبكات عنكبوتية يجهل حتى أفرادها بعضهم بعضاً.

أتبعها بسرد بعض العموميات عما أحيطه من عمليات في نيويورك ولندن وروما والقاهرة والرياض... وأكد أن الجهاز يضع في حسبانه خريطة لا تستثني بقعة من العالم مهما صغرت، مظهراً بجلاء مدى العبقرية اللانهائية للعاملين فيه، وقدرات الجهاز التكنولوجية الهائلة في اكتشاف عمليات كانت ستزهق أرواح الآلاف من الناس الأبرياء... أين منها مسألة اغتياله التافهة!!

سرعان ما أصلح سليم هذا الاستخفاف الإنساني الجسيم، صحيح أن الجهاز مختص بالعمليات الكبيرة، غير أنه لا يغفل عن عملية صغيرة، كاغتياله، لا تعادل أكثر من حادثة سير في بقعة ضئيلة القيمة استراتيجياً، لكن في ميزانهم، لا تقل قيمة عن أية جريمة دولية كبرى قد تشعل حرباً عالمية... إنها حياة إنسان ينبغي ألا يشعر أنه وحيد بلا أصدقاء على الطرف الآخر من العالم.

«أما لماذا هم حريصون على حياتك، فدعماً لأصحاب الفكر الحر، دون أية منة، أنتم تشكلون خط الدفاع الأول ضد الإرهاب. من طرفهم، هذا لا يكلفهم شيئاً، ومن طرفك يمكنك تفادي تضحية بلا معنى، بقليل من التعاون معهم. أما الجانب الإجرائي الذي جعلهم يسارعون إلى بسط حمايتهم عليك، فهو أنه ما زال في الوقت متسع لإنقاذك. اقتراح اغتيالك، لحسن الحظ، لم يحز بعد على موافقة أمير هذه الجماعة».

هذا ما تسرب إليهم من خلية نائمة ستباشر عملياتها قريباً.

وما يُكسب قضيته جدية أكبر، تعرضه إلى اعتداء صارخ على حريته، كان بمثابة تحذير له من الاستمرار في تحدي هذه الجماعات، أهُمله، مع ما ألحقه بها فيما بعد في محاضرته، إلى عملية اغتيال لا مفر منها.

«وليس كما افترضنا سابقاً، عملية قام بها شخص بالخطأ».

«لكن البذلة الأنيقة وتسريحة الشعر... تؤكدان هذه الفرضية».

«حيلة تافهة، لم تمر على الجهاز، إنهم أدرى بخصومهم، ولا يجهلون أنهم من الأذكياء، المتفوقين دراسياً وعلمياً، لديهم

أساليبهم المبتكرة، ولا يستعصي عليهم التنكر بأي مظهر مخادع. وهذا لا علاقة له بغبائهم السياسي والديني».

كان الجهاز مطلعاً بالكامل على أصغر الأمور، وإلا فكيف عرفوا بأمور لا تحتاج إلى اختراق جماعات منغلقة على أعضائها فقط، وإنما إلى سريرة أولئك الذين يقودونها من جحورهم الخفية؟

«إذا كانت هذه الجماعات مخترقة بهذا الشكل العميق، فلماذا لا يقبضون عليهم؟ لم الانتظار، ما دام الجهاز لا يجهل شيئاً مما يجري، وسوف يعلم أيضاً بما سيحصل بشأني من مداولات في المستقبل القريب، وما سوف تنتهي إليه من الموافقة أو عدم الموافقة على قتلي».

«العملية أدق وأعقد مما تتصور».

نهض سليم من مقعده، واقترب برأسه منه:

«حركة الجهاز محدودة فوق أراضينا، فلا تلح، تفهم موقفهم».

«ألن يتعاونوا مع أجهزة الأمن المحلية؟».

«جزئياً فقط، لا يريدون أن يخسروا رجلهم داخل هذه الجماعة. لديهم خطط بعيدة المدى قد تفشل، إنهم لا يثقون بأحد».

وأكمل بصوت منخفض:

«بصراحة، وهذا سر احتفظ به لنفسك، الدولة تنازلت لهم عن هذه القضية، وأصبحت ضمن خطط الجهاز. وسوف يلغونك عن طريقي بكل ما يخصك، مع حماية تساعدك على النجاة من أي محاولة لاغتيالك».

«ماذا أقدم لهم بالمقابل؟».

وكان ذكياً بسؤاله، إذا كان التعاون متبادلاً، فلا بد أن لديهم طلبات، تبدأ صغيرة، ثم تكبر وتكبر، ولا تقف عند حد. هؤلاء لا يعطون إلا لكي يأخذوا، بداية سيضمونه إلى عملائهم، ثم يدسونه على المثقفين، و...

«لا شيء، كن على يقين، لا شيء أبداً».

كان الجواب محبطاً لذكائه.

وقف سليم، ألقى نظرة إلى ساعته، لقد دهمه الوقت.

«فكر ولا تتأخر بالجواب».

وخرج بسرعة، متجنباً سماع رد منه.

أطل فاتح من النافذة، رأى سليم يخرج من المركز، ويهرع إلى سيارة كانت بانتظاره عند الرصيف. جلس في المقعد الخلفي، دارت به السيارة حول الحديقة، ثم انعطفت صوب حي السفارات.

إلى الجوار، كان المشهد الأخضر قد غاب، وتمدد تحت نظره، خواء الشارع وأناس قلائل، أسبغ عليهم السكون هدوءاً مصمتاً. بينما سؤال يدور في ذهنه:

هل أصبح في بلده تحت حماية جهة أجنبية؟!

27

حماية لامرئية

في الفترة الأخيرة كثرت زياراته لهيفاء. لا يدري إن كانت ترتاح إلى وجوده، ولا تزعجها هواجسه، أليست بغنى عنه وعنها؟ يقعد مهموماً، ثم ينطلق بالكلام على سجيته. وعندما يحلو لها الكلام، يصغي إليها، بينما يدور في داخله حديث آخر، من قبيل ما بات يعاوده.

تردد أمام بنايتها، في هذا الوقت المتأخر من المساء، كانت زياراته الليلية المتكررة مستهجنة بسبب الجيران وما قد يتقولونه عنها. وتزايد تردده، ألم يبالغ في إشراكها بمشاكله ومتاعبه، إن لم تتهدد حياتها بسببه، فسوف توضع تحت المراقبة؟

لمح من بعيد، شبحاً متطاولاً يقف في نهاية الزقاق، يسترق النظر إليه. حدق إلى العتمة، لم يكن الشبح المتطاول سوى رجل طويل القامة، يستند إلى الجدار، يمد رأسه ثم يتراجع نحو الخلف. هل

أدخلوه في برنامج الحماية دون أن يحصلوا على موافقته، أم أصبح هدفاً يرصد الإرهابيون تحركاته؟! أحس بالخوف، ربما صدر عليه حكم بالإعدام، وأرسلوا إليه أحدهم لتنفيذه. ماذا لو ارتأى هذا الشبح التخلص منه في منزل هيفاء؟!

سيضبط في الفراش، رجلاً وامرأة في ملابسهما الداخلية، أو بلا ملابس، يمارسان أو لا يمارسان النكاح خارج نطاق الزوجية. يطلق عليهما الرصاص، ويفوز بغنيمة مزدوجة، ويكسب جزاء مضاعفاً، ويسجل بقتلهما نصراً إضافياً حلالاً. بينما تفقد تضحية القتيل معناها السامي، كاعتداء ظلامي على الحق في الحياة.

ماذا يدعى هذا الاغتيال السياسي، الذي لن ينتج منه سوى فضيحة جنسية؟!

انتبه إلى أنه ما زال واقفاً في مكانه تحت شرفتها، ونور غرفة القعود مضاء، وهناك رجل يراقبه، هل يعود لأدراجه؟ كان بحاجة إليها أكثر من أي يوم مضى، ضاق صدره بما يحمله، الجديد الذي طرأ، كان جديداً بحق، لا يستطيع البوح به إلا إليها، كان سراً دولياً.

سارع إلى المصعد، وكبس على زر الطابق الرابع. فتحت هيفاء الباب، لم يتلفظ بكلمة، دخل صامتاً. تابعته بنظراتها. قالت له:

«لن تعيد اليوم حكاية كآبتك».

ابتسمت في وجهه، كان متعباً، فاحتضنها، وضع رأسه على كتفها، وأخفى وجهه في شعرها؛ يستعيض بالأمان بين ذراعيها عن الحماية الأجنبية، وإن كان من غير ضمانة، إلا بملاقاة حتفهما معاً.

«ما الذي عنَّ على بالك، وجاء بك في هذا الوقت؟».

كان ينتظر هذه الإشارة، فلم يسكت إلا بعدما فضح السر الدولي مع العرض الذي حمله سليم إليه، وما دار في ذهنه من تخمينات واستفسارات. تساءل:

«الدولة تنازلت عن معالجة قضيتي وأوكلتها إلى الجهاز الدولي، لماذا لا أفعل مثلها، وأضع مصيري أمانة لديه؟».

خلال حديثه، اكتشف أنه كان أميل إلى القبول بهذا الحل، فحاول أن يدفع هيفاء إلى الوجهة نفسها، بتعليق كاد أن يكون مطولاً، أوجزه بأن العولمة عولمت الإرهاب والأمن معاً، فلم يعودا قابلين للتجزئة، أصبحا يخصان البشرية جمعاء.

هيفاء لم تسعفه برأي مؤيد. اعترضت بأن الإرهاب مهما كان الرأي حوله، بات الدفاع الأخير للبشر الذين يحسون بأنهم يطردون من التاريخ، ولا مكان لهم ولا لعقائدهم على الأرض، وهذا ما يجعل الإرهاب انتحارياً وقصير النظر. وبالمقابل، من لا يعلم بأن السلب والنهب، هو العلاقة التي تربط الدول الكبيرة بالصغيرة. عندئذ، ألن يكون القتل المتبادل هو أسلوب التفاهم الوحيد؟!

كانت نشأتها الوطنية في المدرسة والجامعة، قد تجلت منذ ذلك الوقت في معاداتها الجذرية للاستعمار والإمبريالية، وما استجرّاه على الشعوب الضعيفة من استغلال وتبعية. فلم تثق بالغرب، وتطيرت مما يأتي منه، الجيد والسيئ، وتساوى لديها ما يرسله من بوارج حربية ومعدات كهربائية منزلية تستعملها يومياً، من الغسالة والجلاية إلى عصارة الفواكه. أما العولمة وما شاكلها،

فتعابير ملطفة للهيمنة.

خلفت آراؤها صدى لديه، مع أنها لا تخلو من التحجر، فهي من النوع الذي يوصف بالتخشب، حسب تعبير أعجبه ساد أخيراً، واستعمل في الصحف بكثرة ملحوظة، فتخشب هو الآخر. لكن بالنسبة إليه، الإرهاب قد يطوله، أما العولمة فتوفر له الأمان.

هيفاء غاضبة الآن، هل تحتاج الديموقراطية إلى القاذفات العملاقة والدبابات الثقيلة وأطنان القنابل؟! ما الذي تنشره غير الدمار والبؤس والموت؟ الغرب متحضر في بلاده، وهمجي في بلداننا.

فاتح لم يستبعد أن تعدل هيفاء عن رأيها، غداً أو بعد غد، وتصبح أكثر تفهماً لمأساة التقدم وضحاياها، والتكاليف الباهظة للديموقراطية، مع أنها لن تتراجع عما أبدته من انتقادات، وقد تعترف بأن الحضارة الإنسانية واحدة، صادف أن الغرب يقودها حالياً.

«هل تعتقد أنهم حريصون فعلاً على حرية الفكر؟».

«لم لا؟!».

«إذاً، لماذا تأخذ قضيتك هذا المنحى السري الدولي المخابراتي؟!».

حيره تساؤلها، فلم يعلق، حياته قضية إنسانية، لا ينبغي التخفي عليها، تحت دواع مخابراتية.

التلفزيون مفتوح على برنامج وثائقي عن الحرب العالمية الثانية؛ جحافل دبابات، طائرات تقصف، أسلاك شائكة، إطلاق نار

عشوائي، جثث، أشلاء بشر وحيوانات، أسراب من اللاجئين المنكوبين، دمار على مد البصر، جنود يخترقون الجبهة الألمانية... في أسفل الشاشة، يدور الشريط الإخباري، اجتماعات وزراء الدول الصناعية الكبرى. مقتل ثلاثة مقاومين في غزة. الجيش الأميركي يطوق الفلوجة، عبوات ناسفة، تدمير عربة نقل، قتلى وجرحى، انتحاري يفجر نفسه في سوق...

«أليست عمليات الجهاز الدولي السرية داخل البلد اختراقاً لأمن الوطن؟».

أدرك أنها تناكفه، فرجاها:

«ما الذي يدور في رأسك؟».

«الحس الوطني استيقظ في داخلي».

تذكر بكل أسف، أنه كان في زمن مضى وطنياً بالفطرة، ما حال وطنيته تخلخلت وفقدت تماسكها؟ لم تكن في السابق ضيقة، كانت منفتحة على آفاق رحبة.

انسحبت إلى المطبخ، لتنقع الأرز، وتسلق الفروج في طنجرة البخار، وتحضر طبخة طعام غداء اليوم التالي، ليكون جاهزاً لدى عودتها من وظيفتها. ما أتاح له الدخول في غمار مناقشة مستفيضة، أينبغي له تجديد وطنيته!! لِمَ لا؟! ما دام الأوروبيون والأميركيون لا يقبلون انتقاصاً من انتمائهم إلى بلدانهم، يتباهون بأعلامهم الملونة ويتفاخرون بها، يرفعونها عالياً، بمناسبة ومن دون مناسبة، وينشدون أغانيهم القومية، وينزعجون من ارتفاع أسعار النفط، ويدعون إلى اجتياح بلاد الغير...!! ثم لا تعجبهم الحرب فيتظاهرون احتجاجاً ضدها، ويدعون إلى الحب والسلام.

كيف ينجح الغرب في أن يكون إنسانياً وجشعاً في آن واحد؟!

سؤال، وعلى نحوه أسئلة كثيرة، كان يقصيها بحجة أن الدول الكبرى تجهل ما يجري داخل الدول الأخرى، ولا تدري بالاعتقالات والمساجين وحقوق الإنسان المهدورة واضطهاد المرأة. ثم فجأة يظهر أنهم يعرفون كل شيء من أصغر الأمور إلى أكبرها. ويطالبون بحكومات ديموقراطية، وقضاء مستقلّ، وإطلاق سراح الموقوفين... إلخ، لا يعلنون عما يخفونه إلا عندما تتهدد مصالحهم، فتُحاصر الدول ويُشهَّر بالحكام، وتصادر حساباتهم في مصارفها، مع أنهم دعموا دونما خجل حكومات فاسدة، ثم انقلبوا عليها، ولم يتورعوا بعد ذلك وبكل صفاقة عن أن يعقدوا معهم صفقات مخزية غير معلنة!!

ها هم، وحالته أفضل مثال، يهتمون بمفكر يكاد يكون مجهولاً على أرضه، لا يهتم به مفكروهم، وإنما رجال مخابراتهم.

حولت هيفاء اتجاه أفكاره، فتفرع عن السؤال أسئلة، كل واحد يقود إلى الآخر، لم يكن هذا وقتها، ولم تفض إلى شيء، وبقي سؤالها بلا جواب.

تمدد على الصوفا، وتعجب من أن طرحه لأفكار تختلط فيها السياسة بالثقافة، جعله يخوض جدلاً سياسياً ذا طابع فكري، ولا يفكر بشيء لصيق به أكثر كالجنس، فهو لم يقرب امرأة منذ حادثة الدرج!!

أغمض عينيه، فيما كان صفير طنجرة البخار يأتي من المطبخ، واستسلم للنوم، دون أن يبت بأمر الحماية الأجنبية.

□□□

ما رزح تحت وطأته طوال يوم البارحة، وبقي على حاله ليلاً، تجدد صباحاً في المركز، عقب قراءته لخبر يؤكد حصول اتصالات بين مسؤولين سوريين، وبضعة قياديين في الجماعات الإسلامية، عبر قنوات سرية، بعد أن تعثرت القديمة، وتوقفت في بداية العام الماضي. الاتصالات بدأت ثانية قبل أشهر تحت صيغة مفاوضات، لم تستثن أحداً من الجماعات الإسلامية المتطرفة وغير المتطرفة، عُقدت في ظروف بالغة التكتم في مدينة أوروبية، وانتقلت إلى إمارة خليجية، بعد أن قطعت شوطاً متقدماً معقولاً، ومن ثم تابعت اجتماعاتها في عاصمة عربية، وقد تنتهي فصولها الختامية قريباً في دمشق، تحت تأثير المساعي الحميدة.

كان الخبر تصريحاً غير رسمي لمصدر رسمي، رفض ذكر اسمه كالمعتاد، سرعان ما نفاه، فجرى ترحيل التصريح إلى شائعة حاول من أطلقها، أو من أوعزوا له بذلك، إثارة بعض التخمينات، لاختبار ردود أفعال أطراف عدة. كانت قد اتخذت مسار خبر شبه مؤكد، سنليه في القريب العاجل أخبار ستكون مؤكدة.

الذي لم يذكره الخبر، لم يكن من الصعب تكهنه، وهو أن الآمال المبنية على المفاوضات كبيرة، لو نجحت فسوف يعود الفارون المنفيون واللاجئون إلى بلدهم، بشرط التعهد بالتنازل عن أفكارهم الجهادية والتكفيرية، والانصراف إلى عباداتهم، وهو أمر لا خلاف عليه، لكن لم يبت بعد بأمر تشكيلهم لحزب منزوع السلاح، يمارسون من خلاله السياسة بقدر لا يزيد عن غيرهم من الأحزاب.

اعتقد، وقد انبعثت وساوسه قوية، أن الخبر الذي وقع عليه وقوع الصاعقة، ثمة جانب منه يخصه، إن لم يكن مخصصاً كله له، كان ملائماً لوضعه، ودلالاته واضحة، وينعكس عليه بشكل

إيجابي. مصيره لم يعد معلقاً على كلمة من قائد جماعة إرهابية، وإنما رهين مفاوضات استؤنفت، لن يصيبه أذى، إذا استمرت وحققت نجاحاً. والمؤكد في هذه المرحلة الحرجة ألا يغامر أحد بقتله لئلا تفشل المصالحة. وفي حال أخفقت، وهو المتوقع، فعلى الأغلب، وضعه في خطر.

«عندئذ من يحميني؟».

أصبح عرض الحماية عرضاً سخياً لا يقاوم، ما ألهمه قراره النهائي. فحسم أمره، واتصل بسليم وأبلغه بقبوله حماية الجهاز الدولي لمكافحة الإرهاب.

من خلال حديثه معه، ألمح إلى خبر المفاوضات، وتساءل عن مدى التقدم الحاصل فيها. أنكر سليم علمه باستئنافها واعتبرها خبراً ملفقاً. فاستغرب فاتح وأخفى امتعاضه من عدم اهتمام مسؤول عن ملف الإرهاب داخلياً وخارجياً، بخبر أو حتى شائعة على علاقة بعمله!!

سليم الذي أنكر، وافاه على الفور ببرنامج موجز تضمن لمحة عن آلية الحماية التي ستطبق عليه بحذافيرها:

رقابة ليل نهار، على مدار الساعة، دون توقف، وبالتعبير الوظيفي ٢٤ على ٢٤ دوام كامل. تحركاتك ستخضع للرقابة، لن تقتصر على خط سيرك من بيتك إلى بنك المعلومات وبالعكس، بل ستشمل الشوارع التي تسلكها، المحلات التي تتردد عليها، البيوت التي تزورها، الأشخاص الذين تعرفهم، أو على تماس معهم، أو تقع عيناك عليهم... إلخ. والأهم أن خصوصيتك مصونة، ولن تمس.

تتميز المراقبة بأنها غير مرئية. لن تضايقك أو تشعر بوجودها.... لن يدخلوا معك إلى غرفة النوم، سيتوقفون عند الباب، جاهزين للتدخل عند أي بادرة غير طبيعية أو حركة مشبوهة، مثلاً رجل في الخزانة، أو خلف الستائر، أو تحت السرير.

لم يكن يمزح، وليس من داع للحياء. الحماية ستكون محكمة تماماً، لا يعوقها عائق، ولا تتوقف عند حد.

28

عزف منفرد على البيانو

سمحت له الحماية الدولية بمعاودة نشاطه الثقافي، واقتصر على الإصغاء والمشاهدة دون المشاركة والمناقشة، فانتقل من منابر المتكلمين إلى مقاعد المستمعين. كان بالمقارنة مع ما اعتاد الجهر به في محاضراته، مستمعاً صامتاً، خاملاً وسلبياً. ما أذى مشاعره، ما جدوى جلوسه ساكناً دون حركة، أخرس ساكتاً دون التلفظ بكلمة؟ مع أنه تمتع بما طُرح من إشكاليات عويصة، دون إجهاد ذهنه بإيجاد حلول، أو تخريجات لها. حاول أن يكون متلقياً جيداً، بالاطلاع على ما كان يرد إلى الساحة الثقافية، بعد ظنه في السابق أن ما اكتسبه من ثقافة يكفيه لسنوات قادمة، فلم يقرأ أو يسمع أو يشاهد إلا ما يثير ضجة في الأوساط الثقافية، ولم يكن يستحق. كانت الضجة تفتعل بقصد الإثارة أو اصطياد الشهرة وجني المال. فبقيت ثقافته صامدة على حالها، لا تتقدم ولا تتراجع، تعتمد على مخزونها، فقاته الكثير.

لاستدراك ما فاته من تطورات، كانت الاستراحة القسرية فرصة سانحة. فواظب على ارتياد المراكز الثقافية، وتابع ما تقدمه من أنشطة فكرية وأدبية، وعروض مسرحية وموسيقية وأفلام سينمائية ومعارض فنية متنوعة. لم يمض أكثر من شهر واحد، حتى أدرك أنه لم يخسر الكثير، فما زالوا يرددون الكلام نفسه، ويكتبون الكلام عينه، ويمثلون المواقف ذاتها، ما يُعرض سواء كان على شاشة أو خشبة أو على الجدران، أشبه بما عرض سابقاً، بعضهم يسرق من بعضهم الآخر، الذي كان يختلس الأفكار والمواقف والأحداث والأشكال... من الخارج بعد تعديلات كسولة ورديئة، فلم يُشهِّر أحد بأحد. كان التسامح سارياً بين الجميع.

أكثر ما راق له هو الموسيقى، كانت تريح أعصابه فتسرح أفكاره، ويسهو عن وجوده، تغط عيناه في الغناء الأوبرالي، وينام ملء جفونه في العزف السيمفوني. ثقافته الموسيقية لم تكن غنية ولا وافية، كانت فقيرة، لكن لا بد من التظاهر بأنه على مستوى ما يرد من الغرب من مستحدثات، لم تكن حديثة، أغلبها سيمفونيات وباليهات قديمة، أُعيد تقديمها بتوزيع مجدد، أي بأسلوب عصري، حسب آخر صيحة، بهدف إطالة عمرها، ليبقى قديمهم جديداً. فجديدهم لم يكن جديداً كلية، كانوا يحافظون على قديمهم، ليزعموا بأنهم بلاد التراث الخالد المتجدد.

بينما نحن، وكان كلامه موجهاً إلى صديقه حسين، نهمل تراثنا تحت زعم أنه أصغر وبالٍ عفا عليه الزمن، ونعتقد أن الالتفات نحو الماضي دليل عدم رشد، والحنق عليه دليل نضج. ولقد استغرب حسين تعليق الأستاذ فاتح، لم يعرف عنه حنيناً ولا تعلقاً بما راح زمانه.

وعندما حضر حفلة للغناء الأصيل، قُدمت فيها نماذج من طقاطيق وأدوار مصرية، وقدود حلبية وموشحات شامية، خلبت لبه روعتها، مع أنها قدمت بحلتها العربية القديمة، وأحدثت في داخله ارتجاجاً لذيذاً، وأخذته النشوة إلى معارج الاصطهاج. فاضطر أن يخفي إعجابه بها. كان الاصطهاج من سمات أمزجة العوام لا المثقفين العقلانيين.

ما أحس به من نشوة، كان خارج خطوط علمانيته التي لا تحفل بالماضي المحلي. فما باله وهذا الغناء يعيد ويكرر، ويذهب بالمشاعر إلى خدر التطريب المُغيب للمنطق والوعي، بينما الموسيقى الغربية الراقية تخاطب العقل وتسمو بالإنسان إلى العلا والمعالي، ما أثبت جدوى الماضي والحاضر والمستقبل الغربي في مسيرة التحضر العالمي.

ولقد انطرب، على الرغم من الأزمنة الغربية، ولم يجد بأساً في التمايل على وقع يا ليل ويا عين، وترديد الآهات بينه وبين نفسه، والاستسلام لنغمات العود والقانون والبزق. وأحس بالخيانة مزدوجة، لأنه استمتع بها سراً، ووفرتها له حماية كانت تحت الرعاية الأجنبية.

نشاطه الثقافي الزائد لم يكن لاستدراك ما فاته فحسب، كان مقصوداً، لسبب له علاقة بالكرامة، فهو لم يتهرب من مسؤولياته كمفكر، واضطراره إلى إلغاء محاضراته لئلا يحدث بلبلة بين الجمهور حفاظاً على الأمن العام. كان من لوازم إعادة الاعتبار لشخصه وتصحيح صورته الظهور في الأوساط العامة، كي لا يُظن أنه يخشى على سلامته الشخصية. لذلك لم يتأثر ممن كانوا يرشقونه بنظرات الازدراء، كان عدم توارية يعد تحدياً لهم. بينما

شكلت له نظرات الإعجاب والتقدير تعويضاً ممتازاً.

لكنه لم يشعر بالأمان، كانت مظاهر الحماية الأجنبية من فرط لامرئيتها، تبدو وكأنها معدومة تماماً!! لا سيما عندما لاحظ عودة الشبح المتطاول إلى الظهور في أوقات متباينة، تارة على رصيف مركز المعلومات، وتارة أخرى أمام المقهى، أو كما رآه أول مرة إلى جوار بناية هيفاء. تجسد مراراً، بهيئة رجل نحيل طويل القامة، لا يبدو عليه أنه رجل أمن، ولا عميل دولي، وإنما مجرم من النوع الغريب الوقح، يرمقه بنظرات شريرة، وعندما يصبح على مقربة منه، يهم بالانقضاض عليه!!

هذا كله، دون أن تخرج الحماية عن لامرئيتها وتتشكل إلى جواره، أو خلفه، أو على مرأى منه. ولقد اضطر مرة، وقد رآه يتبعه بشكل ظاهر للعيان في سوق الخضار، يمشي وراءه من بائع إلى بائع، ثم يصدمه بكتفه، إلى أن يطلب من الشرطي القبض عليه، إذ بسيارة توقفت، انفتح بابها، امتدت منها يد شدته إلى الداخل، لتنطلق به.

إزاء حماية لا تظهر، لم تفارقه الخشية من اعتداء مفاجئ، في وقت لا يجد من ينجده، فكان إذا اقترب منه متسول أو عابر سبيل، أو علق في الزحام، تتوفز أعصابه لمجرد احتكاك مرفقه أو ساعده بأي شخص. يقشعر بدنه، ويحتبس الدم في عروقه، يشعر بالاختناق، ويجيل بصره باحثاً عن منفذ للنجاة. وكثيراً ما اختلجت في داخله رغبة جارفة في الهرب بعيداً، والاختباء في مكان منعزل في غابة أو جبل.

حاول الاتصال مراراً بسليم، ولم يظفر به، فاعتقد أنه سافر بمهمة

خارجية، وتركه دون أن يجري الترتيبات النهائية لحمايته، أو نسي إعطاء الإذن بتفعيلها، وربما يعود أو يتذكره، قلص نشاطاته إلى الحد الأدنى، مع الاستعانة بالحماية القديمة والمتواضعة، فطلب من حسين مرافقته عند الضرورة إلى الأماكن العامة.

هذا الإجراء لم يدم أكثر من أسبوعين. في دار الأوبرا، اقترب منه خلال الاستراحة بين فاصلين، رجل عريض الكتفين عاقد الحاجبين، نقر على كتفه، وأشار إلى مقصورة أطل منها سليم، فنهض على الفور قاصداً المقصورة.

أليس من العجيب أن يظهر سليم في المكان الذي لا ينبغي أن يراه فيه؟ ما علاقته بالعزف المنفرد على البيانو؟!

على التأكيد، لم تكن تشبه علاقة فاتح الهادئة مع الموسيقى الراقية، لا بعدم التواصل معها سراً، أو التفاعل معها بأسلوب أقرب إلى النعاس منه إلى الصحو. وإنما على نحو فظ، عبر عنه سليم بوضوح منذ اللحظة الأولى، بإدارة ظهره للعازفة الفرنسية الشقراء، وكانت قد ظهرت بروب هفهاف فيروزي اللون، وتقدمت بخطى وئيدة، لا تخلو من اعتداد ورشاقة، انحنت للجمهور الذي صفق لها، ثم جلست ورفعت ساعديها وضربت بأصابعها على البيانو.

التفت نحوه، لم تكن سوناتا بيتهوفن «في ضوء القمر»، وما تلاها سوى تغطية موسيقية للحديث الذي سيجري بينهما في المقصورة التي دعاه إليها. ووقف خارجها الرجل العريض الكتفين والعاقد الحاجبين، لئلا يشوش عليهما أحد خلوتهما غير الموسيقية.

جرى الحديث بينهما هامساً، وإن كان فاتح قد احتد أكثر من

مرة، وتعالى همسه مثل أحيح مكتوم، وكان لديه أسبابه، فهو لم ير أحداً يحميه، لا حراسة ولا ملاحقة ولا مراقبة ولا ترصداً... حتى من بعيد!!

«يعتمدون في مراقبتك على الأقمار الصناعية».

«وماذا عن التحرك على الأرض؟».

«التحرك الأرضي يجري بالتوازي مع الفضائي، هناك جماعات جاهزة لإحباط أي هجوم عليك، لديهم جيش من العملاء. اسألني كم تأخذ عملية التخابر بين الفضاء والأرض؟ أقول لك، في النو واللحظة».

بان على فاتح عدم التصديق. وتساءل:

«أين هم الآن؟».

أشار سليم بيده إلى الصالة، ورفض الكشف عن أماكن جلوسهم.

«يعنيك أمر واحد فقط، توفر الحماية».

ولئلا يظن أنه مهمل، أعلمه بأنهم منعوا ثلاثة من الإرهابيين من التهجم عليه.

«جرى اعتقالهم، وما زالوا يحققون معهم حتى الآن. أحدهم لا بد أنك لاحظته، ضبطوا معه حبلاً، كان ينوي أن يخنقك به».

«من هو؟».

«الرجل النحيل الطويل، قد تراه مجدداً».

«هل أطلقوا سراحه؟».

«ظهر أنه أهبل، لا خطر كبيراً منه».

«وماذا لو..؟».

«لا تخف. كل شيء تحت السيطرة».

أُغلق ملف الحماية، لكن بقيت ملاحظة واحدة، أكد عليها قبل أن يغادره، ألا يقوم بأي نشاط فكري. باختصار، لا محاضرات حتى إشعار آخر.

ما أكد في ذهنه أن المفاوضات الجارية مرتبطة بالمحاضرات الموقوفة. لكن على أي نحو بالضبط؟

29

ذكرى عيد الزواج

تحددت مشكلته مع الحماية الكاملة في أنها متكاملة بلامرئيتها، ورجالها الكثر اللامرئيون متواجدون بكثافة بشكل لامرئي في الأماكن المرئية، وعلى استعداد للتدخل اللامرئي، بأساليب لامرئية في أية لحظة.

لم يقتنع بتركيبة شفافة امتيازاتها غير منظورة، ولا محسوسة أو ملموسة، مع أنهم قبضوا على ثلاثة رجال، أحدهم يحمل حبلاً. لن يعسر عليه، ولو كان أهبل، في ظل حماية كهذه متخفية تحتاج إلى وقت للظهور، أن يعلقه على المشنقة، قبل أن يتمكنوا من مطاردته والإمساك به.

وقبلها، كان إنكار سليم للمفاوضات لافتاً ويدعو للتساؤل، بل وحثه على صرف النظر عنها. لماذا حاول إخفاءها، واعتبرها خبراً ملفقاً؟ على هذه الحالة، ما أكثر الأخبار الملفقة!! هل أراد أن

يقبه في ظلام بشأنها؟ لم يستبعد هذا.

باتت المفاوضات أمراً يعنيه. ولهذا السبب وحده، أخذ يلاحق مجرياتها يوماً بيوم. ولم يكن صعباً عليه تتبعها ساعة بساعة، رغم أن جلساتها السرية لا تعقد إلا كل فترة من الزمن، تسبقها اتصالات وتعقبها مشاورات يتكتمون عليها، إذا ما تسرب عنها شيء، فضئيل، تختلط فيه الحقائق بالشائعات والتكهنات.

كان الحصول على نتائجها من أسهل الأمور، ما دامت تصب في بنك المعلومات، لا يذهب إليها، وإنما تأتي إليه، لا يبحث عنها، وإنما تنهال عليه. صحيح أنها تكذّب بعضها بعضاً، وما يُسرَّب منها اليوم، يُسرَّب بما يناقضه غداً، أو بعد ساعات، وربما دقائق. عموماً، ينبغي فرزها، وتنقيتها مما يشوبها من أقاويل لا صحة لها.

كانت الأخبار تتوالى على الشكل التالي؛ اتصالات تجري، تتوقف لتتلوها مفاوضات، تتوقف لتعقبها مشاورات، تتوقف لتعود إلى نقطة الصفر، ومن ثم لتجري ثانية، كأنها لم تتوقف، في انتظار نهاية معلقة، لم تحسم.

المهم، العملية مستمرة.

وكانت جارية لم تنقطع، فأحس بالأمان الذي لم توفره الحماية، وتعزز بشكل قوي بعد أيام، عندما نُقل خبر عن انتقال الاجتماعات إلى دمشق، هنا ربما على بعد مئات الأمتار، دون أن يؤكدها مصدر رسمي. اكتسب الصدقية عندما تناولته الصحافة العالمية بالتحليل، ولم يكذبه الإعلام الرسمي للدولة.

وعندما كادت الصحافة المحلية أن تعلن عن المفاوضات، بدا

وكأن الطرفين على وشك إنهائها بإصدار بيان ختامي عما توصلا إليه من اتفاق، كان مرضياً لهما، لكن تَعَقُّد في اللحظات الأخيرة، وأُرجئ لبضعة أيام، ريثما يُجري كلاهما بعض المشاورات الإضافية، الطرف الأول مع مسؤولين في الرئاسة، والثاني مع قيادات في الخارج. وهي فترة قد تطول، خلالها يعيدان حساباتهما على أساس اتفاق أخير، شامل ونهائي.

لم يتضاعف إحساسه بالأمان فقط، بل وخالطه شعور جديد، مفرط في القدم، عاوده بعد زمن طويل لا يقل عن عشرات السنين من عدم الاطمئنان، الشعور بالحرية في وطن سيتخلص قريباً من مشاعر البغضاء والكراهية والنفور. كان يقينه الطاغي بأن الأمان الحقيقي ليس أن يشعر به وحده، بل الجميع.

واتاه هذا الشعور في وقت كان ملائماً، فقد حلَّ عيد زواجه في اليوم الأول من كانون الثاني، وحان موعد الحفلة السنوية التي يعدها للراحلة. آزره شتاء غابت أمطاره وحضر صقيعه، باغت دمشق عاصفاً، ببرد قارس ورياح قوية، تراجعت حدتهما في ليلة رأس السنة، بسقوط الثلج طوال الساعات التي سبقت وأعقبت قدوم العام الجديد، فبزغ الصباح مجللاً بالبياض، واستمرت ندف الثلج الصغيرة تتطاير في الفضاء طوال النهار، تتهادى كهباب ناعم، تتخلله زخات خفيفة من المطر.

مع قدوم المساء، كان المشهد جاهزاً، لحظات الاحتضار القاسية تجددت بلمحة خاطفة، وكأنها إشارة البدء بحفلة لم يُخف مطلعها أحزانها، فالآهات المتوجعة وأنات الألم شرخت السكون، واحتل المشهد صورتها؛ شعرها الكستنائي يحيط بوجهها الأصفر مثل هالة داكنة اللون، العرق متصبب على الوجنتين والصدر،

والعينان غائرتان تحجرت فيهما الدموع.

أبعد ستارة النافذة، فانكشف منظر تناثرت فيه الأضواء الصغيرة، أضاف جرحاً عميقاً إلى الآلام الدفينة، بعث في نفسه شعوراً بنقاء نظيف حافظ على شعلة الحب متوهجة. كان الثلج قد ترك في الشارع وفوق السيارات وسطوح الأبنية والأرصفة وعتبات دكاكين السوق بياضه مغلفاً برداء شفاف من الرمادي الباهت، فبدا بياضه شاحباً. لم يكن هناك ما يأمله أو يتمناه، أو يتحسر عليه. فلم يتعطل إطلاق ذكريات مراسم عيد الزواج.

أزاح جزءاً النافذة قليلاً، فتسللت كالمعتاد من كل سنة، نسمة باردة منعشة مشبعة بالرطوبة، منحت الغرفة المحتقنة بالأشياء أنفاسها العميقة ورواءها الشجي، وحررتها من الفراغ الموحش، وأثقال الجدران والباب الموصد، والباب الآخر المفتوح على أشياء الراحلة المبعثرة فوق الفراش. التلفزيون صامت على غير المعتاد، والباب المغلق المؤدي إلى المطبخ، لا تتسرب من خلاله الرائحة الفواحة لقالب الكاتو.

كانت المقدمة المتلكئة، دونما أصوات ولا روائح، أكثر صلاحية لممارسة الطقوس المتواضعة، الجميلة والأثيرة إلى نفسه، في عيد لا يشاركه فيه أحد من الأحياء، وإنما امرأة يستعيدها من قلب الموت.

وحيداً، يتلمس وجودها لا خيالها، من خلال الصور والأثاث والملابس والتذكارات. لم يحس طوال الأعياد الماضية أنه كان قريباً منها، ولو لمجرد التصور، كما في هذا العيد، مشاعر الخوف من القتل التي كابدها خلال الفترة العصيبة السابقة قرّبته إليها،

فتمنى مهما كلفه هذا التوق، ألا يفارقه كلاهما، رغم أن الحياة باتت مشرعة على أفق مديد، والموت عاد مؤجلاً إلى موعده في علم الغيب.

كان المشهد الذي طالما تطلب منه التظاهر أنه يتخيلها، يتطور عادة إلى ما يرغب فيه من مشاركة، فينخرط معها في حديث مشوّق من طرف واحد، يصطنع مادته من نفحات ذكرياتهما المشتركة. الليلة، لم ينبس بحرف مسموع، ولم يتوقع أن يسمع منها شيئاً، حتى لو تعلمت الكلام، أو تذكرت ما تعنيه الكلمات.

كان وقد انعتق من المفاوضات والحماية، ورقباء يعدّون عليه أنفاسه، وقتلة ينتظرون الأوامر للإجهاز عليه، طليقاً في مكان ضيق بين الشموع والورود ونسائم تسري باردة، لا يعبأ بالاغتيالات والعملاء واحتمالات الموت. هذه الجدران، لا تربطه بالأرض، ولا ذلك المنظر المعافى بالثلج وأنوار تترامى خافتة.

هنا في مكان قصي، لا يدري أين هو حقاً، وزمان طليق بلا حسابات واحتياطات ومحاضرات. هنا حيث لا سياسة ولا إرهاب ولا إسلام ولا عقل ولا علمانية. جنح به التأمل والأسى، فأخذ حربته في الحزن والتفكير والشطط. صارحها، ولم يكن يتدع، أو يستمر، أو حتى يتظاهر، وهي إلى جانبه، ترمقه ما زالت بنظراتها ذاتها، الحنون والدافئة، تتردد أنفاسها أكثر من أنفاسه، تعلو بصوتها الآتي من زمن بعيد أكثر من صوته الذي لا يسمعه غيره. قال لها إنه يحس، وإن كان مجرد إحساس، لكنه يقينيّ، بأن نهايته على الأرض دنت، واللقاء قريب.

كان ما يقوله يناقض ما توصلت إليه المفاوضات، وما بشرت به

من سلام، فبات يحتاج إلى شرح طويل، شرح لا يبرر فيه مخاوفه، بل يغفر له تخاذله، وأن يعيد سرد وقائع ما سبق من أحداث جسام، انتهت، أو تكاد أن تنتهي على خير، وإن كان لا يغبط نفسه على موقعه فيها، ستذهب في سبيلها، محملة بمواقف غير لائقة.

غير أنه تذكر بأنه يعيش في الماضي الجميل، ولا ينبغي تنغيصه بالماضي القريب غير السعيد. فقال بمرح وكأنه يلقي بنكتة سوداء:

«ربما كنتُ في استعراض، ليس لي من دور فيه سوى الرجل المغلوب على أمره».

لم يسمع جواباً. فأجّل حديثه برمته، إلى موعدهم القادم في العام التالي، وربما أقرب بكثير، موعد إن حالفه الموت، فسوف يأتي مبكراً، لن يأخذ أسابيع، بل أقل بكثير، بضعة أيام، لو صدقت هواجسه. عندئذ سيشرح لها كل شيء وجهاً لوجه.

«هل هذا يرضيك؟».

لم يلمس منها رضى أو عدم رضى، ما الذي يعنيها من الأمر كله سوى هذه اللحظات المسترقة من الموت والحياة؟

في هذا اليوم السعيد ارتكب حماقة، تجاوز بتداعيات خياله المنهك، عيداً كاد أن يكون بهيجاً، نكّده بوساوس استعارها من حالته الأرضية، وعكر جلسة لطيفة تمتّ إلى السماء، لا تحدث سوى مرة كل عام، وأصبحت على وشك التحول إلى مأساة ودموع. كان الأجدر ألا تهدر على أوهام بائسة.

وإذا تمنى، فألا تجهل ما يعانيه من أجلها، في سبيلها يتخفف من علمانيته، ويقنع بفاصل روحي، يُطلعها فيه على أحواله، وحياة تتوق إلى أخبارها، ولا تشتاق إليها. يدرك وإن متأخراً، كان عليه أن يحاذر قصة الموت الذي ملته وكرهته.

لماذا يتنبأ لنفسه بالفجيعة؟

30

تحولات مرئية

بعد فاصل الذكرى الحزينة والعيد البهيج والذكريات المؤلمة والمشهد الشتائي والوداع المؤقت والتداعيات البائسة، عادت الحياة في اليوم التالي إلى طبيعتها، ولم تكن طبيعية تماماً، خالطها السقم والتوتر.

بعدها تباطأ الزمن، طوال شهر، مرّ كأنه عدة أشهر، إلى أن أُثير خبرٌ رفع معنوياته ودفع الزمن إلى الأمام، فارتد إيقاع الأحداث متسارعاً من جديد. خبر لم يزد على بضعة أقوال تناهت إليه، تداولتها دوائر غربية عليمة: الجلسة القادمة هي الجلسة الختامية من المفاوضات، ستكون حاسمة، تفتح صفحة جديدة، وتحدد وجه البلاد لبضعة عقود.

تأيد ما سمعه، بما لمّح إليه مستثمرون وتجار على علاقة بصناع القرار، عبروا فيه عن ضيقهم من مشاورات طالت.

فاتح لم يستعجل حلولها، المستحسن أن تأخذ وقتها كاملاً. وربما تلتئم وتدور عجلتها ثانية، ما زال هناك متسع للاسترخاء، لا سيما أن أصدائها أخذت تترسخ، وسائل الإعلام تتناقلها بحذر دون أن توفرها من التحليل، وتنقلها إلى جمهور عريض بدأ يتأهب لتنفس الصعداء. وإذا أنكر الناطق الرسمي علمه بها، فالمصدر المسؤول الذي لم يعلن عن اسمه، لم يُكذّب خبر المفاوضات السابقة واللاحقة!!

قال لهيفاء، إذا بدأت الصحافة تتناولها بشكل عادي في أخبارها وتحليلاتها، فهذا يعني أنهم يتوقعون لها النجاح. بشائر المصالحة هلّت.

بدأت الجولة التي ستكون مشهودة، تأخذ أبعادها، قبل أن تستهل جلساتها، بضخ المعلومات المتناقضة حول ما اتفق عليه، أو ما سوف يتفقان عليه، كانت الخطوط العامة المختلف عليها، قد ذُللت وجرى الانتقال منها إلى التفاصيل بعد أن أبلغ الواحد منهما الآخر بالتعديلات المطلوبة. الجلسة المنتظرة، لن تكون سوى اجتماع لإعلان البيان النهائي. أي أن المفاوضات الفعلية تجري الآن، داخل كل طرف بمعزل عن الآخر على شكل مناقشات موسعة، تُضيّق شقة الخلافات بين الأجنحة المختلفة للجماعات الإسلامية. أما الدولة فلا مناقشات في داخلها، لن يتزحزحوا عن طلباتهم. الشروط واضحة: عودة الإسلاميين فرادى، لا تنظيم يجمعهم، ولا هوية تعلن عنهم، أو لافتة تشير إليهم. نشاطهم المدني لن يتعدى الجمعيات الأهلية والأعمال الخيرية. أما السياسي، فمن خلال الأحزاب الوطنية، الاشتراكية والقومية، دون أية صفة دينية، تميزهم عن الأديان والطوائف والمذاهب الأخرى.

فيما كانت طلبات الجماعة الإسلامية القصوى، تنازلات قصوى، لم تزد على طلب السماح لهم بممارسة نشاطهم الديني تحت صيغة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وبحدودها المتواضعة الأدنى، أي بالعمل على تغيير المنكر بالقلب واللسان فقط، دون استعمال اليد؛ أي بأضعف الإيمان؛ اقتداءً بالحديث النبوي الشريف.

غير أن الدولة اعتبرت «أضعف الإيمان» التغيير بالقلب لا باللسان، حسب آراء مستشارين مختصين، مدنيين وعسكريين، كان للإعلاميين منهم دور كبير؛ ما يقصد باللسان، ليس فصاحة الإسلاميين المعروفة، بل قدرتهم على التهييج بالكلام مكتوباً أو شفهياً، وأكثر من تجربة تشهد على قوة دعاواهم المبثوثة في منشوراتهم، أو ما تردد منها في زمن مضى بالمساجد تحت غطاء العمل الصالح، فإذا به يذهب إلى الحاكم الغاشم. كان اللسان فيها أحدَّ من السيف وأمضى. وحسب تجربة المستشارين من رجال العمليات والمداهمات، اللسان أبلغ من البندقية، والكلام أقوى من الرصاص، رأوا من مفاعيل بلاغته المناضلة، طبقاً لأدبيات التحريض الإرهابية، رجالاً لا يهابون الموت في حرب المدن، وقلوباً جريئة في الدفاع عن العقيدة، وبدءاً ثابتة في الاغتيالات.

فجرى تحديد أضعف الإيمان بالقلب فقط: لا خطابة ولا نصيحة ولا دروس دينية حتى تلك التي تدور حول الفقه والشريعة والمواريث والحيض والنفاس... والسبب، قد يستعيدون لياقتهم التحريضية في أية لحظة، ويندفعون لا يلوون على شيء إلى قول الحق مهما كانت عواقبه، فيجترئون على ما لا يُجترأ عليه، لا

يخافون في الله لومة لائم!! فتشتد عزائم الناس بأحاديثهم، ويستقوون بحججهم، فيتوكلون على الله، وتشن الأمة الحرب على الدولة، ينزلون إلى الميدان، وخذ بعدها... قتل وتقتيل، تفخيخ وتفجير، حرائق ودمار. من يوقفهم عن طلب الحق، لا سيما أن الحق إلهي؟!

في انتظار الاجتماع الأخير، عجت فترة الاستجمام بالأخبار وحفلت بالتوقعات المتفائلة، انعكست بشكل مهدئ على رجال السياسة بتصريحات مسالمة. توقع فاتح بالمقابل أن تنعكس أيضاً في الكواليس على الأجهزة المخابراتية السرية، على رأسها الجهاز الدولي، بمنح هؤلاء الذين يتحملون عناء مراقبته وحمايته، إجازة هم بحاجة إليها بعد أسابيع من العمل اللامرئي المضني، استنزف جهداً أكبر وتكاليف أكثر من المراقبة العادية، لتطلبه الدوام الطويل والتمويه والتواري والتغطية والتنكر. إجازة يستفيد منها مادياً جهاز ضخم يحرك عشرات من العملاء، يعملون في ظروف صعبة على أرض أجنبية، مما يستهلك مصاريف إضافية، عدا تعرضهم إلى مخاطر ليست بالحسبان.

لكن ما افتقده سابقاً من مظاهر ملموسة، توفر منه ما يزيد على المطلوب بكثير، برقابة فعالة فعلاً، وحماية شاملة تماماً!!

الإجراءات تحولت من لامرئية إلى مرئية... تفقأ العينين، لا تكف عن العمل ليلاً ولا نهاراً، يؤكدون وجودهم في كل مكان، في الشوارع والأزقة، تقاطعات الطرق، عند إشارات المرور، في المقاهي والحدائق ودور السينما، فوق السطوح وعلى الشرفات... إلخ. ثم استأجروا طابقين على الطرفين المقابلين، الأول مواجهة بيته، والثاني مواجهة المركز، شُرعت نوافذهما، وبرز من كل

واحد منها، فوهة منظار مقرب، سُدد الأول إلى غرفة القعود، والثاني إلى مكتبه مباشرة!!

كان مراقباً مائة بالمائة، في كل حركة يقوم بها. كانت وبالضبط تلك المراقبة التي حدثه سليم عن مزاياها، كاملة ومتكاملة، مع تجاوز غير معقول؛ تبدى تشدداً في الحماية!! بينما المفترض، التخفف من قيودها بنوعيها اللامرئي والمرئي معاً، دون أن ينتقص هذا من شعوره بالأمان، حتى لو كان بلا مراقبة البتة؛ الخطر ابتعد، إن لم يكن قد زال نهائياً، أو سيزول قريباً جداً.

كان مراقباً في الظرف الخطأ والتوقيت الخطأ!!

□□□

زادت عليها التقديرات الخطأ، الواردة من الخارج، فسرتها تصريحات الدول الغربية بالتعبير عن مواقفها من اقتراب الجلسة الختامية بين الدولة والجماعات الإسلامية والتي ذاع سرها قبل الختام. فعلّقت الخارجية البريطانية على المفاوضات، بأنها لو كانت صحيحة فالقائمون على النظام في سورية تسرعوا كثيراً. وتشككت الخارجية الفرنسية في جدواها، ورفضت الخارجية الروسية التعليق عليها. أما الخارجية الأميركية، فجزمت بأنها خطوة في الاتجاه غير الصحيح.

«ما هو الاتجاه الصحيح؟!» علقت هيفاء.

الدول الغربية غائبة تماماً عما يجري، بدلالة جهازها المضاد للإرهاب الذي كشف إجراءات الحماية بدلاً من إلغائها أو التخفيف منها. بينما كانت الدولة على مستوى الحدث، ضربت

عرض الحائط بتعليقاتهم، وكان في صمت المسؤولين، نفحة كبيرة من الارتياح، نكاية بالامتعاض الذي أحدثه الخبر.

كذلك، عاد الأهبل الطويل إلى العمل، هو أيضاً كان غائباً عما جدَّ من جديد، وارتد إلى ملاحقته بدأب متلطياً بالجدران خلف السيارات وحاويات القمامة، من مكان لآخر، على نحو أكثر جسارة وإلحاحاً!! فاتح لم يعبأ به، الحماية وفيرة وكفيلة بالعشرات من أمثاله سواء كانوا أغبياء أو أذكياء. لكنه أجرى تعديلاً حول فكرته عنه، بإعطائه وصفاً أدق، لم يكن أهبل بالكامل، بل نصف أهبل. فقد انتظ بحادثة اعتقاله، ولم يعد يحمل ما ينفخ جيوبه، حبلاً كان أو ما شابه، استعاض عنه بخنجر حول خصره ظهر طرف غمده من تحت جاكته. لو كان يدري بالتحولات الحادثة، لأقلع عن فكرة قتله نهائياً.

انحل تلقائياً لغز المراقبة المشددة، كانت الدول الغربية على شاكلة الأهبل تعيش في واد، يمثل الظرف السابق على المفاوضات، بينما الظرف السياسي الحالي في واد آخر، مع تميز الأهبل عنهم، كان يجهل هذا التغيير، بينما هم يتجاهلونه.

مع مبالغة كهنه في فرض إجراءات احتياطية أفقدته حريته، وشلّته عن الحركة، لم يعد الأمان سوى سجن لا يطاق، حُشر فيه تحت الأنظار بشكل دائم، محاطاً بحراسة معززة بالرجال والأسلحة والمناظير.

31

الصديق يعترف بجهله

سمع نقراً على الباب، كان بعد العشاء في المطبخ، نظر إلى الساعة، كانت تقارب الحادية عشرة، في هذه الساعة من الليل لا يأتي سوى حسين، لكنه يقرع الجرس ولا ينقر على الباب. لعل الجرس معطل.

لم يكن حسين، كان صديقه ذا الوجه الطفولي، عائداً في مساء بارد بعد حرد طويل. لم يعرفه، تميزه من صوته:

«السلام عليكم».

يلبس سترة جلدية سوداء، محكمة السحاب، ياقتها العريضة المرفوعة، تخفي وجهه، وطاقية الصوف تغطي شعره. طوى الياقة وخلع الطاقية، فظهر وجهه وعلى ملامحه أمارات قلق طفولي. لم يدخل، لبث عند العتبة، تلفت إلى الخلف، وحملق إلى العتمة

طويلاً، دون أن يأتي بحركة، استدار وتمشى بحذر نحو حاجز الدرج وأصغى ملياً، ربما أحد طالع أو نازل. وبمجرد أن عاد، أطلق من صدره دفعة واحدة ما احتبسه من أنفاس.

بعدما أحاط مظهره وقدومه وحركاته وأنفاسه بعناصر بوليسية، دخل وأغلق الباب وراءه دون أن يصدر صوتاً. تردد في الفسحة الصغيرة المؤدية إلى غرفة القعود، ولم يتقدم بعدها خطوة واحدة إلى الأمام... لماذا؟ لئلا ينكشف!! (ما أدراه بأن المنزل مراقب؟). ثم خلع قفازاته الصوفية. صافحه وقال بتوجس، بأنه لم يقرع الجرس كيلا يسمعه أحد غيره، الأجهزة الكهربائية الصغيرة الحجم، لا يؤمن جانبها، تستعمل أجهزة إرسال أو تنصت أو إنذار أو تفجير (من أين له هذه الخبرة؟!). ولم يدخل إلى غرفة القعود لأنها تحت المراقبة الدقيقة (... ويعلم بالمناظير أيضاً). طلب منه إبقاء النور مضاء، كذلك المطبخ. الحديث سيجري هنا في المدخل، وبصوت هامس.

دون مقدمات، ذهب الحديث بهما إلى السياسة. هل جاء صديقه كي يتكلم في السياسة؟! في الواقع، كانت هي المقدمة!! لم يتوقع أن يكون صديقه على الرغم من وسائله المحدودة، مطلعاً على السياسات العلنية والسرية للدولة والدول الأخرى، يزيد عمّا يعرفه هو عنها، مع أن وظيفته كمدير بنك لا يجمع المال بل المعلومات، تؤهله للتزود بكمية كبيرة منها ومن مصادر متعددة، لكنها كانت أقل.

صديقه المتخصص بالمعرفة، تفوق عليه بجمعها وتبويبها. كان ينتزعها (من أين؟) ويجاري تدفقها الغزير، ويكدسها على مر الأيام، مؤرشفاً إياها في رأسه طبقاً لتاريخ حدوثها، وعندما يذكر

واقعة يردفها بالسنة والشهر واليوم، وحتى بالساعة، وأحياناً بحالة الطقس، ماطراً كان أم صحواً، مكفهراً أم غائماً جزئياً.

تركز حديثه حول تعليقات الدول الغربية على المفاوضات وما تخفي ورائها من نوايا، لم يذكرها حسبما سمعها فاتح بالجملة دونما ترتيب، كان دقيقاً من هذه الناحية، فميز بين الصباح والظهر والمساء والليل؛ أول من أطلقها الخارجية الأميركية التي قادت جوقة التصريحات، كان الوقت لديهم نهاراً، ولدينا ليلاً، تبعها الباقون بعد ساعات قليلة. وأطلقوا تعليقاتهم على هدى التصريح الأميركي. ما أظهر رغم التنويعات والاختلافات بينها، أنهم غير راضين البتة عما ستؤدي إليه.

وليس أدل ولا أقوى على تجاوز مخزونه لمخزون المركز، أنه تابع حديثه بآخر أنباء الطرف الإسلامي المفاوض، وكانت تدور حول انشقاق الجماعة الإسلامية إلى فريقين، أحدهما التنظيم الإسلامي الراغب بالعودة إلى البلد وبالشروط المفروضة من الدولة، فيما قرر الفريق الثاني، بعد استطلاع مواقف أعضائه المبعثرين في الدول العربية والغربية وفي بلدان آسيا وأفريقيا، عدم الموافقة على هذا التنازل المذل. وأصدروا اليوم بياناً، في الساعة الخامسة بعد الظهر، لم يوزع بعد على وسائل الإعلام، وإن ظهر على بعض المواقع الإلكترونية؛ رفضوا فيه بشكل نهائي أية مفاوضات أو مشروع اتفاق، وكل ما عقد وما سوف يعقد مع ما يدعى زوراً وبهتاناً بالتنظيم الإسلامي، ووصفوه بأنه ليس بتنظيم ولا بإسلامي؛ بضعة رجال متخاذلين مدسوسين على الجماعة.

«ما يؤكد أن من تفاوضوا أخطأوا في فهم ما يجري».

لم يهتم فاتح كثيراً بمن أخطأ أو أصاب، ما يثير التساؤل هو الدول الغربية التي وقفت ضد المصالحة، كيف افتقد هؤلاء الذين لا تفوتهم شاردة ولا واردة، التقييم الحقيقي لها؟ وهذا ما فسره له صديقه:

«يعتقدون أن الإسلاميين يهدفون إلى فتح ثغرة، يعبرون منها إلى الداخل، ليحصلوا على بؤرة آمنة لهم، ثم يستولون على الحكم بالانتخابات أو دون انتخابات».

«إذا كانت الدولة غير غافلة عن أنفاسهم، فهل تغفل عن الحكم والانتخابات؟».

«أنا معك، إنها الطرف الوحيد الذي يعرف ما يريد، أحدثت صدعاً داخل الإسلاميين، أصبحوا فريقين، التنظيم وأغلبهم من كبار السن المرضى والمتعبين. الدولة استغلت توقهم لرؤية أهلهم وأولادهم. لا يرغبون بعد غياب عشرات السنين، بأكثر من إلقاء النظرة الأخيرة على وطنهم، يريدون أن يدفنوا فيه، لا أكثر من مساحة قبر».

«والجماعة؟».

«تعيد تنظيم صفوفها في الداخل والخارج».

فضحت المعلومات الغزيرة صديقه ذا الوجه الطفولي، لم يكن خارج هذه المعمعة، وإنما في صميمها، ليس مع الدولة، ولا عميلاً للغرب، لا بد أنه من الإسلاميين العاملين في الداخل، وعلى علاقة وثيقة بالناشطين في الخارج.

«ما الذي اخترته، الجماعة أم التنظيم؟!».

«يا صديقي، لستُ كما تظن، لا علاقة لي بهما».

فانتشاط فاتح غضباً، ليس من إنكاره، وإنما من لهجته البريئة:

«إذاً، من أين جئت بهذه المعلومات؟ لا يستطيع مخلوق الوصول إليها، إن لم يكن من هؤلاء أو هؤلاء».

«لست منهم، لكن الأمر يعنيني، أنا أتابع قضية أخي، لعلك تتذكره، عندما كنا في الصف الخامس الابتدائي، كان في الصف الثاني الإعدادي. مضى على سجنه ما يزيد على خمسة عشر عاماً، كان يجمع تبرعات لأسر الشهداء. ومنذئذ أقوم بإعالة زوجته وأولاده».

«لكنك تعرف الكثير... الكثير جداً».

«أخبار الجماعات في الخارج لم تنقطع عني، دائماً ثمة وسيلة، الإنترنت وغيره، أتواصل مع الكثيرين وأطمئنهم على أهاليهم».

«ألا يشكل هذا خطراً عليك؟».

«استدعيت أكثر من مرة إلى الفرع، حاولوا منعي من مساعدة عائلة أخي، بدعوى تجفيف منابع الإرهاب».

لم يلحف عليه في السؤال، الحقيقة قد تكلفه سنوات من حياته.

«هل تعتقد بالعنف؟».

«لقد اخترت منذ زمن طويل طريقي إلى الله».

«الطريق إلى الله متعدد».

«بل واحد، أن نعبد الله مخلصين له الدين».

له الحق في ألا يثق به، إنهما على طرفي نقيض. حسب تقديره، يبدو أنه ميال إلى التنظيم المسالم. على كل حال، سواء كان مع الجماعة أو التنظيم، لن يقدم أو يؤخر شيئاً بالنسبة إليه، الدين لا يجمعهما، والعقل يفرقهما، وصداقتهما مشكوك بها.

فكت ولم يسأل، لكن صديقه فاجأه بقوله:

«لماذا تسألني؟».

«لمجرد الفضول، في الواقع لا يهمني أمرك».

«لكن أمرك يهمني. جئت أحذرك».

«أنت الأحوج إلى الاهتمام بنفسك».

وهنا كأن صديقه تذكر سبب مجيئه إليه، فهتف آسفاً:

«اعذرني على جهلي!! لم أعرف أنك مستهدف بالقتل إلا مؤخراً، مؤخراً جداً».

واتته الابتسامة، لأول مرة يعترف صديقه الذي يعرف الكثير بجهله الفاضح. وأراد أن يخفف عنه عبء عدم معرفته، لكن ما الذي أدراه أنه مستهدف؟!

«لا تشغل بالك بي، لدي حماية ممتازة، لا أعتقد أن أحداً يتمتع بمثلها، نموذجية فعلاً، ولا أطمح إلى المزيد».

«لقد غرروا بك. أنت داخل سيناريو محكم، كل خطوة تخطوها تقودك إلى النهاية، أنت ذاهب إلى حتفك».

32

لماذا السيناريو؟

لم يلتفت فاتح إلى مسألة حتفه على الرغم من خطورتها، راقته كلمة سيناريو، حتى أوساط الإسلاميين باتت تستخدمها لتفسير المخططات الشيطانية للكفار!! كاد أن يسخر منها ومنه، لكنه أحجم، لئلا يجرحه. صديقه المتفاني في فعل الخير، يوحي إليه بأن طريقه الرحماني إلى الله، لا اتصالاته المشبوهة، قاده إلى اختراق سيناريو، كما يدعي، محكماً بكل معنى الكلمة. لا يمكن كشفه إلا من خلال تجلٍّ روحاني، حالفته الرؤية، فتراءى له أن ينقذ صديقه من خطاياه العلمانية، فلوح له بسيناريو مميت، بعد قليل سيُذكّره يوم الحساب وعذاب جهنم.

«يبدو أنك لم تيأس من هدايتي».

«الله يهدي من يشاء».

فقال ضاحكاً:

«أراهنك على أنك ستعاود الكرة. لن تيأس، ما دمت ستكسب من وراءي قدراً كبيراً من الحسنات. لكنك تناسى أنني اتخذت موقفاً لا رجوع عنه، لن تظفر بسببه إلا بسيئات يُذهبن حسناتك».

اتسعت ابتسامة صديقه، وقال:

«الله كريم».

ابتسامته الواثقة، ضايقته من فرط طيبتها واستعلائها. كان يتندّر عليه بطريقة دينية متساهلة ومتسامحة؛ الله لم يأذن بهدايته بعد. فأحس بالخديعة. قبل قليل، امتنع عن إيذاء مشاعره، مع أنه كان بوسعه اللهو به، والسيناريو أفضل سبيل لسفه معلوماته. فتحرش به:

«لو استعملت تعبير مؤامرة، لكنت أكثر توفيقاً».

«لقد استُهلك، وأصبح منبوذاً».

«المؤامرة أشد وقعاً، تتحمل التدويل والتهويل».

«يعتقدون أن السيناريو أدق».

محاولته باءت بالفشل. لم يتوقع أن نصيحته السخيفة ستشجع صديقه على الدفاع عن السيناريو والتركيز عليه. وأصبح مجبراً على أن يتحمل سماعه وهو يشرح له بمنتهى الطيبة، أن المخطّطين الجدد، يتشبثون به، لأنه أقل ريبة. المؤامرة سمعتها سيئة، أما السيناريو فترفيهية؛ لا تعارض بينهما، كل منهما يخدم الآخر ويكمله.

كانت الفكرة طريفة، السيناريو يحرر المؤامرة من مواصفاتها التقليدية، ويمنحها طابعاً بريئاً على علاقة بمحللين أذكياء ذوي

خيال واسع، لا يغفلون توقعاً ولا احتمالاً. صديقه يجتهد ضارباً على الوتر نفسه:

«يفكرون بأسلوب سينمائي، يفترضون أمراً ينبغي أن يحدث لك، يضعون النهاية قبل البداية، ثم يقيمون خطوطاً تصل بينهما، ومهما جرى من عراقيل، الخاتمة التي بانتظارك حتمية».

«ما علاقتي بما تقوله؟!».

«إنه السيناريو الذي أنت فيه».

لاحظه يتكلم جاداً، فصرخ به:

«قل إنك تمزح».

لم يكن يمزح.

«اعلم إذن، بأن الجهاز السري الدولي لمكافحة الإرهاب وراء البداية والنهاية».

يا إلهي... ما دام يعرف بالجهاز الدولي، فهو لا يجهل شيئاً!!

«وإذا بدأنا من المشهد الأخير، فتصور نفسك طريحاً على الأرض، مفارقاً الحياة، والدماء تنزف منك».

لم يعبأ بمشهد لن يستغرق أكثر من بضع ثوانٍ. وإنما أذهله الفيلم الخفي الطويل الذي يسبق النهاية.

«ومهما طرأ على السيناريو من تعديل وتحديث، فالغاية الأساسية هي تخريب الاتفاق بين الدولة والإسلاميين، باغتيالك».

ولأن الملخص كان سينما في سينما، اقتُطع منه منظر شديد الإثارة ويحبس الأنفاس. طلب فاتح منه، أن يعود به إلى الواقع دون سينما، فلم يتأخر صديقه عن القيام بجولة على الأرض، لم تكن أكثر من تلخيص للسيناريو:

بعد محاضرتك المشهورة، لفتَّ انتباه الجهاز الدولي، فجرى اختيارك لتكون احتمالاً قيد الاستعمال القريب. وكانوا قبل فترة وجيزة من الزمن، قد تعثروا بك في المستشفى، وأدرجوك على قوائمهم.

استعادوك من ملفاتهم، وسارعوا إلى تأهيلك، جعلوا منك رجلاً مشهوراً بواسطة عملائهم على الإنترنت، على أمل أن تصبح هدفاً للأطراف الراغبة في تفشيل الاتفاق، مثل الجماعة المناهضة للتنظيم، والدوائر المعارضة للمفاوضات داخل الدولة، كإدارة مكافحة الإرهاب وعلى رأسها رجلهم سليم (ويعرف سليم!!) إنه أكبر الراغبين بالقضاء على الجماعة الإسلامية، كانت له معهم قصة شنيعة (ويعلم بالسحل أيضاً!!). واحتاط بتحضير أحد المهابيل (...ويعلم بالأهبل طويل القامة!!) كي يكون مستعداً للاعتداء عليك.

كل هذا تمهيد للحلقة الأخيرة من السيناريو، في حال تم الاتفاق غير المرغوب فيه، أو كاد أن يحصل، يباشرون بتدميره على الفور، خلال مهلة قصيرة لا تتجاوز ساعة أو ساعتين. في هذا الوقت الضئيل، يقتلك أحد العناصر غير الراضية عن الاتفاق، في حال تخلف عن التنفيذ، يدفعون الأهبل إلى التخلص منك... وإذا لم ينجح تماماً، وأصبت مثلاً بجرح غير مميت، فسوف تجهز عليك لا محالة، رصاصة في القلب أو في الرأس تماماً.

اغتيالك سيكون إشارة البدء.

تنطلق بعده وحدات الأمن للقبض على كل ما له صلة بالإسلاميين بمختلف أنواعهم وأشكالهم، بحجة إقدامهم على خيانة الاتفاق قبل أن يجف حبر التوقيع عليه، بعدها لن يكون لهم وجود إلا كقتلى ومطاردين.

الأمر غير معقد، بل سهل جداً، كل شيء معمول حسابه، وإلا فلماذا السيناريو؟!

فيا صديقي، لا تطمئن إلى عدسات المناظير، سرعان ما تتحول إلى بنادق بمناظير. لن تفلت منهم، بعد أن جعلوا منك طُعماً للكبرين، وفريسة سهلة لهم.

الحماية الكاملة، ضمان لقتلك بشكل مؤكد لا مجال للخطأ فيه.

□□□

خطر له أن يسأله كيف علم بهذا كله. لكنه أحجم، لم السؤال، إذا كان ما قاله صحيحاً، فلا بد أنه من الجماعة، إن لم يكن من التنظيم.

أما السؤال فطرحه صديقه عليه:

«هل تظن نفسك تمثل في فيلم بلا سيناريو؟».

33

السيناريو الرباني

إذا كان السيناريو قد هبط عليه أشبه بالصاعقة، فلم يرغب في التفكير به إلا بشكله الفني، سيناريو فقط. كان باستعارته من السينما إلى الواقع، واستغلال شهرته الهوليودية، أخف وطأة عليه من مؤامرة تتعاون على تنفيذها عدة دول بواسطة جهاز دولي لمكافحة الإرهاب.

تصبب العرق من صديقه بعد أن أنهى عرضه المشوق، أنزل سحاب سترته الجلدية السوداء، فبان ببذلة كحلية اللون وربطة عنق رمادية وقميص سكري؛ كأنه مدعو إلى حفلة ساهرة. حلّ ربطة العنق قليلاً، وأخرج من جيبه منديلاً أبيض مطوياً، كان نسخة طبق الأصل عن المحارم التي كانوا يحملونها في جيوبهم وهم أطفال صغار عند ذهابهم إلى المدرسة. فَرَدَه، كان المنديل هو ذاته، واحد منها، تذكره من أطرافه المطرزة بأزهار صغيرة

أرجوانية اللون، حافظ صديقه عليه، متمماً به مظهره الطفولي. وأخذ يمسح العرق من على وجهه ورقبته. فانتبه فاتح إلى ما أصابه هو الآخر من تعرق شديد.

من يرهما، يظن أن الدنيا صيفت. وإن ألقى نظرة، مثلما هما الآن يلقيان النظر من خلال الباب المفتوح على غرفة القعود، فسوف يرى النافذة الواقعة على امتداد بصرهما، يتأرجح على صفحة زجاجها بارق خفيف داخل فضاء أسود، وكأن البرق يلمع دونما شرر. بينما الريح تتلاعب بالأضواء المترامية من حبابات الشارع القليلة، والسماء دون أن يبان منها شيء، مدلهمة تنذر بالمطر.

مسح فاتح عرقه بكم قميص بيجامته، وهو يفكر بدحض سيناريو كان برأيه خيالياً ومكثفاً. لم يتصور أن تبلغ الحماقة والجريمة بالأجهزة المضادة للإرهاب أن تبتكر سيناريو خاصاً به. علق عليه مفتاداً:

«إنه معقد جداً».

يعني أنه يصلح فيلماً سينمائياً فقط، حسب طراز يتعمد الغموض والمفاجآت، يعج بالعملاء المزدوجين والقتلة المأجورين والأيدي الخفية، والمطاردات المميتة، لا كمين له علاقة بالواقع والسياسة ومصائر بشر حقيقيين، ما زالوا على قيد الحياة.

«لا تتعجب، إنها السينما، فن وصناعة... وحضارة».

بدا من ابتسامة صديقه التي أخفاها، أن السخرية واتته. ولم يكن هذا وقتها، استغل الموقف لينتقد الحضارة الغربية في أجمل تجلياتها وأمتعها؛ الفن السابع الذي تُجير إنجازاته للاستفادة منها

في المؤامرات. كانت سذاجته تشفع له طرفة كبيرة، تحتوي على طرائف صغيرة، نظيفة وقذرة في آن واحد.

حاول فاتح أن يبدو لامبالياً إزاء سيناريو مصنوع جيداً، دونما فن إنساني، ومن سقط الحضارة، لكن قاسياً:

«إنه عمل دني».

بينما كان صديقه قد استمرأ السخرية، وربما كان جاداً، وهو يتكلم مبرهناً على صواب نظريته الفنية:

«أخذت المؤامرة من السينما القدرة على التخطيط بعيد المدى، أي مثلما يخططون لقبلة النهاية قبل أن يعرف الحبيب حبيبته، يُخططون لرصاصة في الرأس قبل تحديد الرأس نفسه».

ما أخذ يدور في ذهنه، كان أبعد من القبلة والرأس، ذهب بأفكاره إلى الحرب التي تشنها الدول الغربية على الإرهاب، لماذا يريدون لها ألا تتوقف، وأن تبقى مشتعلة على الدوام؟ هل يفسرها سيناريو تآمري يعمل على إعادة ترتيب العالم من جديد؟ التاريخ لا تسيره المؤامرات، لكنه حافل بها، ولو كانت لا تصنع تاريخاً ولا مستقبلاً.

لم ترتفع معنوياته، على الرغم من دحضه ونبذه لكل ما لا ينسجم مع حركة التاريخ، أحس بالخزي، مهما يكن فهؤلاء القابعون هنا وهناك، حملة مشاعل الحرية الذين يزعمون بأنهم يديرون معركة الدفاع عن الحياة، وتربطه بهم العلمانية والعقلانية... ويقفون معاً جنباً إلى جنب في الجبهة نفسها، قد وقفوا ضده.

«لن يغيروا من الحقيقة شيئاً».

قالها، واسترد ذائقته العلمانية، لماذا يدينهم وحدهم؟! ألا ينبغي التعريج في هذه المناسبة على ترتيبات إلهية تدع أمور الخلق نهباً لجشع الدول الكبرى؟ لم يكن ليطرح هذا السؤال على نفسه أبداً، وإنما استغل وجود ممثل لهؤلاء الذين يؤمنون برب عادل قادر على كل شيء، ليتساءل عن ذلك التدبير الكوني الأكبر:

«أنت كرجل تقي، ألا تؤمن بأننا جميعنا داخل سيناريو رباني هائل، جامع مانع، وما عداه من سيناريوهات صغيرة، حتى الموصومة بالكفر منها، مجرد أنها تافهة، تتخبط في داخله؟».

«لا تتكلم مثلهم. ولا تفهمنا كما يشاءون، هذه، وأنت تعرف، ليست حرباً دينية، على الرغم من الشعارات المرفوعة والصيحات المضللة، بادعاءات شريعة كاذبة تحلل الذبح وقطع الرؤوس، ديننا لا يشرع القتل ولا التدمير، ومع هذا يصفونه بالقسوة والوحشية. هل نحن قساة فعلاً؟ لماذا لم نكن وحوشاً قبل سنوات؟ تعلم أنها حرب بائسة، وهم من يجعلونها شريرة، وإذا كان بعضنا مثلهم، فلأن الحرب لا تدع مكاناً للرحمة».

لم يرد عليه، ربما لأنه لم يشعر أنه من الطرف الآخر، هل لأنه ولد مسلماً، ثم اختار ألا يكون مسلماً؟ ففكر بصوت عال:

«إذا كانت أعمالنا مكتوبة قبل بداية الخلق، فلماذا خلقنا الله؟!».

«يا صديقي، كف عن القول بأن البشر مسيرون لا مخيرون، لماذا نتعمدون فهم الدين بشكل يُدين الله؟! ألكي تؤكدوا على هشاشته وتهاويه إزاء المنطق؟ للبشر حرية الاختيار، لا جبر ولا

إرغام، هذا هو المنطق الإلهي».

فاجأه هذا النمط الحديث من التدين. فقال حانقاً:

«لهذا لا يفعل الله شيئاً يخفف به عن الناس مآسيهم».

«الأقرب إلى العقل والدين والعدل أنه ترك لنا تغيير حياتنا وحظوظنا بأيدينا، وألا نستكين للأمر الواقع، وإلا فلماذا الحياة، والعمل، والتفكير؟!».

لم يعد يدري هل كان يناقش نفسه أم يماحكها!!

«إذاً أنت تعتقد بوجود سيناريو رباني، يسمح بورود سيناريوهات بشرية».

«سيناريو رباني لا يصادر حرية الناس ولا إرادتهم، ولا يعمل بديلاً عنهم. وقد يتدخل أحياناً، من يدري؟! أما سيناريوهات البشر، فلا تدع مجالاً للخروج عنها، ولا تتردد بالقضاء على من يخالفها».

«دعني أفكر».

حاول استجماع أفكاره التي تشتت دون جدوى. بعد حين، سمع صوت صديقه قادماً من خلال الضجيج الذي في رأسه، وكان بعيداً جداً.

«توكل على الله، واسأله أن يلهمك الصواب».

«أنا سأتوكل على نفسي».

«كي لا تتورط في الادعاء، فكر جاداً بما عليك أن تفعله لتنجو

بنفسك، الفرصة ضئيلة، وأتمنى ألا تكون معدومة».

«كيف عرفت أنهم أعدوني للاغتيال؟».

«كل طرف مخترق من الطرف الآخر. وكان من الممكن ألا أصدق ولا أهتم، لكنني فكرت واستنتجت».

«تريد القول، إنك تفكر وتستنتج، وأنا لا أفكر ولا أستنتج؟».

«أنت تثق بهم، وأنا لا أثق».

«اصدقني القول، هل سيضحون بي؟».

وكان واثقاً لحظتها بأنه لن يكذب عليه.

«سأساعدك لو طلبت مني».

لقد تخلوا عنه، ويُحضرون لقتله. وهذا جاء كي ينقذه!!

«لا تقل لي بأنك جئت لهذا الغرض».

«نعم، لهذا الغرض».

«إذاً لا تساعدني».

«سأجد لك مخبأ أميناً».

«دع هذا الأمر لله».

لم يكن يريد السخرية منه، وإنما من نفسه. اقترب صديقه منه ورجاه:

«لعلني أحد أدواته».

«إياك أن تظن للحظة واحدة بأنني قد أقبل».

رفض عرضه، ليس لأن الله خذله من قبل، أو لأن هؤلاء الذين

وقف في صفهم، واعتقد بما اعتقدوا به، سوف يغتالونه. بل لسبب آخر، لأنه يستحيل عليه أن يختبئ لدى أصوليّ، ولو كان مختلفاً عنهم. أي عار سيشعر به أمام الذين لم يوفر مناسبة دون أن يتقدهم بضراوة!! لا يليق بكرامته كعلماني اللجوء إليه. تابع بإصرار:

«هذا أمر مفروغ منه. لن أساوم عليه تحت أي ظرف».

وإذ نظر إلى وجهه، كانت ملامح صديقه الطفولية البريئة قد تلاشت في الاحتقان الداكن الذي عبق في وجهه، وتجاعيد تغضنت بها ملامحه، كأنه بلغ سن الرشد والنضج والكهولة والشيخوخة دفعة واحدة، وهو يقول له بصوت ملؤه الأسى:

«أنت رجل ميت».

رفع سحاب سترته الجلدية وياقته، وضع طاقية الصوف على رأسه. نظر إليه نظرة وداعية، وغاب في ظلام الدرج.

أيقن أكثر من صديقه، أنه رجل ميت لا محالة.

34

وداع طويل

لم يكن الليل سيئاً ولا الصباح الذي تلاه. مع التقدم في النهار، استسلم للمفاوضات، كيفما اتجهت سواء نحو الوفاق أو الإخفاق. لم يتمن سوى أن يحسن الاستعداد لحدث استثنائي يصادف المرء في العمر مرة واحدة، في تلك النهاية المحتومة. عاهد نفسه أن يكون جديراً بتاريخه العنيد، وألا يضعف أداؤه، أو يتخلف في اللحظات الحاسمة عن مستوى يليق بمفكر لم يرهبه الموت، هذا ما سوف يتركه وراءه من انطباع... أن يصمد رابط الجأش كما يأمل حتى اللحظة الأخيرة.

يصمد؟! إزاء ماذا؟! ألا يتهاون ويفقد أعصابه، ألا يصرخ ويبكي من الخوف، ألا ينهار ويفقد رشده... كان يخشى ألا يحسن التصرف.

في طريق العودة من المركز، حاول التآلف مع فكرة أنه يفارق

دون هوادة؛ الأشخاص والأشياء، الشوارع والدكاكين، الإعلانات وأعمدة الكهرباء، أكشاك الهاتف وشرطة المرور وطلبة الجامعة... وكل ما يراه بشكل ثابت أو متحرك. كان يمضي ويخلفونه وراءهم، مجرد رجل عابر، يخرج من مشاهد لا مكان له فيها.

صباح اليوم التالي، حافظ على الإيقاع نفسه. فودع على التوالي، سائق سيارته البيجو، المارّة الذين لم يعن بالنظر إلى وجوههم من قبل، فانشدت نظراته إليهم، وأولئك الذين يراهم لأول وآخر مرة في حياته... وهذا الطريق المؤدي إلى مستشفى المواساة، فالمدينة الجامعية، ساحة الجمارك، ينعطف نازلاً صوب ساحة الأمويين، مبنى التلفزيون، فطلعة حي المالكي، يخترق أزقته...

ثم موظفوه يتقاطرون إليه مستغربين دعوته إلى اجتماع صباحي. ليبدأ إجراءات وداع حثيث يدور في داخله، دون أن يشاركه فيه واحد منهم. لم يؤلمه أن يكون من طرف واحد، وإنما اكتشافه (لماذا متأخراً؟) أنه كان ينبغي أن يكونوا أكثر قرباً منه، بدل هذا التعامل الوظيفي السخيف الجاري بين رئيس ومرؤوس. كانت الشقة بينهما طوال السنوات الماضية تتسع دون أن تتناقص حتى في مراحلها الأكثر تعاوناً، عندما كان العمل يسير بدقة مثل الساعة.

قال لهم إنه سيتغيب في إجازة تستمر أسبوعاً أو أكثر. زودهم بتعليماته، ثم امتد بهم الحديث. فاجأهم بتبسطه معهم، تبادلوا بعض النوادر المهذبة، لم تخل من مجاملات لطيفة. لم تكن شكليات، حتى لو كانت، فقد أدت الغرض منها، وحركت مشاعره. لم يكن استدعاؤه لهم، ليوجه إليهم العبارات المشجعة، أو ليشكرهم فرداً فرداً على ما بذلوه من جهد، وإنما كي يتجنب

الشخص الوحيد الذي سيبهظه حضوره، فلم يتجرأ على توديعه، الموظفة الجديدة التي عاقبها، في ظل صراعه العلماني المكتوم مع الحجاب. أساء إليها وإلى علمانيته، كان عليه ألا يتورط بارتكاب هكذا حماقات وأحقاد.

ألم يحن أوان إصلاح خطئه؟

قبل أن يخرجوا، طلب من مدير الشؤون الإدارية، إصدار قرار بعيدها من القبو إلى وظيفتها السابقة. أيد المدير قراره وأردف معلقاً بأنها لم ترتكب أية مخالفة خلال وجودها في «البراده». فما كان منه إلا أن أمر لها بمكافأة ترضية لها.

بعد أن أنهى مراسم الرحيل، أحس أن ترضيتها هكذا من بعيد، تغبنها حقها المهضوم، ولا تعيد إليها اعتبارها. نظر إلى الساعة، ثمة وقت لديه، كان ضئيلاً، سيغتنمه ويودعها أسوة بغيرها. فنزل إلى القبو.

رفعت رأسها إليه. كانت وراء طاولتها أكداس من الأوراق تكاد أن تحجب وجهها، وإلى جوارها سخانة صغيرة، فردت كفيها فوقها تتدفأ على حرارتها، وإذ رأته، انتفضت واقفة، وسارعت إلى فصل شريط الوصلة الكهربائية. غض النظر عن مخالفتها التعليمات الخاصة بمنع استعمال السخانة في الدوائر الحكومية، وطلب منها أن تعيد وصلها. كان ممتناً لأنه أدركها قبل أن تتجمد.

ألقى نظرة على المكان، الرطوبة تنز من الجدران المتشققة، حبابة الضوء الباهت متدلية من السقف المقشور الطلاء، البرد يرزح بثقله القارص فوق الطاولة والكرسي والأوراق، لا يترك خرماً ولا فراغاً. تحاول أن تخفي يديها وهي تفرك كفيها ببعضهما بعضاً. لون

وجنتيها أقرب إلى البياض المصفر، عيناها تائهتان في محجريهما، أنفها محتقن ومحمر، وشفتاها ضاربتان إلى الزرقة.

لقد شوه ملامح زوجته، لم تعد الفتاة تشبهها إلا قليلاً.

كان قاسياً عليها، دون مبرر، وأكثر مما أراد أو حتى تخيل!! ضايقه أن ضميره لم يؤرقه على الإطلاق، طوال الفترة السابقة، بما وقع عليها من حيف وامتهان، حاسبها على ما كانت ترتديه لا على ما فعلته. ولم تعرف هي لماذا!! وعندما حاولت أن تعرف، رفض الاستماع إلى شكواها، فلم يقابلها عندما طلبت مقابلته. أجاز لنفسه أن ينكر عليها لباسها، وأن يستنكر تغطية شعرها!! من أعطاه هذا الحق؟ الحق في أن يحقد عليها ويضطهدها. فلتلبس ما تشاء، ولتظهر كما ترغب. هل يعقل أنه لم يتوان عن الانتقام منها بسبب الحجاب؟! لمن يثأر؟ للمرأة المظلومة المقيدة إلى بيتها وزوجها وأولادها؟ ما الذي يعرفه عن سعادتها أو تعاستها؟! وماذا كانت تلك الحرية التي يدافع عنها، ولماذا اقتصرت على بشر دون بشر؟! كانت حاجته إلى أن يعترف لها، ليس كي يُشهِّر بما فعله، أو ليدفع ثمن عداوته العمياء، وإنما كي يدرك أنه كان بوسعه أن يكون منصفاً، لكنه اختار أن يكون ظالماً.

أحس بالبرد يلتصق على وجهه، ويطوق جذعه، ويتسلل إلى أصابع قدميه، يخترق عظامه، ويصعد نحو ركبتيه. لم يغادر، كان بالمرصاد لنفسه.

قال لها، إن نقلها إلى القبو لم يكن لإسناد وظيفة أخرى إليها، ولم يتطلبه العمل، كان عقوبة جائرة، خطأ هو المسؤول عنه، لا

يحق له ولا لغيره، أن يعاملها هذه المعاملة غير العادلة. لقد تعدى صلاحياته، ارتكب عملاً ضد الأخلاق والضمير، لن يغفره لنفسه، أقدم عليه بسبب يخجل من ذكره. ولا يجوز لرجل مثله أن يفعله، ليته يستطيع تعويضها عنه، يتمنى أن تقبل اعتذاره وتصفح عنه.

اغرت شفتاها الضاربتان إلى الزرقة عن ابتسامة باهتة، مستغربة هذا الدفق من الخطأ واللوم والخجل والأخلاق. ظنت من فرط هذيانه بالعقوبة والضمير أنها تجاوزت حدودها بالاستماع إليه!!

لم تفتح فمها بكلمة. ربما كان يشكو من عارض التبس بوجودها، وقد يتراجع بعد قليل عما فرط به من اعتذار وطلب للصفح. غير أنه ما زال واقفاً ينتظر، وكأنه في هذا القبو المبرّد بشدة، تجمد على هذه الحالة طالباً الغفران. تساءلت بنظراتها دون كلام، تومئ إلى أنها لم تفهم ما سمعته. فقالت متلعثمة:

«أنا لم أشكُ إلا من البرد، طالبت بمدفأة، القبو كما ترى، يفتقر إلى مدخنة أو حتى نافذة، فاضطررت إلى استعمال السخانة».

كانت هي التي تعتذر عن هذا الإرباك الحاصل بينهما.

أحس بالضيق، ما أراد تحمل مسؤوليته، أخطأ طريقه إليها، وكأنهما تبادلا الأدوار، ولن ينال صفحها، وأصبح المطلوب أن يبرر موقفه، لو عرفت أنه أعادها إلى عملها السابق، فقد تعتذر هي منه.

«خطئي، ولا أنكره، أنني فعلت هذا بسبب الحجاب الذي ترتدينه، لا بسبب آخر، ولقد تراجعت عن قراري بنقلك، الأمور

ستعود إلى ما كانت عليه بالنسبة إليك. أنا آسف على فعلتي».

قالها لها بكل صراحة كي تحتقره، عسى أن يكفر عن ظلمه لها.

كان قد فاجأها، أطرقت برأسها، وعندما رفعته، كانت نظراتها أكثر صلابة ودفئاً، يخالطها شيء من الرثاء له.

«ربما عانيتُ من البرد، وهو عناء يحتمل، بل ويشجعني على مواجهة ما هو أشد منه، وأيضاً الثبات على اختياري للحجاب. أنا لم أؤذ أحداً، وأتمنى ألا يؤذيني أحد. إذا كنتَ أسأتَ إليَّ، فأنت أسأت إلى نفسك. وصدقني إذ أسامحك من كل قلبي، ربما غيري لا يسامحك، لا تخلو بعض المحجبات أمثالي من التحجر».

أذهلته هذه المقدرة الكبيرة والهادئة على التسامح دونما أي منة أو مقابل. أحس بالارتياح، الوقت لم يفت، لقد فعل شيئاً حسناً. تراجع بخطوات واسعة قائلاً:

«لعلمي أغراضك إنهم بانتظارك في الأعلى».

غادر القبو ومعه المكان الذي أخذ شطراً من حياته. لم ينس قبل خروجه من البناء، أن يشمل الجدران بنظرة أخيرة ومعها هؤلاء القابعين خلفها الذين لن يروه بعد اليوم.

□□□

قبل أن يخطو في الشارع، برز سليم في نهايته!! وأخفى بظهوره بقايا المنظر الأخضر الممتد خلف السور المنخفض للحديقة. كان الشتاء قد جعله يتأكل، عرّى الأشجار وأسقط أوراقها،

وأحال لون ما تخلف منها إلى الأصفر.

مضى زمن لم ير سليم، خلاله لم تراوده أية رغبة في رؤيته. تجنبه، نزل عن الرصيف مسرعاً نحو السيارة، لا حصة له في برنامج الوداع. لكن سليم لحق به واستوقفه. كان لديه شيء ما بخصوص الأمن، استجد اليوم.

لم يحد سليم عن المقدمة المعتادة، كان بالمصادفة ماراً بالقرب من المركز، ولم يجد بأساً في التوقف قليلاً لإبلاغه بأمر عاجل، ثم أبدى استغرابه لمغادرته المركز في هذا الوقت المبكر من النهار. وتابع غامزاً، ما يعرفه عنه بأنه نظامي يتقيد بالدوام، وكما يقال، قدوة لموظفيه.

«أنا في إجازة».

«حسناً، لن نعود إلى غرفك، ستمشى قليلاً».

لكنهما وقفا على الرصيف. وقدم سليم له بشارة، لم يحلم بها:

«الخطر زال نهائياً، ويجري التفكير حالياً بإلغاء الحماية».

تجمد في أرضه وعلق باقتضاب:

«إذاً لم يعد هناك مبرر للمراقبة».

ابتسم سليم ابتسامة عريضة:

«كما توقعتَ تماماً، هناك مفاوضات عاجلة ستجري بين الدولة والإسلاميين، نتوقعها قريبة بين ليلة وضحاها. ستبدأ خلال أيام، ومتى حصل الاجتماع، فالمصالحة ليست مرجحة فحسب، بل على الأبواب، وعلى الأصح بين يوم وآخر».

ربت على كتفه وتابع:

«اقترحتُ إلغاء الحماية تدريجياً، كي تكون أكثر اطمئناناً».

كتم فاتح فرحته، سيستعيد حريته وإن بالتدريج، لن يكون تحت أنظارهم، ولا ضمن دائرة أهدافهم، مسدداً عليه بشكل دائم. لم يعد مطلوباً في الحرب على الإرهاب.

ومع هذا لم يرغب في فهم سر التحول الحقيقي الذي طرأ وجعل الجهاز الدولي يغير خطته ويقرر ألا يضحّي به، وإن أراد أن يعقب:

«كدت أن أكون ضحية مثالية».

لم يقلها، وكان موفقاً، الموقف الذي تجنبه، انقلب رغماً عنه وداعياً، فسليم انتهت مهمته، قال له بأنه لن يراه ثانية إلا مصادفة، ربما في مكان ما، لن يلقي عليه التحية، سوف يضطر للأسف إلى التظاهر بعدم معرفته.

«ستعذرني بالطبع».

صافحه بقوة، وهز يده عدة مرات. وقبل أن يدير ظهره إليه، تذكر شيئاً:

«بخصوص إجازتك».

«ما بها؟».

«أرى أن تعود عنها».

لم يكن يُخيره، ولا يطلب منه، كان يأمره ومن دون مناقشة،

بإلغاء إجازته، وأن يداوم خلال الأيام القادمة كالمعتاد.

«لا ينبغي لفت الأنظار إلى أن شيئاً ما تغيره.

لم ينه بكلمة، كان يمارس عليه ضغطاً لا يطاق.

«أظن أن جهازنا قد اتصل بالمركز، وأجّل إجازتك إلى الأسبوع القادم. غداً ستكون على رأس عملك».

ما جعله يتراجع عن تقديراته المتفائلة، لا، لم ينج، والخطة لم تتغير، الحماية نفسها، وغير مسموح له أن يكون مجازاً، كي لا يُعقّد خطتهم، ما زال يسير على الخط المرسوم له، دون أن يحيد عنه، سيقتلونه خلال هذا الأسبوع.

لم تهزه معرفة اقتراب موعد موته، كان واقعاً، وهذا الفاصل من السعادة جعله أكثر يأساً. حزّ في نفسه، أن يكون بين مرؤوسيه الأمناء الذين أحس نحوهم بالكثير من المودة، مخبر ينقل أخباره إليهم، لولاه لما علم سليم بالإجازة، وسارع إلى إنهائها.

□□□

انعكس إلغاء الحماية التدريجي، بالمزيد من المراقبة والوقاحة.

الإجراءات الجديدة اجتاحت خط سيره المعتاد، فالسيارة التي أخذت تلاحقه، لم تخف نظرات راكبيها، استفزازهم له. وفي السوق تعمد أشخاص مجهولون التحرش والاصطدام به سهواً، بعضهم يمشون وراءه على بعد مسافة قريبة، وعندما يستدير نحوهم، يسارعون إلى الوقوف عند واجهة محل، أو دكان باعة الجرائد، يقرأون عناوين الصحف، أو ينحنون ويتظاهرون بأنهم

يربطون أشرطة أحذيتهم. أما الأهبل طويل القامة، فأصبح أكثر تقيداً بالنظام والدوام والتوقيت، كأنه موظف لديهم! ينتظره أمام البيت صباحاً، ويسبقه إلى رصيف المركز، وعند الظهر لا يتخلف عن هذا المنوال. ثمة من يؤمن له المواصلات السريعة!!

لم يتعطل برنامجه، ما زالت مراسيم الوداع سارية على طريق الذهاب والإياب، يفارق من يراه في اللحظة التي يقع بصره عليه، ثم يعود إلى مفارقته ثانية! فودع عدة مرات باعة الخضار والخبز والفروج واللحوم والبوظة والنابلسية والمدلوقة والفول والفلافل والجرائد والمجلات...

ومعهم الأهبل، كلما لمحه في سوق المزة، كان بالتكاية به يلاحقه ببصره، فيتوارى الأهبل ويندس في الزحام أو خلف ميكروباص، أو سيارة، بيد أن طوله كان يفضحه ولا يساعده على الاختفاء. لم ير فيه القاتل المنتظر، وإنما شخص انضم إلى قافلة المودعين، حيل بينهما مؤقتاً، وقد يكون آخر من يودعهم.

35

ما زال للوداع بقية

هل نسي حسين؟

نعم نسيه، ورد على باله مساء، والشمس على وشك المغيب. كان في الأيام الخوالي يطيب له الاتصال به في مثل هذا الوقت، فيرافقه إلى المحاضرات، أو يتسكعان معاً في الشوارع، يذهب معه ويرجع خالي البال، لا حذر ولا توجس، ولا رجل يدعى سليم وجهازان الاول محلي والثاني دولي، وأهبل يلاحقه من مكان إلى مكان؛ يتلاعبون بمصيره. أيام لم يمض عليها سوى أشهر قليلة، لتأتي بعدها أيام ما قبل الموت بقليل.

لا، ليس من الصداقة ولا اللباقة أن يغادر دون أن يراه. كان صديقاً وإن لم يكن حميماً، لن يغمطه حقه من المودة الصادقة، أو على الأقل معاملته أسوة بموظفيه، إذا لم يكن ذا مقدرة فكرية بارزة ولا كفاءة عقلية نادرة، فلن يقلل من شأنه. كان مريداً

مخلصاً وحارساً شجاعاً.

ليس لديه الكثير ليقوله له، لكن رفقته ستؤنسه في تجوالهما ليلاً. لن يتكلم مع نفسه، سيجد من يستمع إليه، ويودع مدينته خلسة.

دمشق في الليل، لم تكن هي التي يعرفها، لا زحام ولا ضجيج. مدينة خاملة، صامتة وساكنة، لا تبالي بمن يدب فوق أرصفتها، ولا بما أصابها. الأضواء خابية، والأصوات تتسلل إلى جنباتها خافتة من الفنادق الهاجعة وملاهي السهر ومقاهي آخر الليل. زعيق السيارات القليلة يمزق ركودها، غارقة في الوحل والبرد والقاذورات. لم يكن على موعد معها، مجرد مدينة صادفها بغتة.

التفت إلى هذا الذي يمشي إلى جواره، لا يصح أن يمضي دون أن يترك له ذكرى لطيفة، فلم يخل عليه بالتكريم الواجب:

«أعترفُ بأنك كنت نِعْمَ الصديق الخلوق المتفاني، والمدافع الحقيقي عن مبادئ ومثل، لم تكن أنت أقل مني إيماناً بها».

أجابه صديقه:

«أنا عظيم الامتنان لك، كنت المعلم المرشد. أطلعتني على حقيقة العالم، وما يجب عليَّ إزاءه، ليس التفكير فحسب، بل وتغييره نحو الأحسن».

بعد أن تبادلا عبارات التبجيل والتقدير، وقفا في الساحة الصغيرة، خلفهما شارع فؤاد الأول، وأمامهما مفترق طرق يطل على الصالحية، فندق الشام، السبع بحرات، أزقة ساروجة، ودخلة الفردوس. بدا المفترق ملائماً للفراق. سيقول له بأنه سوف يرحل،

بأسلوب فاتر ومرح لا يصدمه. ومن ثم يمضي كل منهما إلى اتجاه.

«بتهيأ لي أنني سأنسحب».

«تنسحب، إلى أين؟!».

«قلت بتهيأ لي، ولم أجزم. وبالتالي ارتأيت تنبيهك إلى أن تعتمد على نفسك، وتفكر وحدك، فلا تستهن بقدراتك».

لم ينفصلا، تابعا معاً إلى الصالحية، حسين لن تكفيه بضع كلمات، يحتاج إلى بعض الإيضاحات. حسده في سره، على بساطته وعفويته، لكنه لن يراعي بساطته، أو يتسامح مع ما حسده عليه، إذا آمن حسين بشيء، لا يتزحزح عنه ولو كلفه حياته. ينبغي له مصارحته بما استجد من حقائق لا تنسجم مع هذا الإيمان الأعمى، ولا تلك النظرة الضيقة للحياة والعالم.

«أحذرك، إياك أن تؤمن بشيء، أي شيء».

«طبعاً هذا لا يشمل معتقداتنا حول....!!».

«يشمل كل شيء».

«حتى العلم والعلمانية والديموقراطية...».

«نعم بلا استثناء».

«هذا كثير!!».

«إذا كنا لا نؤمن بالله، فكل شيء قابل لعدم الإيمان، بالقياس إلى هذا الأمر، تهون الديموقراطية والعولمة والوطن والعلم...».

عزف بعدها عن الكلام، تلك كانت وصيته الأخيرة، عسى يستوعبها ولا يؤمن بشيء، ويمضي في الحياة واثق الخطوة بلا

أفكار عظيمة، تساعده على الثرثرة والجدل، التفاهات أكثر جدوى في العيش.

«القناعة، يا صديقي، خير ما تعتصم به».

هل يقول له، إن القناعة ليست سيئة السمعة كما صورها له من قبل، بالعكس تمنحه وضعاً متفوقاً. القناعة لا تعبأ بالتقدم، ولا يضيرها التخلف، لا تقتات من الندم، عدا أنها لا تحرضه على التضحية، ولا تشجعه على الإقدام... هل يتحمل عقله هذا التضليل المعاكس؟

لكن ماذا لو لم يكن تضليلاً ولا معاكساً؟!

مسؤوليته تجاهه لا تقل عنها تجاه غيره، كان جمهوره المصغر، الذي يمثل جمهوراً أكبر غرر به وأخذه إلى رحاب العقل اللانهائية، وحان الوقت ليرتد بهم إلى غياهب الظلمات، ليبدأوا وحدهم، البحث عن بصيص نور، لن يكون بصيص أمل. الحقيقة لا أمل منها. الحقيقة هي اليأس، مثل الضياء المبهر يعشي البصر ولا ينير الطريق.

التفت إلى حسين، بدا زائغ العينين مذعوراً من هول الانقلاب الحاصل، الفزع ركبه وطاح به إلى أفكار لا طاقة له عليها، الصحيح لم يكن صحيحاً، ثمة صحيح آخر، ما هو؟! كيف يتوايم مع هذا الجديد؟!

لم يشفق عليه، الصواب المبين كالخطأ الأكيد، بضعة أفكار مرعبة على هذه الشاكلة ستجعل هذا الرجل المسكين الجسيم والعريض، يتهاوى أرضاً، دون أن يشكل ما كان يحققه به طوال سنوات مناعة ضدها. جريمة أخرى، ارتكبها بقسوة ودونما رادع!

تحطيم دماغ رجل بعد أن ساهم طويلاً بتشكيله، ألم يودع في داخله الكثير من الثوابت التي لا يأتيها الباطل؟

غير أن ما نبا عن السكون، أعفاه من المبررات والحجج، تنبه إلى سيارة، لاحظ قبل فترة، أنها تلاحقهما من بعيد، تقف حين يتوقفان، وتسير حين يسيران.

«يبدو أننا مراقبان!!»

تعمد التباطؤ، ثم ارتد نحوها، حاذاها وتمشى إلى جوارها، فرأى سليم جالساً في مقعدها الأمامي إلى جوار السائق. توفز حسين واستعد للعراك، لكزه فاتح:

«إنها دورية من رجال الأمن».

الرقابة عادت ليلية ومشددة، وارتفعت سويتها بوجود سليم، فاستسلم إلى وداع جائر، مادته الشوارع والأزقة والمحلات المغلقة وأكياس الزبالة، يتنسم أبخرة النفايات المتخمرة، ويغبط سكارى يلغطون ويترنحون، وقططاً جائعة وشاردة، وجرذاناً تسلّ مطمئنة.

مشاهد كالحة تثير القرف، أبنية الحجر، والكثير من الإعلانات الكبيرة والصغيرة، الملونة والمضيئة، الطويلة والعريضة، تعتلي واجهات السخام. الخواء السقيم، يكسر حدة الوداع التافه، بحزن موجع، وفراغ ينضح بمعالم تتفسخ، هاله ما آلت إليه من قبح وبشاعة. ما جعل الفراق عبئاً وأكثر عبثاً. فليرحل دون آلام مبرحة لم يعد القلب قادراً عليها. حان الوقت لكي لا يحب مدينته، الأجدى أن يكرهها.

في لحظات الفراق، الحب هو الألم. هذه مدينة لا يحبها، دمشق الأخرى حطت رحالها في الذاكرة. لن يتحسر على ذكريات هي الأخرى ماتت. كان يودع مدينة لا يعرفها، أما تلك التي يعرفها فقد فارقته قبل أكثر من عشرين عاماً دون أن يدري.

آلمه أنه صار رجل الماضي لا المستقبل.

المستقبل هو الموت.

التفت نحوه، حسين لاذ بالصمت، تمنى لو يعتذر منه. أوقعه في محنة، كانت محنته وحده، وشاركه إياها. معاً في السراء والضراء، لا، لم يغدر به، إنها مأساته، لكنها حقيقة، حقيقة لا تخصه وحده، فلماذا يبعده عن هوة ليست أكثر من تساؤلات؛ ماذا لو كانت العلمانية إشكالية دخيلة، أو لم يكن الدين عائقاً، ولا الإسلام هو المشكلة، ولا الحل، والحضارة لعنة، ولم تكن هناك أية حقيقة على الإطلاق سوى الموت، وهذه الحياة لا شيء، وما نحن إلا أشباح نختلق حياة نتوهم فيها سعادتنا وشقاءنا... وما نفعله من خير، وما نقترفه من شر، كله سيان...؟!

لم يودعه، قال له، سأراك قريباً.

□□□

اعتكف في غرفة النوم، فتح أدراجه الخصوصية، وأخرج ما فيها من أوراق وصور، رتبها ومزق كل ما لا يرغب في أن يطلع عليه أحد من بعده، لم يترك أوراقاً تدل عليه، إلا كمستهلك للماء والهاتف والكهرباء، وإيصالات بالضرائب وفواتير الأثاث المنزلي، بعضها بالتقسيط ولم يكن مربحاً. واحتفظ بسند ملكية البيت

وبأوراق أخرى للأجهزة غالية الثمن. كان يكفي الورثة عناء البحث ونفض الغبار عنها.

ولأول مرة، يفتح الدرج الذي يخص أشياء تركتها الراحلة من مخلفات مرضها، فأتلف صور الأشعة والطبقي المحوري والرنين المغناطيسي، وتخطيط القلب، وتحاليل الدم، وغيرها من تحاليل عن وظائف الكبد والكلية.... كانت تبين مراحل ثبات مرضها الطويل ثم تدهوره السريع، ووصفات الأدوية المعالجة والمسكنة والمخدرة التي لم تشفها، أو تخفف من آلامها. وحدها غيبوبتها، أو نصف غيبوبتها، أو عجزها عن الكلام وفقدانها الإحساس، كانت أكثر رحمة بها من الدواء.

حانت نظرة منه إلى صورة زوجته إلى جانب السرير، فأحس بالسرور، لم يكن وحيداً. وتخيلها إلى جواره، تبدو كما في الصورة تماماً، صحيحة البدن، تبتسم ابتسامتها الرقيقة التي لم تفارقها. راوده خاطر مبهج، إنه ذاهب إليها، وإذا لم يجدها، فلن يقلق، ما دام فضاء واحد سيضمهما معاً.

لم يشعر برحابة الماضي، إلا عندما خرج إلى غرفة القعود. أجال بصره بين التذكارات المعلقة على الجدران وفوق الرفوف والرسائل المتوارية في الخزانة المغلقة الباب على ذكريات طافحة بالسرح، والكثير من الأمل، ونزر يسير لا غنى عنه من اليأس، وأفراح صغيرة لم تنل منها منغصات مستديمة، تروي هواجسها الضئيلة، وفوضى مشاعرها، وخلافات عابرة لم تترك أثراً، وسوء فهم وتفاهم لا مفر منهما، بددتها وثائق حب سألته المحافظة عليها، رسائل عزيزة على نفسه. خطر له أن يأخذها معه إلى مثواه

الأخير، لن تعني شيئاً لغيره، سوف يعبثون بها، وتُوْدَع في السقيفة، ربما يتخلصون منها.

كان عاجزاً عن وداع حياة تبعثرت بين الجدران والأوراق، حَزَمها في لفة واحدة، سيعطيها لهيفاء ويسألها التصرف بها، لا قدرة لديه على حرقها. ليته لم يكن يدري بموعد موته، الموت المفاجئ نعمة، ورحمة لا تنكر، لمن يأتيهم بغتة، يوفر عليهم ذكريات وإثارة لواعج، ويدعها للآخرين.

شمل بجرأة ما تبقى من معالم بدأت تأفل متلكئة، أفسح لها السبيل كي يرحل خالي الوفاض منها، بعيداً عنها، عساها تُسهِّل له طريق الذهاب، لم يبق سوى إجراءات تتسارع بلا روح، ويشرف عليها بحنكة. كان قد احترف الوداع، وجربه مراراً عندما سافر لحضور مؤتمرات في عمان وبيروت والقاهرة، سفر تعقبه عودة، فكان لا يكلف نفسه ولا غيره مجاملات الوداع ولا الاستقبال. هذا السفر يشبه ما سبقه، وإن كان أقسى، وبلا مشقة، ولا تعقبه عودة.

معالم قائمة، وتعانده، رحيله يتقاعس، واختفاؤها يتعثر. أحس بالأسى، وهو ما كان يخشاه، لم يكن يغادر الأشياء والأشخاص فقط، بل ويتركهما مبعثرين، نهباً للذين لا تعنيهم التفاصيل الأكثر حميمية، وقد تكون مثار سخرياتهم، بالنسبة إليهم ستكون تافهة، بينما كانت حياته كلها؛ الشقية والجميلة... والأجمل.

ويدرك فجأة وبعمق جارح، وألم هائل، ووعي مرعب، بحجم الكون كله، وبذهول لا يحد ولا يوصف، وبما يفوق صدمة لا

نطاق ولا تحتمل، أن هذا الوداع يختلف عما سبقه وعن كل ما تصوره؛ إنه الموت...

فناء مطلق، وذهاب أبدي إلى حيث العدم واللاشيء.

36

مسألة إيمان

عانقها في اللحظة التي فتحت له الباب، أراح رأسه على كتفها، وانفجر باكياً، يذرف دموعاً اختزنها طوال يوم قضاه يودع العالم بقلب كسير وبلا عبرات. في داخله حطام هائل من الأفكار، لم يتمكن من لملمته، وتماسك جاهداً ليستطيع الوصول إليها.

«كفكف دموعك».

قبل أن يتهاوى، قادته إلى غرفة القعود، وجلست إلى جواره تخفف عنه. انطوى إلى جانبها، قال لها:

«لقد انتهيت».

كان بلا حيلة إزاء خوف امتلكه وعطل تفكيره وشلّ مقاومته.

«لا أكف لحظة عن تمزيق روحي».

نجيبته أنه ليس بمقدوره الاستسلام للغيبيات، حتى بعد تخليه عن منطقه الصارم. كانت صلابته الفلسفية تحميه وتساعده على مجابهة العالم والاستخفاف بالموت. حاول أن يفسر لها ضائقته النفسية التي لم يكن يتصورها هكذا:

«أخشى من فرط خوفي أن أؤمن».

«لم لا؟!».

«هذا أمر انتهيت منه منذ زمن بعيد».

«لا، لم تنته منه، الأمر يعنيك، ولا يمس أحداً غيرك، لا تفكر بهم، وبما سيظنونه عنك. الصورة التي اعتنيت برسمها وأردت أن تكونها، هل هي أنت؟».

«من أنا إذاً؟!».

«هل خطر لك يوماً أن تسألني، فيما إذا كنت مؤمنة؟».

نظر إليها مستغرباً، بدا من تعابير وجهها أنها ستفاجئه بأنها في الطرف الآخر. فلم يصدق. ما الذي يجري، وهو لا يدري عنه شيئاً؟!

«لكنك لم تعيري الإيمان اهتمامك».

«أصلاً، ما الذي تعرفه عني؟».

«لا تكذبي عليّ».

«عندما أكون معك، لا تكون معي. أنت لا ترى ولا تتكلم إلا مع

نفسك، فتعتقد أنني مثلك. كذلك زوجتك لم ترها إلا من خلالك. كانت مؤمنة، وكان إيمانها بسيطاً وقوياً».

«لم تعول عليه».

«لا تفكر فيها كما ترغب أنت».

«الله أحبطها أكثر من مرة».

«بل ساعدها، اعتقدتْ بأنه كان يجربها بعدم الإنجاب، وأرادت أن تكون أهلاً للامتحان. اقتنعت ولم تتذمر، أعانها إيمانها في التغلب على ما حُرمت منه، وشد من أزرها في مرضها. ثمة أوقات كانت تصحو فيها من غيبوبتها، وتخدعك بعينيها المغلقتين، وتخفي عنك كل ما يمكن أن يخفف من عذاباتها، آلام يشق على البشر احتمالها إلا بالأدوية المخدرة. يظن من حولها أنها تتناولها، وكانت تتخلص منها. لم تأبه بالألم هل كانت ترغب فيه؟ لا. أرادت التعرف عليه، وكانت طاقتها على التحمل خارقة، أو أن الله خفف عنها. فسر لي، لماذا كانت تفعل هذا؟ هل هناك تفسير لديك؟ أنا عاجزة. لا تنظر إليّ مستغرباً».

«أنا لا أفهم».

«إذا ظننت أنها أرادت التكفير عن أمر ما، فأنت مخطئ، لم تفعل شيئاً تكفر عنه. كانت مجرد امرأة صغيرة، طيبة مؤمنة».

«في داخل كل منا هامش لا عقلاني».

«خلال مرضها، لم يحمل إليك ما كانت تقوله أي معنى، فسمعت بربرة وغمغمة وجمجمة وأصواتاً أخرى، وصفتها بهديل الحمام، لم تكن مشكلتها مع الألم ولا مع الإيمان. كانت تسأل لماذا خلقت، ولماذا ستموت، ولماذا جاءت إلى الحياة، ولماذا ستخرج منها، وإلى أين ستذهب؟ كانت تخشى جوابك الذي لن يكون سوى... إلى لا مكان».

«كان من الممكن أن ...».

«محاضراتك الغبية لم تقدم لها أملاً. الاستسلام أسعفها، لا الأطباء. فدعت الله أن يهديك ويغفر لك، ليتك أصغيت إليها جيداً».

«لكنه لم يشفها».

«إذا شفت المساحكة، فقد تركها للعلم».

«في تلك الأيام، أنا أيضاً آمنت، واستعنتُ بالصلاة والأدعية».

«ذلك الجانب اللاعقلاني الهامشي في داخلك، ماذا تقول عنه؟!».

«أقول إنه زائف».

«ولاه في ذلك الوقت، لتصدعتْ».

كان بوسعها الآن في هذا الظرف، أن تدفعه إلى المزيد من الانهيار، وأن تسحقه، باستغلال ما يتستر عليه؛ احتفاله بالذكرى السنوية لعيد زواجه. ألم تنطو ذكراها المتجددة على الأمل بعودتها!! من بوسعه أن يسامحه على شطط فكري تافه كهذا؟

«ألم تمارس في السر كل ما رفضته في العلن؟ لجأتَ إلى تمثيلية صغيرة، بينما استطاعت هي أن تعبر إلى حقيقة كبرى إلهية».

لا يريد أن يفكر، ولا أن يتذكر، كان في حالة متردية من البؤس، ويعرف السبب، لم يفطن إلى خديعة زوجته، كانت مؤمنة سراً، وتتعذب خفية عنه. لم تتعاون معه، أو تصدق ما بذله من جهود إيمانية، فهل يصدقه الله؟ قبلت بنصيبها من المرض والوجع، لماذا لم يقبل بما قبلت به؟ هل يكفي القول إن الموت كان شأنها وحدها، وليس شأنهما معاً؟

بل يريد أن يفكر وأن يتذكر، وأن يخاف أيضاً، ليس من التكفيريين الذين كفروه وطالبوا برأسه، ولا من الأجهزة السرية ومخططات تتطلب التضحية به. كان خائفاً من أنه أضاع الطريق، وما بات ينتظره من إحساس غامر بالعزلة والندم.

لم يكن أعزل كما هو الآن، القضايا التي شكلت معنى حياته، ورفع لواءها ودافع عنها، وكان مستعداً للموت في سبيلها؛ لم تعد موثوقة. العلم والعقل، لا يعنيان الخلاص ولا الحل بعدما أفرط في الإيمان بهما، فأصابه العمى، ولم يحاسبهما.

ما الذي قدمه له العلم خلال مرض زوجته؟! تحاليل وصور وأدوية، انعكست عليها بالمزيد من العذاب، وعليه بأمل مستحيل. لماذا وجه نقمته إلى الله، ما دام أنه غير موجود، وحمّله عبء عدم شفائها، ألم يعجز الطب؟!

اجتاحته مشاعر خليط من قسوة الإحباط وروعة الانكسار، إزاء

اكتشاف حقيقة غابت عنه، مع أنها كانت نصب عينيه. هذه المرأة أحبته أكثر مما أحبها، تمنت له الخير، ولم تشأ أن تحرفه عن طريقه ولا التأثير عليه، أرادت أمراً واحداً، ألا يفقد رجاءه في الله. لكنه فقده وفقد معه رجاءه من العالم، هل يستعيدهما؟

رأسه لا يستوعب كل هذا الانقلاب، إلى أين سيأخذه يا ترى؟! إلى مجاهيل أخرى، هل يصبح رجل الخرافة لا العلم؟ هل يؤمن بما كفر به، ويكفر بما آمن به؟! فات الوقت، لا رغبة لديه في الخوض بالأوهام ولا في حقائق إضافية. لقد عرف ما تمنى ألا يعرفه أبداً، ليته ينسى.

الآن انهارت مقاومته، الآن تداعت مكابرته. الآن، لماذا كل هذا يحدث دفعة واحدة؟ الآن ما الفائدة؟ الآن لا أحد بوسعه أن يمد يد العون إليه، كان وحيداً أمام الموت.

... وسقط في نوم أشبه بالموت.

□□□

في الصباح، كان كما تركته البارحة ليلاً، مشلوحاً على الصوفا، أشلاء رجل، أنهكه وعيه الكوني بالزوال النهائي، حاول استعادة وعيه الأرضي، والتسرية عن نفسه بذكريات دنيوية، وبمشاغل حياتية مصيرية، كادت أن تحول اتجاهه نحو عالم لا يخضع لترتيبات العدم والفناء، وإنما لعالم البقاء... لكنه أخفق، ما زال يراوح بينهما.

قررت لا بد من إيجاد مكان يؤويه خارج البلد سواء كان الذين

يسعون إلى قتله رجالاً أم أشباحاً، أصوليين أم جهات محلية ودولية. ستبذل جهدها، عسى تنقذه من الحقائق الدامغة لا من الأوهام العارضة. كان أملها كبيراً، ما زال في الوقت متسع. ستلتمس من السفارات الأجنبية منحه حق اللجوء السياسي.

أغلقت الباب خلفها، وإذ التفتت صوب الشارع لتستوقف سيارة، أصبحت على سباق مع المفاوضات، قبل أن تُستأنف أو تفشل.

37

لقاء على حافة الحلم

لم يكن كما ظنت... رجلاً خامد القوى، منهكاً وعلى وشك الزوال، أو رجلاً لا يريد أن يصحو. كان بكامل عنفوانه وحضوره الذهني، يدري أنه يرى ويشارك في ما يشبه حلماً على صلة غامضة بالخيال والواقع.

كان في حضرة الراحلة، أو هي في حضرته، تزوره بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على غيابها. كانت أكثر من خيال، وأقل من امرأة من لحم ودم، ذات حضور بهي ولافت لا يطيقه حلم كئيب ولا خيالات مشوشة. حتى أنه عندما رآها، اعتقد من فرط ما تراكم في ذهنه من عمليات فراق متوالية شائكة وأليمة، أنه في طريقه إلى مقابلة لا تحتمل وزر كل ما سبق، وفي سبيله إلى وداع أخير، لا يصح وقوعه، قبل تصحيح ارتباطه العاطفي بها، لم يكن حبه لها أقل من حبها له. من هنا يبدأ، ثم إلى وداع يعقبه لقاء لا

فراق بعده، ما دام سيلتحق بها، فليرحل نظيفاً من التقصير وتبكيت الضمير، خفيفاً في فضاء مفتوح للصعود، ولم يكن شاقاً، قفزة صغيرة، ويرتفع كما القديسون إلى السحاب، ليمضي مع الغيوم نحو السماء التالية، مثلما كان يرى صورهم في الكتب المصورة، حول رؤوسهم هالة، من سماء إلى أخرى، حتى السابعة، ومنها إلى الملأ الأعلى.

هنا توقف الحلم عن الجريان في هذا الاتجاه. فكر، صعوبات كثيرة ستواجهه، ولن يفلح. فعدل عن وجهته، دون التنازل عن الغاية منه. سيتخذ موقعاً أفضل، يشرف فيه من قريب وبعيد على ما سيجري في آن واحد. ينظر إليه بمنظار طالما تمناه من هذه الزاوية، أي أن يكون في داخل الحلم وعلى حافته معاً، يراقب الحلم وينغمس فيه، يجرب الوهم مع قدر من الحقيقة، يساعده على إجراء التداخل بينهما، والتلاعب في عباراتهما، فيكسب مساحات على حساب الخيال، بإدراجه في تلافيف الواقع. لا سيما أنه بعد زمن على فقدانها، يستحيل أن يلتقي بها في الحلم، كي يُوَدِّعها في زمن مستقطع من الواقع، وإنما يغتنمها فرصة ليجدد علاقة لم تعد ملكاً للماضي، بل تبحث عن أفق لها في عالم قادم، حتى لو كان ما يجري غير محسوب ولا منتظر. كان جاهزاً، وإن كان على عجل، فذكرياته معها، المتوقفة عند القديمة منها، يفترض أن تتخذ منحى آخر، يعوض ما فاتهما من زمن كانا سيتشاركان فيه، ويضيف إليه ما تشكل على حدة بعد فراقهما.

تلبس روباً يشبه الرداء الأبيض الذي كانت تلبسه في المستشفى، يرمز إلى آلامها الخفية المستوحاة من الشقاء المبارك بالإيمان. كانت مضطجعة وقعدت. نزلت عن السرير ووقفت تتأمل ما

حولها. الروب محتشم سابغ الطول، لا يكشف عن ذراعيها ولا مفرق ثدييها، أو صدرها وساقيها؛ ذيله يشحط على الأرض. فرمز أيضاً إلى نقائها، بدت كأنها في صورة التقطت يوم زفافها.

على الرغم من فرحه الشديد برؤيتها، كان إحساسه بظهورها مرهقاً، أشبه بدفقة مبهرة من جمال عاصف لم يجربه من قبل، فأغمض عينيه، لن يستطيع أن ينوء به ولو للحظة عابرة من الزمن. ماذا لو دام دونما انقطاع؟

... والواقع شكل عائقاً، لولاه كان أكثر حرية.

أراد أن يفصل فيما إذا كان صاحياً يتخيل والدنيا ظلام، أم كان يحلم، والحلم قوي الإضاءة؟! لم يحدد أيهما، فالظلمة انقشعت بحضورها وأضاءت الخيال إن كان تخيلاً، أو الحلم إن كان حلماً. لم يسيطر على المشهد، إلا عندما تأكد من أنه أفلح في التراجع بضع خطوات، ولم يعد مستغرقاً فيه، ولا غائصاً في غماره، يتشبث بقدر ضئيل من حياة، ما زال على قيدها، ولم يكن كافياً. كان ضرورياً فقط، لولاه لما أحس بالتوازن، ولو مؤقتاً.

وجه نضر، بشرة ناعمة، خدان متوردان، وعينان تغزلان بريقاً يشع بالبهجة، شفتان انفرجتا قليلاً، ونطقتا باسمه. حدد زمن تألقها وبهجتها، كان قبل اكتشاف المرض. تذكر قبل أن ينبس بحرف، أنه في حالة وداع متقطعة، قبلها كان في حالة انتظار مستديمة، استمرت طويلاً، دون أي أمل، إلا تلك التوقعات الكاذبة لعودتها.

قال: قارب انتظاري لك على الانتهاء.

قالت: شقت عليّ توقعاتك، لقد بالغتَ وكنتَ جاداً أكثر مما

يجب، مع أنني لم أشر إلى عودتي، إلا من قبيل الغيرة، لكي لا تتزوج بامرأة غيري.

قال: قدومي إليك، متوقف عليهم.

قالت: هل هم جادون في قتلك؟

قال: بالنسبة إليهم لا جدوى مني، إلا ميتاً في وقت يحددونه. سأتقيد بتعليماتهم كي لا أتأخر عليك. لكنني أجهل الزمن الذي ستأخذه المسافة التي سأقطعها للوصول إليك.

قالت: مهما طالت، لن تأخذ أكثر من لمح البصر.

قال: إذاً، أنا قريب منك.

قالت: هل تسمح لك علمانيتك بأن تصدق هذه الأمور؟

قال: ما دامت ستحدث، فأنا أصدقها.

قالت: العقل البشري لا يستسيغها.

أحس بالخجل، كانت تحرضه على التمسك بمواقفه، لكنه وهو في هذه الحالة لا يهمه إعادة النظر فيها، إنه لا يبحث سوى عن مكان هناك... إلى جوارها.

أدارت ظهرها إليه. ناداها فالتفتت إليه قائلة:

أين العقل في أمر هو إلغاء للعقل؟!

□□□

عادت هيفاء ظهراً، لم تجده، فألقت عنها وإلى حين عناء ثقيلاً.

كان بذهابه إلى عمله في المركز، قد أعفاها من إخباره بأن الأمريكان ومعهم الإنكليز والفرنسيون لا يرون خطراً جدياً على حياته. ولقد حضوا سابقاً السلطات المحلية على حمايته، بعد تلقيه التهديدات عبر الإنترنت، ويعتقدون أن الدولة لم تقصر في هذا المجال. من طرفهم يرغبون في المساعدة، لكنهم لا يستطيعون التدخل في شؤون تمس أمن الدولة، ثم إن تحركهم في الداخل محدود جداً، إن لم يكن معدوماً. ومهما يكن فسوف يتابعون باهتمام بالغ قضيته عن كثب بوسائطهم الذاتية.

وعندما أثارت مسألة تعاون فاتح مع الجهاز الدولي لمكافحة الإرهاب، وطالبتهم بما وعدوا به، تطابقت أقوالهم:

«كوني على يقين، ليست هناك أية قنوات خلفية أو علاقات سرية، تربطنا مع أية جهة أو شخص في بلدكم».

لم يكن عسيراً عليها إدراك أن السفارات الأجنبية التي كانت تتبارى لاصطياد لاجئين سياسيين مضطهدين للتشهير بالدولة، قد غسلت يديها من العلماني.

38

الانسحاب التدريجي

النهاية تأخرت، زادت عن أسبوعين، وأكثر قليلاً.

سبقها بعض المتغيرات، لم تحصل دفعة واحدة، تمت على مهل، وتتالت بالتدريج، تنبه إليها في حينها، وكان ذلك بعد خروجه ظهراً من المركز.

على غير المعتاد، لم ير الأهبل يتمشى على الرصيف المقابل الملاصق للحديقة، صادفه في سوق المزة لدى نزوله من السيارة في موقف الشيخ سعد. كان مقرفصاً، لمحه من خلل زحام المارة، مستنداً بظهره إلى عمود، يقع بين دكانين، مستغرقاً في النوم، يهلوس في عزّ دوامه، بينما عليه أن يكون صاحياً ومتأهباً، يسعى وراءه، وفي انتظار الأوامر. اعتقد أن الأهبل انتهز فرصة تغيب المراقب المولج به، وتقاعس عن أداء واجبه.

كذلك في الصباح، تخلف عن وقوفه أمام البيت، ولم يسبقه إلى رصيف المركز. لم يعد غيابه تقاعساً عن العمل، الأغلب عطب أصاب السيارة المكلفة بتنقلاته، مع أن تحت إمرة الخبير سليم أسطولاً من السيارات!! في اليوم التالي، كانت السيارة جاهزة على الرصيف، والأهبل ليس داخلها ولا خارجها!! يبدو أنه سبب الإهمال الحاصل، وتقصيره ناجم عن كسل لا عن صحوة ضمير، ما الذي سيجعله يتردد في عمل قالوا له إنه سيرضي الله به، ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويكسب من ورائه الجنة وما تحفل به من طيبات، عدا أن المهمة الموكولة إليه بسيطة لا تحتاج إلى إعمال ذهن، مجرد أنه سيندفع نحوه ويغرز سكينه في مكان ما من الصدر أو الظهر أو البطن، إن لم تزهق أنفاسه، سيتولاه غيره ويجهز عليه بطلقة من مسدس أو بندقية.

مضى يوم آخر، والأهبل غائب. لا، لن يدعوا الخطة لمزاجه يعطلها. الأغلب أصابها تعديل استدعى إبعاده، أو استغنوا عنه، واستعاضوا بغيره، سيظهر قريباً، لكنه لم يظهر... أو عينوا بديلاً له لا يتحتم ظهوره في الشوارع، حسب خطة لن تنفذ كما كان مفترضاً في وضح النهار، خلال المسافة الواصلة بين السيارة والمركز، أو بين السيارة ومدخل بناء بيته، وإنما ليلاً والناس نيام.

كان مجرد خاطر، لم يأخذ به، الخطة كانت دقيقة، لا تحتمل إجراء تبديل في شخص المنفذ، لا سيما في الأيام الأخيرة، مستحيل أن تخلو الخطة من الأهبل المضمون من ناحية الهيئة والتوجيه، فاستبعد أي تغيير طرأ. شيء ما حدث، توفير بالمصاريف أم أنه في إجازة؟ تبريرات واهية، لا تخطر سوى للموظفين أمثاله، هذا النوع من الخطط لا ينال منه أي تقشف في

النفقات، ولا يُسمح للمتعاونين تحت هذا الظرف بأي إجازة، حتى المرضية منها.

وعندما كاد أن ييأس من رؤيته، صادفه مقرفصاً ونائماً في مكانه من السوق، فتجرأ على الاقتراب منه. انحنى وتفحصه؛ ملابسه الممزقة لا تخفي لحمه وعظمه، فلم يظهر طرف الخنجر المشدود حول خصره، أو أي نوع من الأدوات الحادة. كان منزوع السلاح تماماً!! الأهبل غير المسؤول عن أعماله، لم يعد خطراً عليه؛ أهبل مسالم، لا يقتل ولا يجرح. إذاً من أين سوف تأتيه الضربة الأولى؟!

عندئذٍ تلاه التعديل الأهم، أو التغيير الأكبر!!

قبل الدخول إلى البيت، رفع عينيه إلى البناية المقابلة، النافذة مفتوحة، ولا منظار مسدد، أو أشباح يتخايلون في الخلف. البارحة لمحهم، ولم ينتبه، هل كانوا يمارسون عملهم كالمعتاد، أم يخلون المكان من المعدات؟

إزاء النافذة، التي باتت مثل غيرها من النوافذ، مشرعة على الفضاء، تذكر ما قاله له سليم حول الإلغاء التدريجي للحماية. إذاً، باشروا بالخطة، لكن على المدى الطويل، لولا الأهبل لما انتبه إلى هذا الانسحاب المفرط في تدرجه، إلا إذا كان التأخر لأسباب بيروقراطية. ولم يكن سبق الأهبل في الانكفاء، إلا لأن الخطة تملي عليهم كفّ الأشخاص عن العمل في الشوارع، بالتوازي مع الانسحاب من المواقع، بإخلاء المعدات الثقيلة والخفيفة، ولا بد أن المرئية منها والجماعات غير المرئية، تأخذ وقتاً أطول من انسحاب شخص مفرد كالأهبل، ينسحب من

الصحو إلى النوم، ويُجرد من سلاح صغير لا يسترعي الانتباه.

ما أثار غبطته، أنه بات على انسجام معهم، يتابعهم لحظة بلحظة، لا يغفل عن حركة منهم. فلم يفته التراجع المتسلسل لمظاهر الحماية المشددة نحو تحجيمها وتقنينها، ثم تلاشيها، تجلى بتناقص الأشخاص مجهولي الهوية، ومعهم السيارات الرديفة المموهة بالزجاج الدخاني، ثم اختفائهم جميعاً، دون أن يتركوا وراءهم أثراً فوق الأرض، فلا رجال يستوقفونه ويسألونه عن عنوان، أو يلتمسون منه إشعال سيجارة، ولا متسولون يلحفون عليه بطلب بضع ليرات، أو مراجعون مشبوهون، ولا سيارات يتلامح وراء زجاج نوافذها متلصصون، ذوو وجوه متجهمة وشوارب متهدلة، أو سيارات مسرعة تميل نحوه، وتكاد أن تدهسه، ثم تتوقف على بعد خطوتين منه، مصدرة زعيقاً حاداً.

عندما لم تعد خطواتهم ترافق خطواته، ولا عيونهم ترصده، بات يمشي ويفكر ويتأمل وحيداً، كان إحساسه بالانطلاق غريباً، بعد أن فارقه وكاد أن ينساه. قال لهيفاء:

«هل أنا في حلم، أم أنني خرجت من كابوس؟».

قالت ضاحكة وبحيرة:

«كلاهما، كنتَ في كابوس، خرجتَ منه إلى حلم».

39

الربيـع

النهاية التي تأخرت قليلاً، حلت بعد أقل من ثلاثة أسابيع، أخذت وقتاً، كي تحدث. ولم تكن كما توقع تماماً.

من نافذة المركز، آزرته الطبيعة على طريقتها، فالطقس اعتدل، بعدما انحسر البرد. ففي اليومين الماضيين، بات النسيم أرق وألطف، درجات الحرارة، آخذة بالارتفاع وإن ببطء. الحديقة بمرمى بصره، تعيد إحياء جمالياتها بروية، وتعمل بأناة وبشكل شامل على ترتيب التناسق بين اخضرارها الساطع، ومقاعدها المبعثرة، ومماشيها الوارفة بالظلال... وروائح التربة. على هذا الوقع المتمهل، استهل الربيع قدومه.

وكأن كل ما حدث ذهب مع الشتاء الآفل.

من مكانه وراء نافذة المكتب، لمح صديقه بملامحه الطفولية جالساً على كرسي في الحديقة، وقد تصالبت يداه على صدره، وكأنه على مقعد في المدرسة، يتأمل مثله إطلالات الربيع، يجمعهما رغم المسافة الفاصلة بينهما، رؤية مشهد واحد، وإن كان كل منهما يراه من موقع، أحدهما يشرف عليه من العالي، والآخر داخله، يرى جزءاً منه.

فاجأته فكرة طريفة، صديقه هو الرجل الوحيد الذي لم يودعه، رغم أنه الشخص الذي كان واثقاً من موته، حذره ولم يكن على صواب. ها هو نجا!! صديقه سيقول بأن خللاً أصاب السيناريو، بينما هي تقلبات سياسية لا يحيط بها سيناريو مهما كان محكماً.

أدار صديقه رأسه ورفع نظره إليه. امتنع فاتح عن دعوته للصعود إلى مكتبه، أو النزول إليه في الحديقة، إذا كان صديقه حدد اليوم موعداً للقاء معه، فهو لم يُعلمه به. غير أن الحديقة نفسها، أعادت إلى ذهنه المعنى الأزلي في تجدد الطبيعة، عندما تبدل هيأتها في كل فصل من الفصول الأربعة، مثلما الآن من الشتاء إلى الربيع، وفي وضعه المستجد هذا، كان انتقالاً من حالة أشبه بالموت إلى حالة أشد التصاقاً بالحياة؛ لغزٌ، لا يفسره العلم، كما فعل مع الطبيعة، وإنما الأرشيف السري لدوائر المخابرات الدولية والمحلية.

كيف حدث هذا؟! لا بأس بالاستماع إلى اجتهاد يتعلق بانتقاله بين الحالتين، من الموت المسلط عليه، إلى أمان ينعم فيه بطمأنينة تبدو بلا نهاية. كان بمقدور صديقه الذي يعرف الكثير، أكثر مما

يجب، الإدلاء برأيه حول ما طرأ من تحولات على قضيته، وإن من وجهة نظره، معلوماته لا تخلو من بعض الحقائق.

لم يقاوم فضوله، نزل إلى الحديقة، وفي ذهنه أيضاً أن يسأله هذه المرة عن اسمه، فهو لم يتذكره حتى الآن. جلس إلى جواره على الكرسي. نظر إليه بإعجاب، ما يلبسه كان منسجماً بعضه مع بعض، البذلة والقميص وربطة العنق والحذاء، ألوانها ربيعية زاهية تلائم الجو المحيط. قال معلقاً على ما جرى وانتهى، من خلال المشهد المترامي أمامهما:

«العالم يعزف على إيقاع الحياة».

كان يُشهده وباستفزاز على ربيع حلَّ متوافقاً مع بداية متفائلة أخذت مجراها بقوة، تبدت في هذا التبدل اللافت؛ بقاؤه حياً، رغم ما مر به من أزمات. هز صديقه رأسه، ولم يتكلم.

كاد أن يسأله عن اسمه، لكنه لم يرد تحويل مجرى الحديث، فسكت في انتظار أن يسمع منه تعليلاً. صديقه ابتسم فحسب. فذكّره بالسيناريو المخفق:

«يبدو أنهم عدلوا عن قتلي».

حوّل صديقه بصره عنه، ونظر بعيداً.

«هل أنا محظوظ؟».

أراد بهذا التساؤل أن يعفي صديقه من التفسير، برد إنقاذه إلى

الحظ، الذي يفسر ما لا يفسر. فنجح في إخراجه عن صمته.

«يا صديقي، لا تتفاءل كثيراً، حياتنا بالنسبة إليهم، لا تجري كيفما اتفق. ينبغي ألا يفوتك أن المفاوضات التي لم تستمر، ولم تنته، مجرد أنها توقفت، إلى متى؟ ربما كانوا ينتظرون جولة أخرى، أو لا ينتظرون. الأمور مدروسة، لا تشغل بالك بها».

«لم يصلني مثل هكذا خبر».

«هذا ليس خبراً يُوضع في التداول».

«هل ما زلتُ مهدداً؟».

«من يدري؟ قصتك رغم أنها تتماوت من يوم إلى يوم، محفوظة لديهم. عندما يحتاج الأمر، سيبرزونها، أو يجدون قصة أخرى. عادة يختارون، أيهما أسرع، أضمن، أكثر إقناعاً، لا تهمهم التكلفة، ما دام الآخرون يدفعونها. النهاية لم تأت بعد. بل هي مؤجلة. ذلك لا يعود إلى القصص، السيناريوهات جاهزة، وإنما إلى الوقت والظروف».

كان تفسيره مثيراً ومقلقاً؛ لا يخلو من مسحة قهرية، ذكرته بتآزر مفاعيل البشر والقضاء والقدر، ما أعاد إلى ذهنه نمطاً من التدين المرعب لا يدع مجالاً للاعتراض ولا للإرادة. فأحس رغم ما حاق به من ظلم، قد يتكرر، أن نقاشاً سابقاً، ما زال معلقاً بينهما، يجب استكماله، سيستهله في الاتجاه الذي يلائم صديقه وحسب منحى تفكيره، لن يوفره خلالها ولن يستثني معلوماته ولا ثقته بنفسه، سينسفهم جميعاً:

«أي ليس كما زعمت مرة بأن تغيير حياتنا وحظوظنا بأيدينا».

«لم يحدث ما يغير أفكاري».

«ألا تلاحظ أنه مهما فعلنا، فالأجهزة السماوية تقرر مصائرنا، وهي التي تحرك الأجهزة الأرضية».

«يبدو أنني لم ألحظه».

قالها ساخراً مع ابتسامة استخفاف، فرد عليه فاتح ساخراً أيضاً:

«قل لي، هل أودعهم الله أسراره، أم ترك مكانه فارغاً، فحلوا محله؟».

«دع هذه التشبيهات المجافية لرب الكون، الله لم يودعهم أسراره ولم يترك مكانه فارغاً. الله استخلف البشر على الأرض. افهم، الحياة مجال مفتوح للفعل والتدافع والصراع والمعرفة والتآخي والقتل والتدمير... ولإعلاء كلمة الله، اختر ما تريد فعله، اختر ما ينبغي الدفاع عنه. يا صديقي، أرجوك أن تفهمني. ما حال الحرية التي نتمتع بها. هل هي لارتكاب الجرائم فقط؟ لا، بوسعنا أيضاً مقارعة الشر.. هناك الأخلاق».

الأخلاق ثانية... الحجة الخالدة، ما أبطل رغبته في تجديد النقاش بينهما، نقاش فات أوانه، من فرط ما قتل بحثاً. وأراد أن ينهيه بسرعة، ودون تطويل:

«ماذا لو طفح الشر، ألن يتدخل الله؟».

«أتمنى ذلك، لكنه ترك للبشر تدبير أمورهم».

بغتة تذكر، فسأله:

«ما أخبار أخيك؟».

«ما زالت مقطوعة».

«أهو حي؟».

«لا أعرف».

وتبدى على ملامحه ألم طفولي، كان عجزاً مطبقاً.

أحس فاتح بالأسى يلفهما معاً، ما دام أنهما تشاركا بالعجز، فكلاهما بحاجة للعون. أزعجه ما حل به من يأس، قبل قليل كان إحساسه بالسعادة طاغياً. وتمنى من صديقه الأكثر تجربة أن ينجده، ويساعده بخبرته الأوسع بالفعل والاختبار كما بالألم والعجز، على التلاؤم مع الدولة والأجهزة والشر والخير. فانتفض قائلاً بحرارة:

«بذلت جهدي في الاستعداد للموت، وودعت جميع من أعرفهم. ولم يحالفني. الحياة عبء لا يطاق، سأعاني منه كثيراً. في الفترة الأخيرة، ذهب بي الخوف إلى أشد الأفكار حماقة، تراءى لي أنهم لا محالة سيضحون بي. وكنتُ على خطأ، ولكي أذكّرك، كلانا أنا وأنت، وقعنا في الخطأ نفسه، ومع هذا أنا يائس!!».

«لا تيأس، بل فكر ملياً على أي نحو كنتَ رجلاً ميتاً، والآن أنت رجل حي. لقد مُنحت الحياة ثانية. فكر، لماذا وهبت الحياة؟ فكر، بأنه لا يجوز الاستهانة بها. فكر، بأن الحياة نعمة. فكر ما الذي ستفعله بها؟».

وقف صديقه، الحديث انتهى، فوقف أيضاً. تراءى له أنه لن يراه بعد اليوم، قد تعود الخطة للعمل، فرصة لن يضيعها، سيودعه، ويعتذر إليه. لكنه تذكر بأنه كان سيسأله عن شيء، ماذا كان هذا الشيء؟

40

النور

النهاية التي تقترب، أصبحت قريبة جداً، خلال زمن أقل من دقيقة، لكن مختلفة قليلاً... بفارق مسافة لا يزيد على بضعة سنتيمترات.

أدار صديقه وجهه في أرجاء الحديقة، بدا من البريق الذي لمع في عينيه ذلك المدى الذي لا يحد مما يشعر به من إجلال نحو الخالق ومن تعظيم للجمال الذي رسمته ريشته في هذه البقعة الصغيرة من العالم: أشجار الصنوبر والدلب، أزهار المارغريت، خمائل المرجان والحشائش... أظهرت ملامحه الطفولية دهشته العارمة إزاء تناسقها الأخاذ، وتقديره الكبير للصنعة المذهلة التي لا تغفل حتى النباتات الصغيرة، وخباياها الدقيقة جداً، والحشرات والهوام... وتلك التي لا ترى بالعين المجردة. تلمس بأصابعه وريقة صغيرة، وتفحصها بإعجاب، كأنما هناك ما كتب على

صفحتها. ثم انحنى واقترب بأنفه من زهرة ملونة، أخذ منها نفساً.

تذكر الشيء الذي أراد أن يسأله عنه، كان اسمه!! تنحنح وانتظر أن يكمل صديقه تنشقه العميق. لكنه لم يكمله... إذ انتشر مستقيماً بجذعه، كأن شيئاً نغزه في خاصرته!! في السكون الواهي، لم يسمع سوى صوت مختنق، أشبه بخربشة خاطفة.

رآه يتقدم متصلباً إلى الأمام، خطوة فخطوة، ثم ينغلق في مكانه، ويتراجع مخطوف اللون ومتحجر الحدقتين. يرتعش بقوة ويسقط أرضاً، ينسطح مفتوح الذراعين والعينين، الدماء تنفر بغزارة من صدره، شفتاه انفرجتا عن آهة... يريد أن يقول شيئاً قبل أن يلفظ أنفاسه، لكنه كان قد لفظها.

للحظة، تعطل كل شيء في رأسه، صار أعمى، يتلمس فراغاً، فيما مزقت سمعه همسة قاطعة أشبه بخبر خاطف؛ الاغتيال حدث!! انقشع الفراغ وتبادر إلى ذهنه فوراً، أنهم أخطأوا الرجل المقصود. الرصاصة كانت من نصيبه، وذهبت إلى صديقه.

لم يهرب أو يختبئ. النجاة خيانة، لم يكن عدلاً أن يكون صديقه ضحيته. وبشكل لم يكن غامضاً، واتته فكرة بلمع البرق؛ الأمانة تملي عليه اللحاق به.

التفت صوب الأبنية العالية، لمح رأس القناص بارزاً من النافذة المقابلة لمكتبه، البندقية ما زالت مصوبة نحوه. فتح ذراعيه، ولوح له بيديه، ينبهه إلى أن المنظر الأخير من السيناريو بحاجة إلى تصحيح... الرجل المطلوب ما زال حياً.

أحس بالارتياح، لم يعد ما يفصله عن الرصاصة القاتلة سوى

ضغطة على الزناد. القناص يراه بوضوح من خلال المنظار، وفوهة البندقية مسددة إلى جبينه أو قلبه. غير أن القناص أطل برأسه نحو الشارع.

كانت سيارة بداخلها سليم، خرج منها، ونظر إلى العالي. القناص ينتظر أوامر أخرى. تكلم سليم بواسطة جهاز صغير محمول، فتراجع القناص وأعاد النظر من خلال المنظار. وسرعان ما رفع رأسه، مسح عرقه. وتكلم ثانية مع سليم.

شمل فاتح ما حوله بنظرة، كان ما يجري يحدث بمعزل عن العالم، العشاق متلاصقون فوق كراسيهم يتهامسون، شبان صغار انتحوا جانب خميلة يذاكرون في كتبهم المدرسية، عجائز يمشون الهوينى، الجنائني يلملم علب كولا فارغة من الأرض، العصافير تزقزق، الطيور تحلق عالياً وتحط على الأرض... كأن شيئاً لم يحدث، وشخصاً لم يقتل.

التفت سليم نحوه، تواجها من بعيد، تبادلا النظرات، تشابكت عيونهما، والتحمت ببعضها بعضاً، اتفاق حصل بينهما، لا مفر، المهمة ستنفذ. أشار له سليم بيده ليبتعد قليلاً. فتراجع فاتح صوب الخلف، كرر سليم الإشارة نحو اليمين، فانزاح فاتح إلى اليمين. أدرك أنه وضعه في الهدف تماماً. الأمور على ما يرام، تعاونه معهم سيسهل عملية التسديد بدقة، هذه المرة لن يخطئه.

أرخى القناص رأسه وراء المنظار، وأخذ يسدد من جديد. الرصاصة ستخترقه، قبل أن يسمع صوتها. لحظات تمر كأنها دهر، سمع صوت دقات قلبه، ثم صوت خربشة مكتومة، الصوت المختنق نفسه. ترى أي مكان من جسده انبثق منه الدم؟ انتظر

قليلاً، لم يسقط أرضاً، ولا دماء!! ما زال واقفاً على قدميه. التقط نظرة إلى صديقه؛ الدم ينفر من صدغه. الرصاصة الثانية كانت من نصيب جثته الهامدة. رفع بصره إلى العالي، كان القناص قد اختفى.

ركع إلى جواره مذهولاً، بدت ملامح صديقه أكثر طفولية من أي وقت مضى، حتى عندما كانا في المدرسة الابتدائية. الألوان الزاهية لملابسه، فقعت بالأحمر. فمه المفتوح يسيل منه الدم، تلك هي الكلمة التي أراد قولها له.

أدرك خالباً وسليم يتقدم نحوه، يحاذبه ويأمره بحزم:

«تابع طريقك إلى المركز ولا تنظر إلى الخلف».

كم كان أحمق. كل شيء يجري معكوساً.

سليم خشي ألا تكون الرصاصة الأولى قاتلة، فأبعده عن صديقه، كي يستطيع القناص إطلاق رصاصة الموت الأكيد. المهمة نفذت بالكامل.

تابع طريقه إلى المركز.

من نافذة مكتبه، نظر إلى الخلف.

سليم لم يعد وحيداً، توادرت إلى رصيف الحديقة عدة سيارات، نزلت منها عناصر مسلحة دخلت إلى الحديقة، وأحاطت بالمكان.

التفت سليم، لمحه واقفاً عند النافذة، ابتسم ولوح له بيده.

□□□

أحس أنه مدين لصديقه بتفسير.

ليس ثمة خطأ، الخطة أنجزت بنجاح، وإن كان هناك تعديل، فقد أصاب السيناريو في اتجاه آخر، نحوه هو بالذات.

التفسير لم يكن وافياً. ومن السخرية أنه أصبح بأمس الحاجة إلى صديقه، ربما أسعفه برأي، وقال له، لماذا هذا السيناريو غامض ومعقد إلى هذا الحد؟ ولماذا هو مرعب، وغير مفهوم؟!

حتى اللحظة الأخيرة، كان في منتهى الغباء ومنتهى التعاون، داخل خطة كان البديل فيها، استدرج خلالها صديقه إلى الموت. لن يتكهن ما هي، وليس بوسعه إدراكها... سوى أن هذا العالم لا قلب له، وبلا ضمير.

لو أنه يسمعه، فسوف يلومه، كنت تعرف عن الآخرين الكثير، أما عن نفسك، وما قد يلم بك، فأقل من القليل. وقد يواسيه، ما عرفته كان كافياً لقتلك.

هل سيقنعه؟ لا، معرفة الكثير مثل القليل لا تفيد شيئاً.

ألمه أن الضياء الذي أحاط به كان صاعقاً. صديقه لن يشاركه فيه، وهو أيضاً لن يتحمله، ولا مفر من أن يشق طريقه وحده في داخل هذا النور.

قال لنفسه، نور ليس أكثر من ظلام دامس!!

تمنى في هذه اللحظة، لو كان يسمعه.

Solo Piano Music

by Fawwaz Haddad

Novel

First Published in April 2009
Copyright © Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.
BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 409 - 3

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: نيسان (أبريل) ٢٠٠٩

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: دينا خليفة
(محترف بيروت غرافيكس)

عزف منفرد على البيانو

فوّاز حدّاد

"كان وقد انعتق من المفاوضات والحماية، ورقباء يعيّنون عليه أنفاسه، وقتلة ينتظرون الأوامر للإجهاز عليه، طليقاً في مكان ضيق بين الشموع والورود ونسائم تسري باردة، لا يعبأ بالاغتيالات والعملاء واحتمالات الموت. هذه الجدران، لا تربطه بالأرض، ولا ذلك المنظر المعافى بالثلج وأنوار تترامى خافتة.

هنا في مكان قصي، لا يدري أين هو حقاً، وزمان طليق بلا حسابات واحتياطات ومحاضرات. هنا حيث لا سياسة ولا إرهاب ولا إسلام ولا عقل ولا علمانية. جنح به التأمل والأسى، فأخذ حريته في الحزن والتفكير والشطط. صارحها، ولم يكن يبتدع، أو يستعير، أو حتى يتظاهر، وهي إلى جانبه، ترمقه ما زالت بنظراتها ذاتها، الحنون والداهئة، تتردد أنفاسها أكثر من أنفاسه، تعلو بصوتها الآتي من زمن بعيد أكثر من صوته الذي لا يسمعه غيره. قال لها إنه يحس، وإن كان مجرد إحساس، لكنه يقينيّ، بأن نهايته على الأرض دنت، واللقاء قريب."

من الرواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-409-3
9 789953 214092